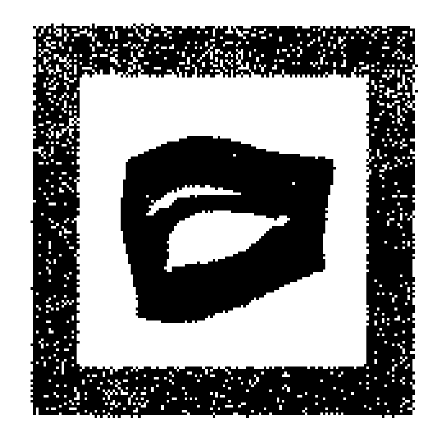
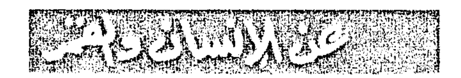


العدد ٥٥ سبتمبر ١٩٦٩

العدد
الخامس والخمسون
سبتمبر ١٩٦٩

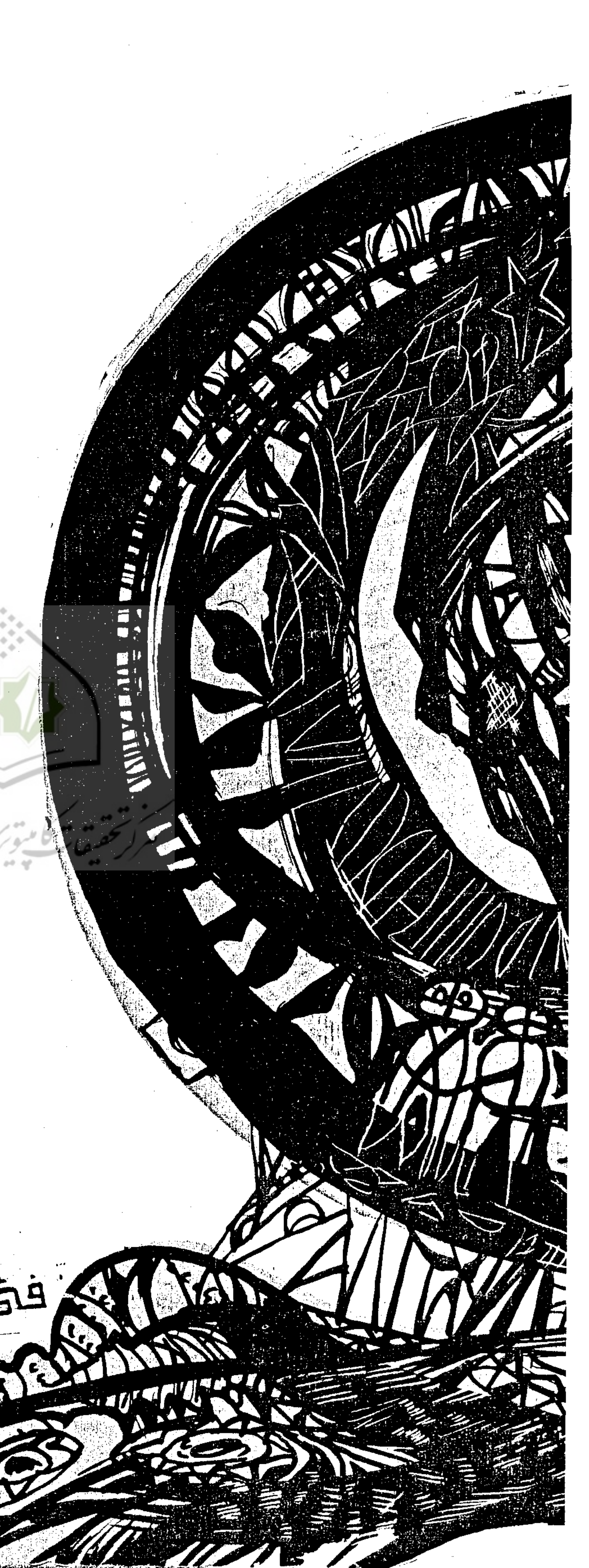


خواطر هادئة حول رحلة القمر

د. فؤاد زكريا

قلت لنفسي ، وأنا أتأهب لتدوين خواطري عن أروع حدث علمي وحضاري مرت به البشرية منذ قرون عديدة : راحت السكرة ، وجاءت الفكرة · فقد كنت أريد أن أفكر ، لا أن أنفعل ، ولذلك آثرت ألا أكتب عن هذا الحدث فور وقوعه · لقد كان العالم كله مبهورا ، وكانت العقول مسحورة بالرحلة التى تجاوز الواقع فيها أقصى حدود الخيال · وكان لا بد لمن يريد أن يتأمل الأمور فى منظورها الحقيقى أن يتريث قليلا حتى تهدأ النفوس وتخف حدة الانفعالات ، وتعود أنفاس الناس ودقات قلوبهم الى ايقاعها السوى المنتظم ، هو ذاته أن يستجمع شتات أفكاره بهدوء ، وبلا انفعال مفرط يبدد طاقة العقل ·

ولست أدرى هل مضى من الوقت ما يكفى لكى يطمئن المرء الى أنه يكتب وهو غير منفعل · فأغلب الظن أن ما حدث سيظل يلهب خيال الناس طويلا ، ولكن الذى أستطيع أن أقرره مطمئنا هو أننى حاولت ، بقدر ما استطعت ، أن أجمع الخيوط المتفرقة التى تحيط بهذا الحدث الجليل ، وأن أتأمله من منظور أوسع ، **دون أن تنبهر عيناى بوهج الكشف العظيم وحده ، فتختفى من حوله عناصر الاطار الذى لا يفهم هذا الكشف الا من خلاله** · وأحسب أن القارىء بدوره قد بدأ يستعيد من رباطة الجأش ما يتيح له أن يستمع الى حديث هادىء عن حدث لم يعرف الناس من بعده الهدوء ·



مكتبتنا العربية

القمر وسياسة الأرض :

لقد كنا جميعا ، خلال المرحلة الرومانتيكية التى أعقبت هذا الحدث مباشرة ، نؤكد أن هـذا نصر جديد للانسانية كلها ، ونردد مع زائر القمر الاول هتافه : **انها خطوة صغيرة لانسان واحد ، ولكنها قفزة هائلة للبشرية !** وكان طبيعيا أن يتردد صدى هذه النغمة الجميلة فى جنبـــات عالم مفتون بالاعجاز الذى تحقق · **ولكن هـــل كانت هذه قفزة للبشرية كلها ؟ وهل تسمح حقـــائق العالم الذى نعيش فيه بأن تشارك الانســـانية كلها فى جنى ثمار نصر علمى كهذا ؟**

ان من خصائص التفكير الرومانتيكى ، بوجـه عام ، انه يتجاهل الحقائق العملية والامور الواقعة لا سيما اذا كانت قبيحة · ومن المؤكد أن العالم قد مر ، على اثر هبوط الانسان على القمر ، بفترة نشوة رومانتيكية كان يحن اليها منذ أمد بعيد بعد أن ظلت أسلاك البرق لا تحمل اليه ، خلال سنين طويلة ، الا أنباء المعارك والمجازر والتسابق على القتل وتوازن الرعب بين طرفين يقف كل منهما مترصدا كل حركة للآخر · فى مثل هذا العالم بدت رحلة القمر ، فى أيامها الاولى ، نبأ رائعا من نوع غـــير مألوف ، **لأنه أول نبـــأ غير عسكرى أو غير سياسى يحتل المكانة الاولى فى صحف العالم واذاعاته ، وفى أحاديث الناس داخل بيوتهم وخارجها ، ولأنه أول نبأ يتركز فيه اهتمام العالم كله على موضوع يعلو على خلافات المعسكرات السياسية ومشاحناتها ، بل يعلو على مشكلات الارض كلها ، وينتقل بعقولنا لأول مرة ، وعلى نحو حقيقى لا مجازى ، الى ما يسمو على عالمنـــا الأرضى ·**

ولكن النشوة الرومانتيكيـــة لم تدم طويلا ، وكان أصحاب الانتصار العظيم هم أنفسهم الذين ذكروا العالم بحقائقه العملية القبيحة مرة أخرى وهم الذين سكبوا ماء باردا على رءوس الناس بعد أن أسكروها بكشفهم الرائع · فحتى قبل هبوط رواد القمر الثـــلاثة الى الارض ، كان **الرئيس نيكسون** قد بدأ رحلته الى بعض الدول ذات الوضع الشائك فى آسيا وأوروبا ، واستقبل رواد القمر وهو فى منتصف الطريق الى رحلته ، ولم ينتظر ولو يوما واحـدا بعـــد النصر العظيم · وكان واضحا أنه أراد أن يطرق الحديد وهو ساخن ، بل وهو فى أتون الفرن ، وأنه ــ بعد تاريخ حافل بالاستقبالات العدائية قل أن تحظى به شخصية عالمية أخرى (**خلال مدة نيابته لرئاسة الجمهورية**



منذ ما يقرب من عشر سنوات) _ أراد أن يستغل الانتصار الرائع فى نفس لحظة حدوثه ، علهيلقى هو وبلاده ، معاملة مختلفة من شعوب العالم المحرومة . ومع ذلك فقد حملت الينا الانباء أن الهتافات العدائية ، من أمثال « **اقذفوا به الى القمر !** » ظلت تتردد طوال الرحلة . وربما كان التاريخ الحافل الذى أشرت اليه قد ظل يلاحق صاحبه حتى اليوم . ولكن الاهم من ذلك هو ما يدل عليه الهتاف نفسه من أن حقائق الموقف العالمى قد عادت وفرضت نفسها على الناس، وأنهم أفاقوا سريعا من النشوة ، ولم يستطيعوا ، بالرغم من روعة الحدث ، أن ينسوا مشكلات عالمنا وصراعاته ، وانما بادروا الى ادخال الكشف العظيم فى اطار الخلافات العالمية السائدة .

والدلالة الواضحة لواقعة بسيطة كهذه هى أن الانتقال الى القمر لا يمكن أن ينظر اليه _ فى عصر كهذا الذى نعيش فيه _ من منظور انسانى شامل ، بل ان الناس لا يجدون مفرا من أن يربطوا بينه وبين صراعات الفترة الزمنية التى يمر بها العالم . وعلى حين أن هذا الحدث العظيم قد أتاح للانسان ، لأول مرة ، أن يرى بعينه المجردة كوكبنا هذا وقد بدا كرة صغيرة محلقة فى فضاء فسيح ، فقد تبين للبشر مع ذلك أنه ليس ثمة مفر من تأمل هذا الفتح الرائع فى ضوء الخلافات الجزئية التى يحتشد بها كوكبنا المزدحم المعقد .

خلاصة القول ان غزو القمر ، فى هذا العصر الذى نعيش فيه ، وفى الظروف التى تم فيها ، لا يمكن أن يكون عيدا خالصا للانسانية ، بل هو بالاضافة الى ذلك مرحلة من مراحل الصراع داخل الأرض نفسها . فللحدث العظيم وجهان لا ينفصل أحدهما عن الآخر : وجه انسانى شامل ، ووجه سياسى واقتصادى وعسكرى تتغلغل جذوره فى صراعات العالم فى الثلث الاخير من القرن العشرين .

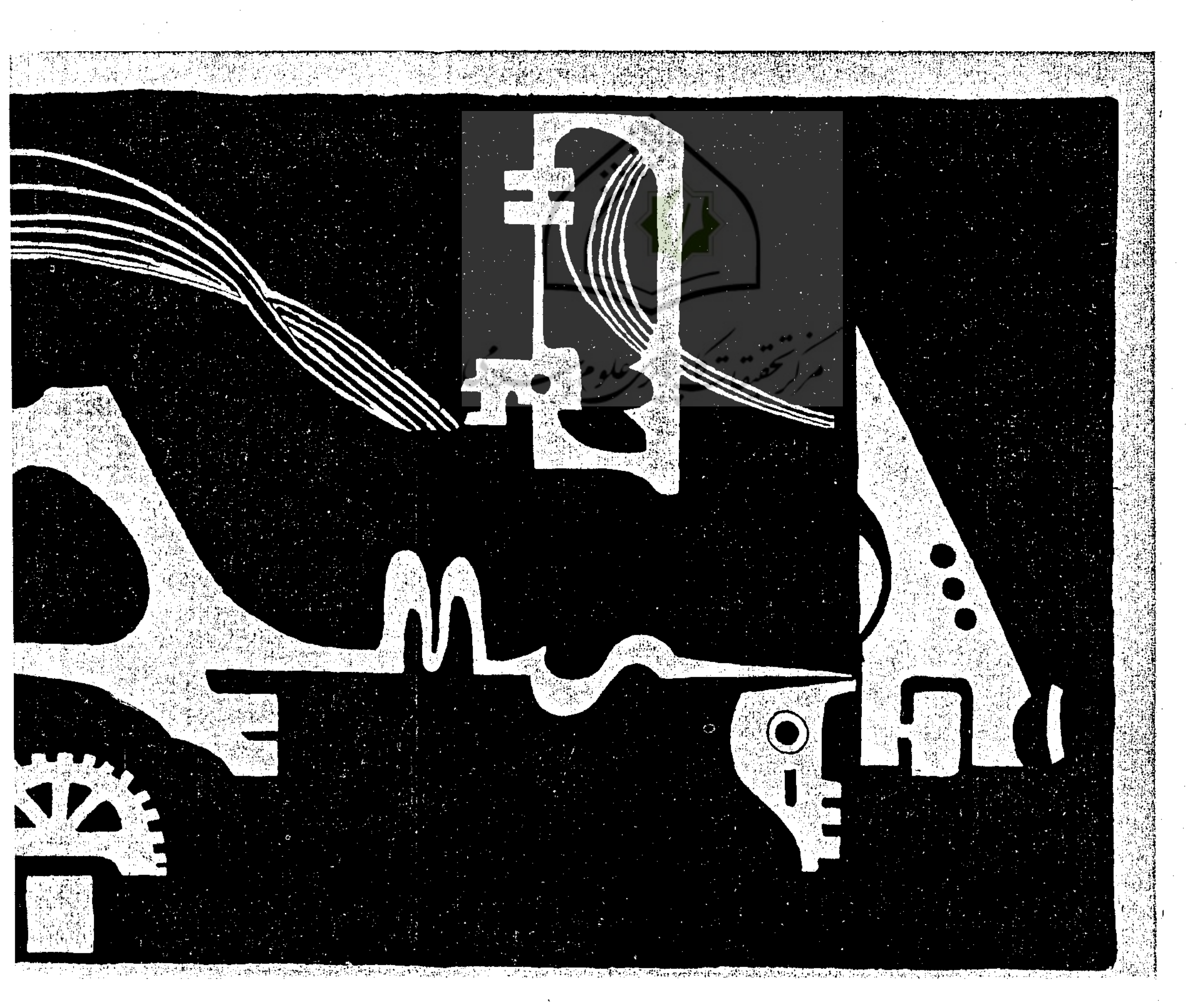
والآن ، فماذا نرى لو تأملنا ارتياد القمر من هذين الوجهين معا ؟

ان **الحقيقة الأولى** ، والأساسية ، هى أن عصر الفضاء بأكمله انما بدأ أصلا بوصفه واقعة من وقائع الحرب الباردة ، وجزءا لا يتجزأ من الصراعات المرتبطة بهذه الحرب . ففى أكتوبر من عام ١٩٥٧ ، عندما أعلن الاتحاد السوفيتى افتتاح هذا العصر بارسال « سبوتنيك » الى الفضاء ، كان من الواضح أن هذا الكشف الجديد _ والمذهل فى ذلك الحين _ مرتبط أوثق الارتباط بحقائق الحرب الباردة . ذلك لأن الاتحاد السوفيتى ترك الولايات المتحدة تنفق ألوف الملايين من الدولارات لكى تحيطه بقواعد عسكرية تساعدها على الوصول بالطائرات السريعة الى قلب بلاده ، فى حالة الحرب ،وركز جهوده على سلاح جديد يجعل من هذه القواعد العسكرية شيئا عقيما لا جدوى منه ، هو القذائف العابرة للقارات . ولقد كانت القوة الدافعة لهذه القذائف هي ذاتها التى أتاحت ارسال أقمار صناعية تدور حول الارض .وكان اطلاق القمر الصناعى الاول ينطوى علىالوجهين معا بوضوح كامل : فهو من جهة كشف علمى عظيم فتح أمام العقل البشرى آفاقا جديدة ، بل انه ظهر أصلا بوصفه جزءا من برنامج « **السنة الجيوفيزيقية الدولية**» (العام ١٩٥٧) ، وهو من جهة أخرى ايذان ببداية مرحلة جديدة فى الاستراتيجية العسكرية العالمية ، ودليل على أن أسلوب القواعد العسكرية القريبة من أراضى العدو ، والمحيطة به من كل جانب ، قد أصبح أسلوبا عفا عليه الزمان ، وعلى أن الدولة المتفوقة تكنولوجيا تستطيع أن تصيب أهدافا على بعد آلاف الاميال دون أن تضطر الى مغادرة أرضها . وكانت التعليقات التى استقبل بها العالم هذا الحدث تكشف بوضوح عن تلازم هذين الوجهين . فبالاضافة الى الترحيب بدخول البشرية عصرا جديدا ، هو عصر استكشاف الفضاء ، كان هناك ادراك واضح _ لا سيما فى الولايات المتحدة _ للامكانات الاستراتيجية التى ينطوى عليها هذا الفتح الجديد . ولم يكن من الممكن أن تقفالولايات المتحدة مكتوفة الايدى وهى تشهد خصمها ينقل توازن القوى الى مرحلة جديدة ترجح فيها كفته رجحانا واضحا . وهكذا قررت الولايات المتحدة أن تدخل سباق الفضاء بكل قواها ،وكان من الواضح أن تضافر الاموال الامريكية والعقول الالمانية يستطيع أن يحقق الكثير .

ومنذ ذلك الحين كانت كل مرحلة من مراحل سباق الفضاء تكشف عن التداخل الوثيق بين الوجهين : **العلمى والسياسى ، أو الانسانى والعسكرى** . فعلى حين أن أوزان الأقمارالصناعية أخذت تثقل ، وحمولتها البشرية تزيد ، وفوائدها العلمية تتراكم ، فان استخداماتها الحربية كانت فى الوقت ذاته تتنوع ، من صواريخ تحملها الغواصات السريعة التنقل ، الى صواريخ مدفونة تحت الارض ومصوبة الى أهداف محددة فىأراضى العدو ، الى صواريخ متعددة للرءوس ، الخ .. وبينما كان العالم يهلل لأقمار الاتصال التى

أتاحت الربط بين أجزاء كبيرة من العالم فى شبكة تليفزيونية ولاسلكية واحدة ، كان نوع مشابه من الاقمار يقوم بمهمة الجاسوس العالمى الذى يدور حول العالم على فترات منتظمة لكى يصـــور بدقة ما يجرى فى كل بقعة صغيرة منه · وهكذا كان عنصر المنافسة العســـكرية ــ **التى تعد انعكاسا للمنافسة الايديولوجية** ــ واضحا منذ اللحظة الأولى ، الى جانب عنصر المنافسة العلمية·

وأصبح كل نصر جديد يحرزه أحد الطرفين فى ميدان الفضاء ، لا يعد دليلا على ارتفاع مستواه العلمى والتكنولوجى فحسب ، بل يستغل أيضا بوصفه مظهرا لتفوق نظامه الاجتماعى · ولم تكن حرب الدعاية ، التى تكمن من وراء المنافســـة فى ميدان الفضاء ، خفية أو متوارية خلف ستار بل كانت صريحة سافرة · وعلى الرغم من« **الروح الرياضية** » التى دأب كل من الطرفين عـلى أن يبديها ازاء الآخر ، فيبعث اليه ببرقيات التهنئة كلما أحرز نصرا جديدا ، فان السباق كان يجرى على أشده لكى يثبت كل طرف للآخر ، ولبقيـــة العالم ، أن نظامه الذى أتاح له احراز هذا النصر أفضل من النظام الآخر · وحين ظهر بوضوح للدولتين المتنافستين أن كشوف الفضاء هى أكثر أنبـــاء عالمنا المعاصر اثارة لشعوب الارض كلها ، وأقواها تأثيرا فى ميدان الدعاية ، أخذت حرارة المنافسة بينهما تشتد ، ولم تعد كل منهما تبخل بجهــد أو بمال على هذا الميدان الذى لم يكن له وجود منذ سنوات قلائل · وفى اعتقادى أن هذا العامل من العوامل الهامة التى أدت الى الاسراع بسباق الفضاء ، واعطائه الاولوية فى ميزانيات الدولتين المتنافستين ·



فى ضوء هذه الاعتبارات يمكن القول انوصول انسان أمريكى الى القمر يعد دفعة قوية للنظام الرأسمالى بأسره ، وهى دفعة ينبغى أن تعمل لها الدول البعيدة النظر حسابا • صحيح أن أناسا كثيرة قد شعروا بالاسف لأن المجتمع الذى تمعلى يديه هذا الكشف هو نفسه المجتمع الذى يسحق الانسان فى فيتنام ، ويمتص خيرات أرض امريكا اللاتينية ، ويهدر حقوق شعب بأكمله فى فلسطين ، ولكن للقوة فى عالم القرن العشرين احترامها ، مهما كانت غاشمة ، وأبلغ دليل على ذلك أن بلدا هائلا كالصين قد عمد الى اخفاء أنباء رحلة القمر فترة طويلة ، وذلك ـ قطعا ـ بدافع الخوف مما يمكن أن تحدثه هذه الانباء من تأثير فى معنويات شعبه ، مع أن هذا الشعب ربما كان أشد شعوب الارض عداء للنظام الامريكى واصرارا على مواجهته •

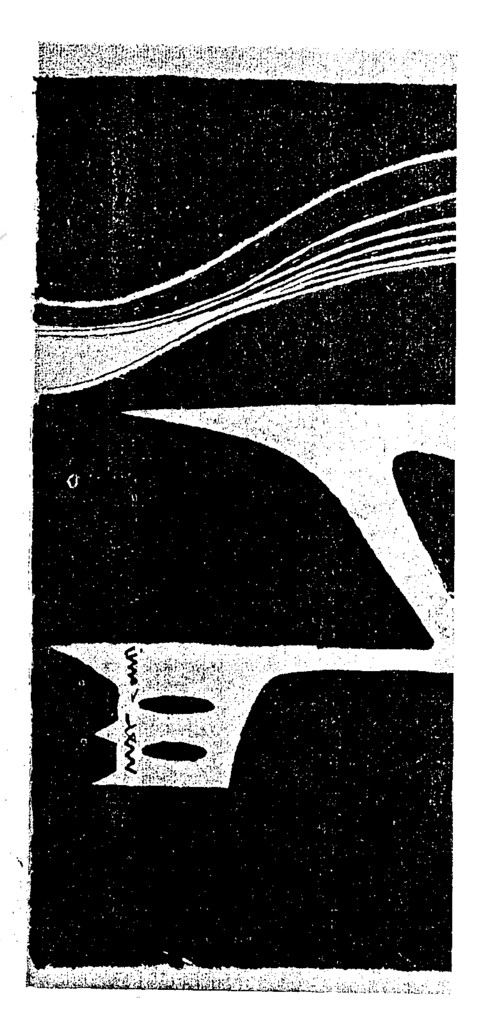
وعلى أية حال فان الامر المؤكد الذى يثبته هذا الكشف هو أن أصحاب الحلول السهلة والعبارات الروتينية المحفوظة عن الانهيار الوشيك للرأسمالية التى تتآكل بفعل تناقضاتها الداخلية ينبغىأن يدركوا أنالواقع أعقد بكثير مما يتصورون أما بالنسبة الينا ، نحن سكان العالم الثالث ، فهذا دليل آخر ـ ان كان يعوزنا الدليل ـ على أن المستقبل رهن بالتقدم العلمى ، وعلى أنانسان المستقبل لن تكون له كرامة الا بقدر علمه •

وعلينا أن ندرك أن الهوة تزداد اتساعا بسرعة مخيفة بين الأمم العارفة وغير العارفة ، وأن نركز كل طاقتنا فى اللحاق بالركب

العلم والتخطيط فى عصر القمر :

ان روعة الكشف الذى تم ، والدقة المذهلة التى أنجز بها ، ربما جعلت الكثيرين ينسون حقيقة معروفة ، هى أن عصر الفضاء بأكمله يقل عمره عن اثنى عشر عاما ! فلم يكن أحد يتصور ، قبل انطلاق « سبوتنيك » السوفيتى فىأكتوبر من عام ١٩٥٧ ، أن الفضاء قابل للاستكشاف وللملاحظة التجريبية المباشرة بواسطة الآلة ، وبواسطة حواس الانسان ذاتها • وما زلت أذكر ذلك المثل الذى ساقه برترند رسل فى أحد كتبه الفلسفية التى صدرت قبل هذا التاريخ بفترة غير طويلة ، حين وصف أية قضية تتحدث عن الوجه الآخر للقمر بأنها قضية غير قابلة للتحقيق التجريبى • هكذا كانت العقول الممتازة ذاتها تتصور الامور قبل أكتوبر ١٩٥٧ !

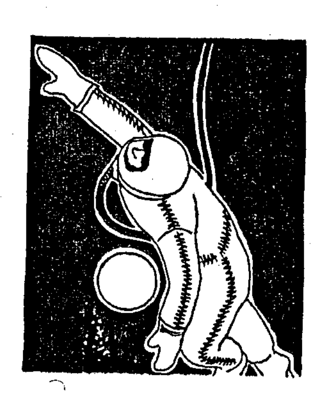
لكن ، هل كان أحد يتصور ، بعد هذا التاريخ ذاته مباشرة ، أن التطور سيسير بهذه السرعة المذهلة ؟ لقد حاولت الولايات المتحدة فى أواخر العام نفسه ، أن تدخل سباق الفضاء ، وكان أول مشروعاتها صاروخ « فانجارد » • ولن أنسى تلك التجربة الأولى التى شاهدتها بنفسى على شاشة التليفزيون الامريكى فى يوم من أيام ديسمبر عام ١٩٥٧، حين كان الشعب الامريكى كله يترقب بأعصاب متوترة صعود الصاروخ الذى يحمل



قمرا صناعيا أظن أن وزنه كان خمسة أرطال ، فاذا بالصاروخ ، بعد أن أصدر ضجيجا يصم الآذان ودخانا يغشى العيون ، يرتفع بتؤدة فوق الارض مسافة لا تزيد عن المترين ، ثم يميل بتثاقل على أحد جانبيه ، لينتهي به الامر الى رقاد مريح. وفي الأيام التالية ، كانت السخرية تنهال على المشروع بأكمله ، حتي أن ابن مصمم المشروع كان يشكو من أن تلاميذ المدرسة الصغار أخذوا يعيرونه ولا يكفون عن سؤاله : **متى يقذف أبوك بهذه الكرة الى أعلى ؟**

بين هذا الحادث ، وبين أول خطوة خطاها نيل أرمسترونج على أرض القمر ، أقل من اثنى عشر عاما . فما دلالات هذا التطور المذهل ؟

ان أولى الدلالات ، بطبيعة الحال ، هى المعدل المخيف لسرعة التقدم العلمى والتكنولوجى . ففى جيل واحد ، بل فى فترة قصيرة من حياة ذلك الجيل ، استطاع العقل البشرى أن ينتقل من الاخفاق فى ارسال كرة صغيرة فى مدار حول الارض ، الى النجاح فى ارسال مركبة كاملة تهبط برفق ، ومعها حمولتها من البشر والآلات ، فوق القمر ، ثم تغادره وتعود الى الارض فى زمانها ومكانها المحددين . وخلال هذه السنوات القلائل تمكن الانسان من أن يسيطر على آلاف المشكلات المتعلقة بقوة دفع أحمال ضخمة بسرعة هائلة تكفى للافلات من جاذبية الأرض ، والتغلب على الحرارة الشديدة الناتجة عن الاحتكاك بالغلاف الجوى عند العودة ، وتحديد اتجاه الصاروخ حين يخرج من أرض تتحرك بسرعة هائلة ليصيب قمرا يتحرك بدوره بسرعة هائلة على مسافة مئات الألوف من الأميال ، وحل عشرات المشكلات الطبية والبيولوجية المتعلقة بحياة رواد الفضاء فى مركبتهم وتنفسهم وتغذيتهم وغير ذلك من وظائفهم الطبيعية فى جو محكم الاغلاق ، ونوع ملابس الرواد فى كل مرحلة من الرحلة ، والانفصال عن السفينة الأم وعودة الاتصال بها ، والسير دون خطأ على أرض كوكب مجهول ، والاتصال اللاسلكى والتليفزيونى بالارض من هذا البعد السحيق ، الى آخر المشكلات الهائلة العدد التى كان أبسط خطأ يرتكب فى احداها كفيلا بافساد الرحلة كلها . **وكان حل هذه المشاكل يعني تقدما علميا وتكنولوجيا فى مجالات الفيزياء والكيمياء والفلك والرياضة والحاسبات الالكترونية والفسيولوجيا والطب والتغذية وغير ذلك من الميادين المعروفة ، والميادين الجديدة التى استحدثها عصر الفضاء .**



ومن الأمور البالغة الدلالة ، بالنسبة الى هذه الرحلة القمرية ، أن كل شيء فيها كان محددا بدقة ، حسب تخطيط محكم وضع منذ سنوات طويلة . فالعالم كله كان منذ سنوات يعرف التاريخ المحدد لهبوط الانسان على القمر . وانى لأعترف بأننى كنت كلما سمعت ذلك التاريخ انتابنى الشك فى امكان بلوغ هذا الهدف الطموح **ولم أصدق ما حدث الا بعد أن حدث !** والأمر الذى يدعو الى الحيرة حقا هو أن هذا التخطيط البالغ الدقة قد تم وضعه وتنفيذه بنجاح فى ظل نظام اجتماعى كان على الدوام يشكك فى قيمة التخطيط الذى يحشد له المجتمع أكبر قدر من موارده لكى يحقق هدفا حدده مقدما . ولست أدرى **هل سيؤدى هذا النجاح الى تطبيق التجربة نفسها فى ميادين أخرى ، أم سيظل هذا المجتمع يعترف بقيمة التخطيط فى ميدان ، وينكرها فى سائر الميادين ؟**

هذا السؤال له ، فى نظرى ، أهمية بالغة . ولكى يتصور القارىء ما أعنيه ، أود أن أعقد مقارنة بين الطريقة التى تم بها الوصول الى القمر ، وطريقة البحث عن علاج لمرض السرطان ، فى الولايات المتحدة . فمن المعروف أن مشكلة مكافحة السرطان ، الذى يعد أشد الامراض فتكا بالانسان ، ولا سيما فى البلاد الصناعية المتقدمة ، تحتل فى تفكير كل أمريكى – وربما كل انسان فى العالم – أهمية لا تقل عن أهمية الوصول الى القمر ، ومن المؤكد أن فرحة العالم ، وضمنه الشعب الامريكى ، بالوصول الى علاج حاسم للسرطان ستزيد أضعافا مضاعفة عن فرحته بنزول الانسان على القمر . ومع ذلك ، فكيف تجرى الابحاث فى أمريكا للتغلب على هذا المرض القاتل ؟ ان أساس هذه الابحاث ، وغيرها من الابحاث الخاصة بالامراض الاخرى ، هو التبرعات التى تقدمها المؤسسات الخيرية والأفراد . وتشرف على حملات التبرع هذه شركات للاعلان والعلاقات العامة ، تتقاضى بالطبع مبالغ باهظة . وبقدر براعة الشركة المشرفة على الحملة تتحدد الاموال التى تخصص للبحث العلمى فى أى مرض بعينه . وكثيرا ما يحدث أن ينال مرض ضئيل الانتشار أموالا هائلة ، بينما لا ينال مرض أخطر منه وأوسع انتشارا بكثير ما هو جدير به من التبرعات ، لا لشىء الا لأن الشركة التى تشرف على الحملة الاعلانية للمرض الاول أبرع من الاخرى ، أو لأن ممثلا مشهورا تطوع باقامة برامج تليفزيونية لصالح هذا المرض (وهو تطوع يكتسب بفضله الممثل ، فى الوقت ذاته ، صورة نبيلة فى أعين الجماهير ، تعود عليه آخر الأمر على شكل مزيد من الاقبال على أفلامه) . والمهم فى الأمر أن عوامل عرضية كثيرة تتدخل فى تحديد مقدار الأموال التى تخصص للبحث العلمى فى الأمراض . وصحيح أن مرضا كالسرطان لديه موارد ثابتة من مؤسسات مضمونة ، ولكن هذه الموارد لا تقاس على الاطلاق ، سواء من حيث انتظامها ، بقدر ضئيل من الموارد المخصصة لبرنامج الفضاء .

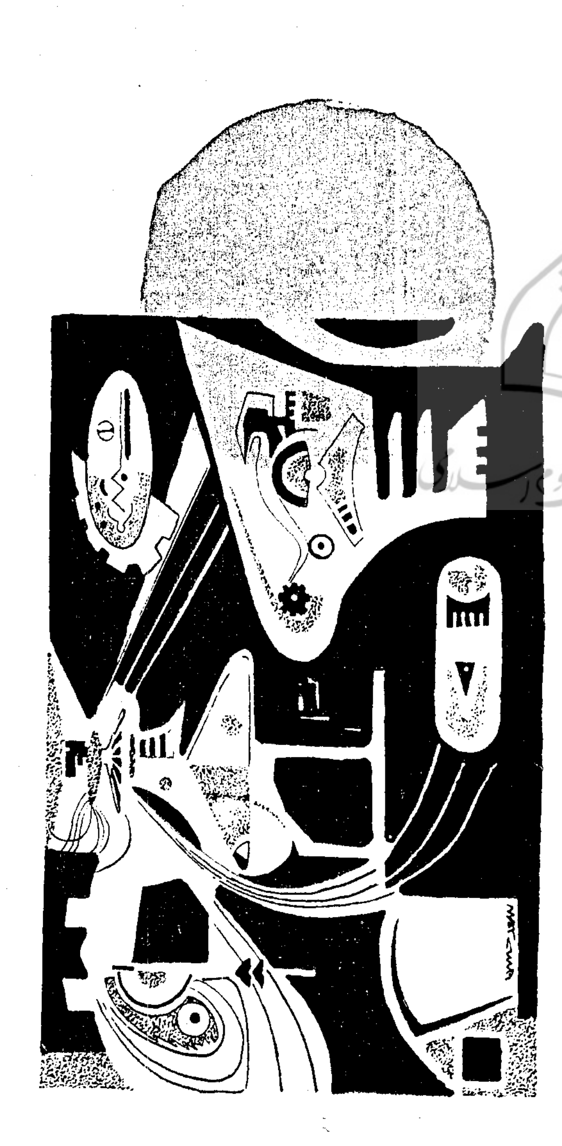
ومن الأمور التى تدعو لأول وهلة الى الدهشة فى برنامج الفضاء الذى توج بالوصول الى القمر أن التخطيط العلمى فى هذا البرنامج لم يكن يعترف بأية مشكلات متعلقة بقدرة العقل البشرى أو عدم قدرته على الاختراع . ففى الوقت الذى وضع فيه البرنامج ، وحدد فيه وقت معين للنزول على القمر ، كانت هناك آلاف المشكلات لم تحل بعد . والمفروض ، من وجهة النظر التقليدية المألوفة ، أن التنبؤ الدقيق بمراحل الكشف فى المستقبل مستحيل ما دامت هناك مشكلات لم يتيسر حلها ، وما دام وصول العبقرية البشرية الى حلول ناجحة لمشكلاتها أمرا لا يمكن تحديده بزمان ثابت ، أو التنبؤ به مقدما . ومع ذلك فان البرنامج لم يقم أى وزن لهذه العقبة ، بل وضع تخطيطا معينا ، ونفذ كل مرحلة فى هذا التخطيط فى موعدها المحدد .

والفكرة الجديدة فى هذا هى أن المجتمع اذا استطاع أن يعبىء الموارد اللازمة ، مهما عظمت ، والعدد الكافى من العلماء والفنيين ، مهما كبر ، فعندئذ لن تقف عقبة فى وجه البرنامج الذى يخططه على أساس مدروس بدقة . وبعبارة أخرى فان الفهم التقليدى للكشف العلمى والتكنولوجى الذى يعتمد على انتظار هبوط الوحى بالحل السعيد على ذهن العالم أو المخترع ، قد طرح جانبا فى هذا البرنامج ، وأصبحت الامور تسير على أساس مبدأ جديد هو : لا تبخل بالمال ولا بالرجال ، وسيتم كشف كل ما هو مجهول فى الموعد المطلوب . ويمكن القول ، بناء على ذلك ، ان نجاح رحلة القمر فى موعدها ، والوصول الى حلول لألوف المشكلات التى كانت مجهولة ، فى الوقت المحدد ، ربما كان ايذانا ببداية عصر جديد ، لا فى كشف الفضاء الكونى وحده ، بل فى منهج البحث العلمى ذاته .

هذا المبدأ لو طبق على السرطان ، أو على غيره

من الآفات التى تفتك بالبشر ، لكان كفيلا بحل المشكلة . والأمر الذى يكاد يكون مؤكدا هو أنه لو خصصت لهذا النوع من المشكلات الانسانية نفس الجهود ونفس الاموال ، وكرست لها موارد وامكانات مجتمع صناعى متقدم كالمجتمع الامريكى لأصبح السرطان وغيره من الامراض الفتاكة مجرد ذكريات أليمة لا ترد الا فى القصص وكتب التاريخ .

إننى لست الآن فى معرض اللوم أو النقد ، ولست أود أن أردد ، مع الكثيرين من أصحاب النزعات الانسانية : ألم يكن هذا أجدر بالاهتمام من ذاك ؟ وهل انتهت مشكلات الانسان على الأرض لكى نكرس كل قوانا للانتقال الى القمر ؟ هذه فى رأيى أسئلة ليس لها الآن جدوى ، وذلك لسببين : أولهما أن نجاح التخطيط العلمى فى ميدان معين هو فى ذاته أمر يدعو الى التفاؤل ، لأنه يجعلنا نتطلع الى اليوم الذى يتحقق فيه تخطيط مماثل فى سائر الميادين . والسبب الثانى هو أن كثيرا من أروع الكشوف العلمية والثورات الحضارية التى غيرت مجرى الحياة البشرية ، قد ظهرت فى البداية نتيجة لدوافع ليست كلها انسانية خالصة . والى هذا العامل الثانى أنتقل الآن .



شىء من الخيال :

ان وصول الانسان الى القمر ، مهما كانت دوافعه الايديولوجية أو العسكرية ، **هو فى رأيى أمر يدعو الى التفاؤل لأكثر من سبب** . ولست أود أن أتحدث عن نتائجه المباشرة التى يعرفها الجميع ، كما أننى لا أود أن أطيل الكلام عن نتائجه غير المباشرة ، التى تتخلص فى أن البلايين التى أنفقت لم تصرف كلها من أجل سفن « أبولو » وحدها ، بل ان هناك كشوفا جانبية عديدة تمت أثناء الاعداد لهذا البرنامج الضخم ، لا بد أن تنعكس آثارها على حياة الانسان اليومية فى هذه الارض خلال السنوات القليلة المقبلة . وانما الذى أود أن أتحدث عنه ، بشىء من الخيال ، هو ما يمكن تسميته بالنتائج البعيدة لهذا الحدث العظيم .

فى رأيى أنه ليس من المصادفات أن يتمكن الانسان من استبدال القلب البشرى ، ومن الهبوط على سطح القمر ، فى فترة متقاربة . انه فى كلتا الحالتين لا يرضى بوضع طبيعى فرض عليه

منذ آلاف السنين ، ويحاول أن يصنع لنفسه ، بيديه ، وضعا آخر . ومن المسلم به أن مسار المدنية كلها ، منذ بدايتها حتى الآن ، يتلخص في عدم رضاء الانسان بالاوضاع التى يجد نفسه فيها ، ومحاولته أن يتحكم بنفسه فى حياته وفى بيئته . ولكن ما يتم فى هذه الايام شيء أعمق من ذلك بكثير . ان الانسان يحاول أن يتحكم فى تركيبه الداخلي « الطبيعى » من جهة ، ويحاول من جهة أخرى أن يتلمس لنفسه سبيلا للحياة فى وسط مخالف لذلك الوسط « الطبيعي » الذى كان يعتقد أنه لا يصلح الا للعيش فيه . هذا الاتجاه الى تحدى كل ما درجنا على أن نعده « طبيعيا » — سواء فى ذلك تركيب عقولنا وقدراتنا الذهنية والبدنية وتكويننا البيولوجى وطريقة تكاثرنا ، الخ — هو الذى سيسير فيه التطور فى المستقبل .

وبالمثل فليس من قبيل المصادفات ، فى اعتقادى ، أن يتمكن الانسان من الوصول الى القمر قبل وقت غير طويل من تلك اللحظة الحرجة التى يتوقع علماء السكان أن يصل اليها العالم ، حين يصل عدد سكانه الى حد لا تعود عنده موارد الغذاء كافية ، بل لا يعود فيه مجال كاف لتحرك البشر فى يسر على سطح الأرض . وها هى ذى بوادر الحل قد ظهرت .

ان المستقبل يحمل فى طياته للجنس البشرى نوعا من الحياة يمكنه أن يستبدل فيه بأعضائه الطبيعية التالفة أعضاء أخرى صناعية أفضل وأكفأ وأن يكتسب القدرة على استئصال الامراض كلها . فاذا تحقق ذلك ، فما الذى يمنع من تصور انسان يعيش ، فى المتوسط ، مائتى عام ، ثم خمسمائة عام ، وما الذى يمنع من محاولة قهر الموت ؟

ولنتأمل الامر من زاوية أخرى : ان جاذبية القمر سدس جاذبية الارض ، والجهد الذى يتحمله قلب الانسان على سطح الأرض يستطيع أن يتحمل ستة أضعافه على سطح القمر . وهذا وحده كاف — حتى بدون التقدم الطبى — لكى نتصور انسانية تحقق لنفسها ، فى السماء ، حياة أخرى أبقى من الحياة الارضية **وستكون هناك علاقة متبادلة بين طول عمر الانسان وبين استكشافه لأبعاد الكون الفسيح** . اذ أن الحياة فى الفضاء بلا جاذبية أو بجاذبية قليلة ، ستؤثر هى ذاتها فى اطالة عمر الانسان ، واستكشاف الكواكب ثم النجوم البعيدة يحتاج من جهة أخرى الى انسان يعيش مئات السنين حتى يقطع الرحلة الطويلة .

ولنتخيل ماذا يستطيع مثل هذا الانسان ، سواء على الارض أو فى الفضاء الفسيح ، أن ينجزه خلال حياته الطويلة . لقد أنجز الانسان فى جيلنا الحالى كشوفا مذهلة في ميدان الفضاء فى مدى اثنى عشر عاما فقط . ومعدل التقدم العلمى فى ازدياد مستمر : **فما ننجزه الآن فى خمسين عاما سينجزه الانسان عند نهاية القرن فى عشرة أعوام ، وربما أنجزه فى القرن التالى فى عامين أو ثلاثة ، وهلم جرا** . فاذا أضفنا الى ذلك زيادة كبيرة فى عمر الانسان ، ومزيدا من الخبرات لكل جيل على حدة (اذا ظل هناك معنى لكلمة «جيل» فى المستقبل) ، فهل يستطيع الخيال عندئذ أن يحيط بما يمكن انجازه ؟

ان تطورات مذهلة تنتظر الإنسان ، وما نشاهده اليوم ليس الا أول البدايات . فما زال تاريخ البشر حتى الآن « أرضيا » ، ولكن بوادر التاريخ « السماوى » قد بدأت تظهر . والمهم أن تظل البشرية حية ، وتلقي جانبا بتلك الالعاب الخطرة السخيفة المسماة بالاسلحة النووية والأسلحة الكيميائية والبكتريولوجية . وعندئذ ، نستطيع أن نتساءل : **اذا كانت الانسانية قد انتقلت من عصر الخيل الى عصر الصواريخ والقمر فى مائة عام ، فما الذى ستكون عليه أحوالها لو عاشت ألف عام أخرى ؟**

لنسرح بخيالنا لما نشاء ، فسوف تظل عقولنا الحالية ، مهما أسرفت في التخيل ، عاجزة عن ادراك لمحة واحدة من أبعاد هذا الافق الفسيح .

فؤاد زكريا

هل يؤثر القمر في حضارة الأرض؟



أحمد ابراهيم الشريف

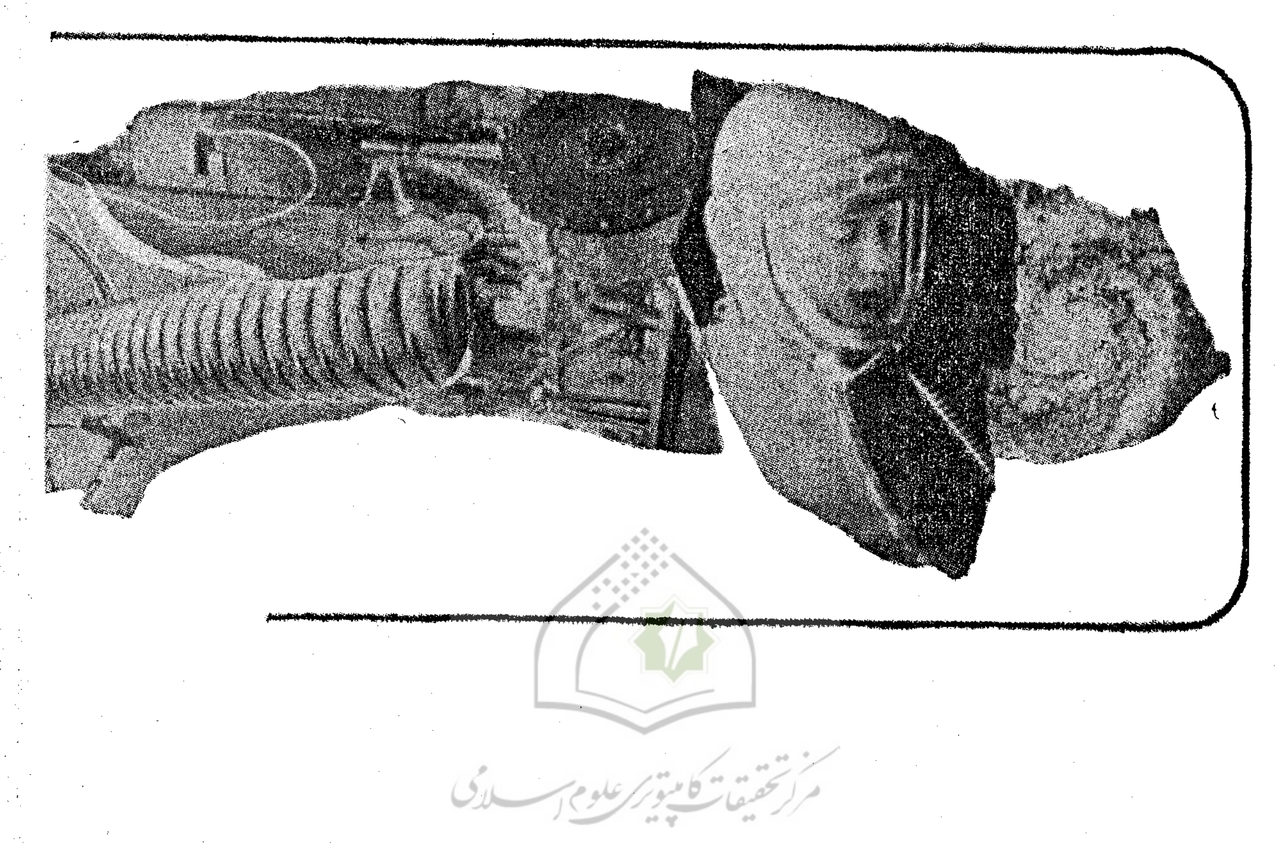
لم يكن أثر القمر على الارض فى أى عهد من عهـوده ضعيفا ولا مجحودا فضلا عن أن يكون معدوما على الاطلاق .

كان للقمر دائما أثر على الحياة اليومية للبشر ، تمثل فى خرافاتهم وأساطيرهم وفى أقوال المنجمين عن سيطرته على المصائر والاقدار ، وحسبنا فى هـذا السبيل أن نذكر أن الانسانية قاطبة شرقها وغربها قد اتفقت على أن تخصص له يوما من أيام الاسبوع هو يوم الاثنين الذى يعتقد الشرقيون أن الجسم السماوى المسيطر عليه هو القمر كما تخبرنا بذلك رسائل أخوان الصفاء ، والذى أطلق عليه الغربيون اسم « **يوم القمر** » (بالانجليزية Monday) (وبالفرنسية Lundi)، وأن نذكر كذلك أنهم سـموا مجـانينهم باسم « **عشاق القمر** »

القمر يؤثر فى حياة الانسان

وتخطى أثره على الحياة اليومية هـذا النطاق الى التأثير على لقمة العيش واقتصاديات الحياة ، وذلك بتأثيره فى المد والجزر والملاحـة فى البحار من وراء ذلك ، وبتأثيره أيضـا على انارة الطريق للسـارين فى ظلمات البر والبـحر يحملون معهم التجارة والحضارة على مر العصور . **ولا يستهين أحد بهذين الأثرين لانهما هينان فى يومنا هذا ، فمـا كانا بهينين فى زمن الشراع والجمـل .** واذكر فى هذا الصدد أن سئل أحد المتحنين فى الدراسات العليا عن الموعد الدقيق الذى تم فيه اقلاع كولومبس فى رحلته التاريخية الى الشرق عن طريق الغرب التى عثر فيها بقارة أمريكا ،. ويبدو أن الطالب قد أراد أن يتخلص من المأزق بذكر أى كلام ، صح أم لم يصح ، فما كان من الاستاذ الا أن قال له ، « **لو كان الامر كما تقول لما أبحرت سفن المستكشف بتـاتا ، فما كان فى الاستطاعة للرحلة أن تسـير الى وجهتها الا عند تمام المد بعد بضع ساعات** » الى هـذا الحـد كان للمد والجزر أهمية على الملاحة والملاحين .

وكان له دائما تأثير غير مجحود ولا منكور على



قلب الانسان . ومن منا لا يعلم مدى تأثير القمر على الشعر والشعراء وعلى القصص والقصاصين وعلى كل فن وكل فنان وما أكثر الاساطير التى تتعلق بالقمر ووجدان الانسان نحوه . لقد ألهه قوم وعبدوه ومنهم أجدادنا الفراعنة الأكرمون ، واتخذه قوم آخرون مثالا للرقة والحنان وللخصب والدماثه فوصفوا به المرأة لاشتراكهما فى هذه الصفات، وجعلوه رمزا للخير والخصب والرخاء. وتغنى به الشعراء الوثنيون والمؤمنون وحتى الملحدون فى القديم والحديث فى الشرق والغرب على السواء .

وكان له دائما تأثير على علم الانسان وثمار عقله . علم الانسان أنه يستطيع أن يضبط أوقاته ومواعيده حسب ظهور القمر وتقلب أحواله بين الهلال الوليد الى المحاق البليد فكان للانسانية منه تقويم معروف ومعمول به حتى الآن .

وعلم الانسان أن خسوف القمر ظاهرة يمكن حسابها بدقة بالغة مبلغ دقة الرياضيات المشهورة ، فأخذوا يحققون تواريخهم القديمة والحديثة بالمعروف المذكور فى أضابير التاريخ من خسوفه وكسوفه ، أو تعرضه لظل الارض عليه والقائه ظله على الشمس كيفما كانت الاحوال .

وعلم الانسان أن دراسة الاجرام السماوية ، شمسها وقمرها وكواكبها تتيسر بدراسة الظواهر التى تتاح للآمراض الانسانية فى حالات الخسوف والكسوف ، ليصحح بها أفكارا ونظريات وليزداد علما بنفسه وبالكون الذى يحيط به ، فأقام المراصد وتجاوز حدود السياسة وسدودها وقصور العصبيات الحقيرة حتى مايمتنع الامريكى من أن يقيم أياما وأياما وسط الملونين والسودان ليشترك فى الرصد مع الراصدين، وحتى مايمتنع البوذى أن يعيش فى وسط المنبوذين بحثا عن علم جديد ...

القمر يؤثر فى علم الانسان

وحسبنا من أثر القمر على عقل الانسان وعلمه

أن **أرسطوطاليس** قد جعل فلك القمر كالحجاب الحاجز الذى يفصل بين عالمين ، عالم ما فوق فلك القمر وهو العالم النورانى الربانى الكامل الذى يتحرك حركة دائرية هى أكمل الحركات التى تليق بجسم الهى علوى نورانى ينطوى على عقل مفكر فعال ويتحرك لا بعلة فاعلة تدفعه بل بعلة غائية تجذبه شوقا الى الكمال الابدى المنزه عن كل ضريب ونظير : **كمال الله وجماله** • وعالم ما دون فلك القمر ، وهو العالم الجسدى الحقير الشديد الكثافة والغلظة والذى يتحرك حركة مستقيمة طولية الى فوق وتحت وذات اليمين وذات الشمال والذى يخضع للكون والفساد، ولايتحرك الا بعلة فعالة تخرجه من القوة الى الفعل حسب المذهب المشهور •

هذه الفكرة القمرية فى فلسفة أرسطوطاليس هى الفكرة التى سيطرت على عقول المفكرين والعلماء وأدت الى أن تستقر فلسفة أرسطو حتى تصير ايمانا ومحكا لكل ايمان ، من خالفها فقد فسق وخرج على الدين واستحق عقوبة محاكم التفتيش ، ورحم الله **جاليليو** ، فقد كان واحدا من ضحاياها وشهداء العلم الأولين • **وحسب فكرة أن تسيطر على عقل الانسان زهاء ألفين من الأعوام • ويا للاستقرار والرضا الذى كان • ومن ذا الذى لا يحسدهم عليه فى وقت لاتسيطر فيه فكرة على عقل فرد واحد من البشر مدى ألفين من الايام فضلا عن الاعوام •**

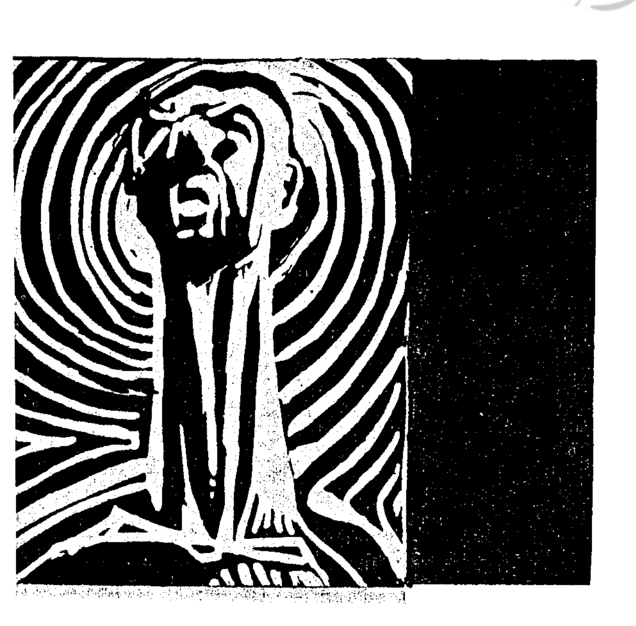
خلاصة الأمر أن القمر قد كان على الدوام ذا تأثير على الارض وساكنها فى حياته المعنوية والمادية ، وأن أثره لم يكن ضعيفا ولا مجحودا بل كان أثرا واسعا وعميقا ولا جدال فيه ، وأن أثره لم يكن من نوع واحد بل كان من جميع الانواع، اذ كان ايجابيا وكان سلبيا وكان فعالا وكان غائيا ، وكان عقليا وكان وجدانيا وكان ماديا وكان كل نوع وكل نمط وفى كل اتجاه •

وما ذكرنا الذى ذكرناه بيانا ولا برهانا ، وحاشا للقمر أن يكون أثره علينا محتاجا للبيان أو البرهان ، وانما ذكرنا الذى ذكرناه تجميعا وتذكيرا ، وتقدمة لما جد علينا وعلى القمر ازاءنا من جديد فى هذا العصر الذى كل مافيه جديد •

الانسان يصل الى القمر

والذى جد هو وصول الانسان للقمر •

وانها لمعجزة لا شك فيها ولا تهوين لأمرها • وما ظنك بانسان كان يخاف أن يترك بلده الى بلد آخر، قريب أو بعيد ، خشية اخطار الطريق، وكان يفزعه ركوب البر فضلا عن ركوب البحر أو الهواء ، ثم أصبح يركب لا برا ولا بحرا ولا هواء بل فراغا خاليا الا من اشعاعات لا يعلم كنهها الا الله ، وأصبح يتحكم فى مركبه هذا ويوجهه لكى يصل به الى ما يريد ، وما يريد هو الخروج عن نطاق جاذبية الارض والولوج الى عالم القمر ثم النزول عليه ووطوءه بالارجل الآدمية ، ثم وضع مايحب أن يضع عليه من أجهزته وآلاته، وأخذ ما يحب أن يأخذه من ترابه ومعادنه وصور ما عليه ، حتى اذا ما انتهى من كل ذلك عاد الى سيارته التى تنتظره فركب فيها ، واستدار بها عودا على بدء وعاد ادراجه الى الارض أمه الحنون• كل هذا فى دقة بالغة مبلغا مذهلا ، **وفى زمن أقل من الزمن الذى كان يقضيه جده فى الانتقال من كيب كينيدى الى واشنطن (دى سى) عاصمة الولايات المتحدة •**





معجزة مذهلة لامراء .

فهل تغير هذه المعجزة من تأثير القمر على الارض التأثير المعروف الذى ذكرناه ؟

أم هـل تبقى عليه فى نوعه وكنهه ، وتكتفى من التغيير بالزيادة فيه ، أو بالنقص منه أو بالزيادة فى جانب والنقص فى جانب سواه ؟

أسئلة خامرت الناس على اختلاف مللهم ونحلهم وعقائدهم وعلومهم .

خامرت **رجال الدين** الذين يخشون أن يكون لهذا الفتح المعجز تأثير يقوى الالحاد ويضعف الاعتقاد ، وخامرت **رجال الفلسفة** الذين يخشون على الفكر المجرد أن يتلاشى تحت وطأة التجريب، **وخامرت الشعراء والنقاد** الذين يخشون أن يفقد القمر بهجته وبهاءه فى العيون ، وفى النفوس من وراء العيون ، وخامرت **رجال السياسة والحرب، ورجال الاقتصاد والتجارة ، ورجال السياحة والصحافة** ، ورجال كل فن وعلم وعمل ذى بال، وحتى غير ذى البال من الاعمال .

ولقد أطنب الناس فى هذا الأثر ، وأجمعوا أو كادوا أن يجمعوا على أن الوصول الى القمر سوف يقلب كل الموازين ويغير كل المعايير ، فلايبقى على أثر واحد مما كان معهودا مألوفا على ما كان عليه العهد به والآلفة له منذ القديم .

الا أننى أرانى أخالف الناس هذا الزعم ولا أرى أن الوصول الى القمر سيغير شيئا مماذكرناه من أثر له فى صدر هذا المقال .

واليك ما أحاج به من دليل :

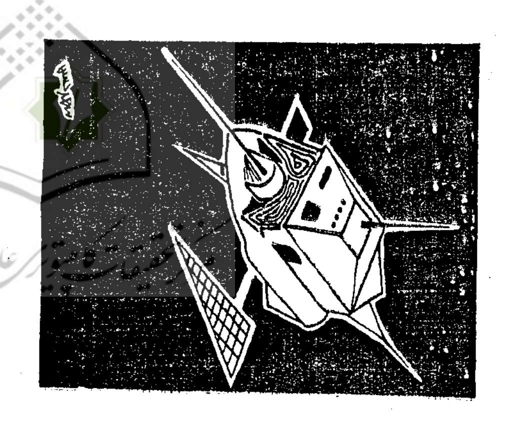
هل يستغل القمر ؟

قصارى ما سيجده الانسان على القمر هو أن

يعثر على معـدن أو عنصر جديد ، وأن يعثر على قدر وفير من العناصر القديمة المعروفة على الارض والتى لها أهمية خاصة فى الحرب أو الاقتصاد.

فان عثروا على عنصر أو معدن جديد ، فمايزيد ذلك فى ماهيته وطبيعته على اكتشاف عنصر جديد فى مكان ما فى الارض كيوم اكتشفنا الراديوم أو اليورانيوم أو غيرهما من عناصر ومعادن . وهو اكتشاف محتمل ـ وعلى درجة أقل فى النفقات ـ أن يعثر به رواد القطب الجنوبى تحت اطباق الجليد .

وأن عثروا على معادن وعناصر معروفة ولكنها موفورة على القمر ، فما يزيد ذلك على أن يكون اكتشافا لمنجم جديد ، غنى بالذى فيه ، وكل أثر له مقصور على تخفيض قيمة هـذا العنصر فى الاسـواق أن انخفضت نفقات الرحلة الى القمر المنتهك بعد استعصام .



هذا من ناحية الثروة المستفادة من الاستيلاء على القمر وخيراته . وهو أثر ضئيل على أسواق الارض وبنوك الاقتصاد .

وقد يسـتغل القمر فى جعـله قاعدة حربية ترسل الدمار الى حيث يوجه هذا الدمار. فيصير الاستيلاء على القمر اذن مشكلة حربية سياسية ملتهبـة ، **ولكننى لا أظنه يكون أشد التهابا من برلين أو الشرق الاوسط أو جزر كيموى تجـاه ساحل الصين** . ولعل قاعدة حربية لأمريكا فى اليابان أو فى تركيـا أن تكون أجدى عليها من حيث الردع ومن حيث الحرب على السماء من كل قاعدة تنشئها على القمر بعد عشر أو عشرين من السنين .

ولا ينبغى أن ننسى أن السلم فى جيلنـا هذا قد صار له كيان مختلف نوعا ما عما كان عليـه كيانه فى الماضى . كان السلم فى الماضى يستقر بالرغم من أن الدولة الغالبة ـ كانجلترا مثلا ـ أقوى من كل منافسيها فى البر والبحر ، أمـا اليوم فلا سلم اذا لم يكن تواز فى القوى وتناسب أن لم تقل مساواة . وانشاء قواعد حربية على القمر يقوم به الامريكان لن يلبث أن يتبعه انشاء متقارب أو مطابق له يقوم به الروس ، ويظل العالم بعدها كما كان قبلها يعيش فى قلق وسـلام ، كالحمار الذى يحمل خرجيه المتساويين ، خفيفين كانا أو ثقيلين على السواء .

هذا من الناحية العسكرية . وهو أيضا تأثير لا تختل به الموازين والاوضاع السائدة فى هـذه الأيام أدنى اختلال . وقصارى ما فيه أن يزداد نفوذ اناس بين رجال المال والاعمال ورجال الحرب على حكوماتهم ، وأن لم يكن نفوذهم عليها فى وقتنا هذا بالقليل .

هل يؤثر القمر فى عقيدة الانسان ..؟

وربما قيل أن التأثير الأكبر للقمر على الارض بعد غزوه هو التأثير الكامن فى علم الانسان وعقله وعقائده فى الفلسفات والديانات . ذلك ان نفرا من الناس يعتقدون أن الفلسفة (ما وراءالطبيعة) قد فقدت موضوعها وسبب كيانها عندما انطلق الانسان يغزو الفضاء ويضع أرجله على الكواكب والأقمار ممتطيـا مطيـة العـلم التجريبى ، وأنه لم يعد للفكر المجرد مكان الى جوار المسطرة والفرجار وانبوبة الاختبار .

كذلك ظن نفر آخر من النـاس ، **منهم بعض رواد الفضاء أنفسهم** ، أن الله قد مات (ومعذرة لنيتشه الذى كان يقصد بهذه الكلمات معنى غير هذا المعنى) وأنـه لم يمت ككيان انتهى زمنـه ونفذت قدرته على البقاء ، فما كان له ـ فى ظنهم ـ مثل هذا الكيان ولا هذه المقدرة فى أى زمن كان بل مات كفكرة طال عليها الأمد فى رؤس العباد وقلوبهم من ذوى الاديان .

ولعمرى أن هذا التوقع لهو أخطر توقـع فى غزو القمر على كل حال .

الا أنه لا يثبت على التفكير السليم المتـأنى . اذ ما من مرة حدث فيها فتح تحدثت به الركبان من فتوح العلم الا وظن الناس أن الدين قد أهتز

وأن الفلسفة قد تصدعت ، وأن على سكان هذين الصرحين القديمين أن يخرجوا منهما قبل الانهيار الأخير .

حدث هذا عند اكتشافات **كبلر وكوبرنيكوس وجاليليو ونيوتن** ، تلك الكشوف التى غيرت مدار الأفلاك من دوائر الى بيضاويات ، ومن دوران حول الارض الى دوران حول الشمس ، والأرض دائرة فيمن يدور .

وحدث هذا يوم أثبت **ماجلان** كروية الارض برحلته الذاهبة غربا والراجعة من جهة الشرق عند نهاية المطاف .

وحدث هذا عند اكتشاف هارفى للدورة الدموية

وحدث هذا عند ظهور نظرية داروين فى تطور الانواع

وحدث هذا عند ظهور نظرية فرويد فى النفس والعقل الباطن

وحدث هذا عندما طار الانسان لأول مرة بالبالون فى مطلع القرن العشرين

وحدث هذا .. ويحدث هذا .. **وسيظل يحدث** هذا الى أبد الآبدين **وسيظل صرح الفلسفة وصرح الدين كلاهما راسخين** ، وسيظل صرح العلم وحده هو الذى يوقع ويهتز ويغير من نظرياته ومعطياته وما تواضع عليه بين الحين والحين كلما أهل على الدار اكتشاف جديد .

والسبب فى هذا واضح بسيط لمن ينظرون .

السبب أن الدين ليس علما وأن الفلسفة ليست علما . انما الدين طبيعة وجدانية يحس الفرد بمقتضاها بانتمائه الى هذا الوجود الذى يعيش فيه كاحساس الوليد نحو أمه وأسرته ، وهو احساس لا يقضى عليه اكتشاف جديد فى علم الحياة وعلم الوراثة والأجنة وعلم النفس وعلم الاجتماع ، بل لعله يعمقه ويقويه .

وانما الفلسفة تفكير الانسان فى هذا الكون والوجود بقصد الوصول الى معرفة البدء والمنتهى وموضع الانسان فى هذا الكون الكبير . وهوتفكير يستمد دواعيه من فطرة الانسان التى جبل عليها ، ويزداد عمقا كلما ازداد الانسان علما ، وينقى من شوائب الخرافة والاسطورة كلما تخلص الانسان منهما فى نظرته الى الاشياء ، فتقدم العلم اذن خليق أن يدفع التفكير الفلسفى الى الامام وأن يزيد فى فاعليته وحرارته وجدواه وفى اقبال الناس عليه وعلى الاطلاع على ثماره .

وليس من محاسن الصدف ، بل هو من طبائع الاشياء ، أن العلماء الذين نسب اليهم الفضل فى النظريات التى اتهمت بزعزعة العقيدة وخنق الفلسفة والقضاء عليها ، قد كانوا جميعا من الفلاسفة المفكرين الذين يحق لهم لقب الفيلسوف، وأن أغلبهم كانوا من الفلاسفة المؤمنين بل والمتدينين .

فالذين يشفقون على الفلسفة والدين من غزو القمر ، يصح أن يطمئنوا عليهما غاية الاطمئنان. فكم دقت على الرأس الطبول .

والذين يفرحون ويتباشرون بأن عهد الفلسفة والدين قد انطويا ، سينطوون هم كما انطوى أسلاف لهم قبل أن تنطوى الفلسفة والدين .

القمر ووجدان الانسان

بقيت ناحية واحدة من التأثير المرجو أو التأثير المخشى للقمر بعد غزوه ، وهى ناحية رومانتيكية فنية محضة . اذ يظن البعض أن الانسان لن يتمكن بعد اليوم من أن يغازل صاحبته ويمتدح وضاءتها بوصفها بالقمر بعد أن علم أن العلم الامريكى يرفرف على القمر هناك (معذرة فالعلم فى القمر لا يرفرف لعدم وجود الهواء) ، وأن الانسان سيفقد الشعر والاساطير والاقاصيص التى تدور حول القمر ، ولعل البعض يظن أن الاطفال سيقلعون عن طلب القمر من والديهم كلما زها واكتمل البدر فى السماء .

ونحب أن نطمئن هؤلاء أيضا الى أن القمر سيظل مضيئا يبهر العين بالضياء ، ويبهج النفس كلما بدا بين ظلمات الليل وغياهب الفضاء . وسوف يأنس اليه السارى فى الصحراء والماخر فى أمواج البحار . وكلما رانت على النفس الكآبة والوحشة لامتداد الظلام وعمقه ، فاضت البهجة فى النفس لرؤية بدر السماء ، وعندئذ سيصف الشعراء القمر ، وسيتغنون به ، وسيصفون به أحبابهم كلما شعروا أن طلعة الحبيب تبدد الوحشة والكآبة بوضاءتها كما يبدد القمر وحشة الظلام وكآبة الليل البهيم .

لقد ظن أقوام أننا حين شرحنا الوردة وعرفنا سبيل العصارة فيها وكيفية غذائها ونمائها وأسباب رائحتها الزكية وازمان ازدهارها وذبولها ، قد قضينا عليها كموضوع للشعراء . فاذا الوردة موضوع للشعراء أكبر وأعمق مما كان .

ولربما تراءى لأقوام أن تشريح البلبل والكروان خلية خلية ، ونتف ريشهما ريشة ريشة ،

سيمنعانهما من اصدار الصوت الشجى الذى يحبه الناس جميعا ولا سيما الشعراء ، ولكن الخطأ فى هذا الظن ، ان وجد ، خطأ واضح لا ريب فيه ومثله الخطأ فى الظن أن معرفة تضاريس القمر ومكوناته ورسم خريطة له ضمن أطلس الجغرافيا، أو الجيولوجيا أو التاريخ سيمنعه من أن يرسل الضياء الى نفس عارمة عامرة بالحب والوفاء ، أو الى نفس خابية قد خيم عليها الحزن والاسى أو اليأس والقنوط أو ما شاءت الدنيا أن تصيب به الانسان ، فيفعل ضوء القمر فى هذه وهذه وهذه فعله ، الذى يترجمه البعض زفرات ويترجمه البعض الآخر قصائد ومقطعات .

وأى تعارض بين غزو القمر وبين قول **أم كلثوم** مثلا « هلت ليالى القمر ـ تعال نسهر سوا ـ فى نور بهاه . » وأى تعارض بينه وبين قول **العقاد**.

لا أوثر القمراء فى حسنها
على الدجى والطرف فيه يحوم

سناك يابدر يرينى الثرى
وظلمة الليل ترينى النجوم

أى تعارض أكثر من التعارض بين غزل الشاعر فى حبيبته التى تفردت بكل صفة حسنة ، والتى لم يخلق الله سواها فى قديم ولا حديث ، وبين دراسة علم الحيوان لهذه الحبيبة التى تشبه فى نظره كل امرأة من بنى الانسان ، بل كل انثى من ذاوت الثدى من بنى الحيوان ؟

أن للعلم ميدانا ، وأن للشعر وللفن ميدانا سواه ، وليتقدم العلم ما شاء الله أن يتقدم فما هو بآخذ من الفن شيئا ولا هو معطيه شيئا ، اللهم الا ما كان من قبيل الادوات والآلات كأبواق الاذاعة وعدسات التصوير وتراكيب الاصباغ .

فهل معنى هذا كله أن غزو القمر سيمضى بلا أثر على الاطلاق ؟

القائل بهذا مفتون أو مأفون . ولكن المعنى الذى نريد أن نقوله هو أن القمر لن يتغير تأثيره على الارض فى شىء ذى بال . أما غزو القمر فان له ولا شك تأثيرا يفوق كل تأثير .

والفارق بين القمر وبين غزو القمر فارق هائل كبير . ان القول بتأثير القمر يجعل القمر فعالا ذا تأثير ، بينما القول بتأثير غزو القمر يجعله منفعلا وهدفا للتأثير . بمعنى آخر أن **التأثير الفعال هو تأثير الارض وساكنها على الارض وعلى القمر ، وليس هو تأثير القمر على الارض ولا على الناس من سكان الارض .**

أن غزو القمر مقدرة تكنية رائعة وضعت فى يد الانسان امكانا جديدا هائلا ، أو أطلقت له ماردا من أكبر المردة وان لم يكن بالضرورة أكبرها على الاجماع .

والمشكلة هى اطلاق هذه المردة من قماقمها دون أن نعرف الطريقة التى نعيدها بها اليها حين نشاء ، ودون أن نعرف الوسيلة التى بها نحسن استخدام هؤلاء المردة لنفع الانسان ولاتقاء الضرر الذى يحيق به من لدن قوى الطبيعة ومن لدن المردة أنفسها فى بعض الاحيان .

ولئن كانت للانسانية مشكلة تعانى منها ، فانها هى هذه المشكلة ، دون سواها .

هى المشكلة التى ظن **غاندى** أنه يتغلب عليها بالأهمسا والمغزل اليدوى فى مقابل العدوان ومصانع النسيج وغير النسيج .

وهى المشكلة التى راح ينعاها **اليوت** ويستحث البشر على النظر اليها ومواجهتها قبل استعمالها الذى يقضى على البشرية بالفناء .

وهى المشكلة التى صاح بها ناعب الغرب **شبنجلر** وصاح بها البشير المتفائل **ليوتولستوى** .. والتى صاح بها فى الحقيقة كل بشير وكل نذير .

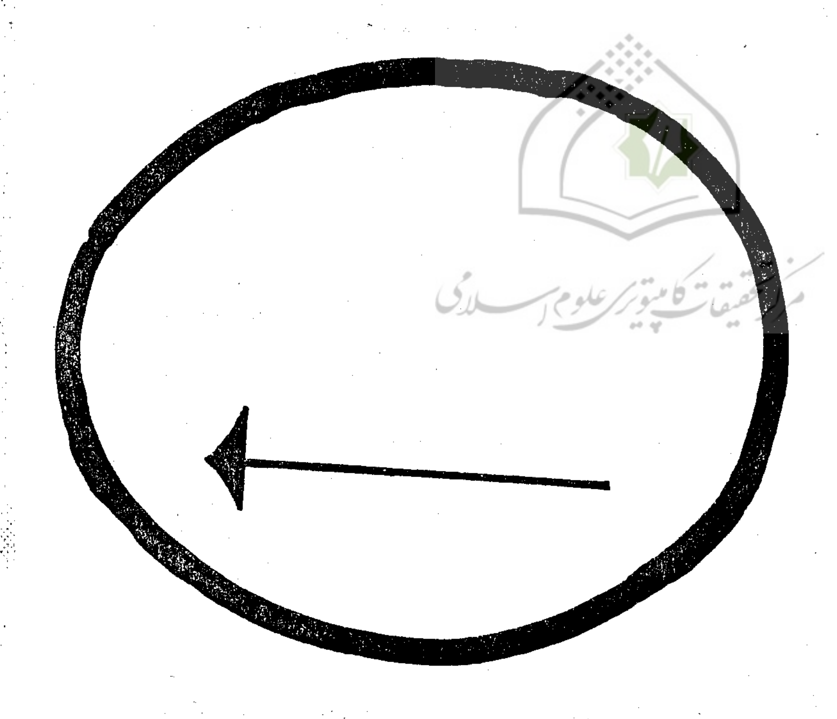
هى مشكلة ايكاروس من جديد . مشكلة جسم فتى ذى جناحين قويين بلا عقل يمنعه من السمو الى حيث تذيب الشمس شمع جناحيه ، وبلا ضمير يمنعه من الاسفاف الى حيث يوهى رذاذ الماء جناحيه فلا يستطيع يطير .

وانها لمردة عاتية ، ليس غزو القمر أكبرها على كل حال فما زال الدكتور **بلايبرج** حيا بقلب زنجى مات منذ عشرين شهرا أو يزيد ، ولاندرى هل يسمح للدكتور الابيض أن يدلى بصوته فى الانتخابات بقلب الزنجى ، أو أن تتلى عليه صلوات الكنيسة البيضاء حين يموت ؟

مردة خرجت من قماقمها والذى أخرجها هو الانسان . فهل سينتفع بها ، أم هل ستكون نهايته على أيديها ـ تلك هى المشكلة . ولكن الكلام فيها قصة أخرى .

أحمد ابراهيم الشريف

الفكر المعاصر و عصر القمر



اعداد
حسين البودي
فتحي العشري

بفكرها المفتوح لكل التجارب ، وايمانها العميق بأن التقدم العلمي هو صانع الحضارة ، وأنه اذا كان الأدب والفن وما اليهما علامة على وجود الأمة فان العلم هو من أهم عوامل ايجادها ، تفتح مجلة « الفكر المعاصر » صفحاتها لهذا الحدث العلمي الكبير ، الذى تمثل فى نجاح رحلة أبوللو (١١) فى مهمتها ، والذى أدى بالتالى الى غزو القمر ، ودخول البشرية فى عصر حضارى جديد • عصر نرجو أن يكون فاتحة خير بالنسبة لسلام الأرض وسعادة الانسان •

واضاءة لجوانب هذا الحدث العلمى الهام ، وتفجيرا لاشعاعاته الثقافية والحضارية ، رأت « المجلة » أن تطرح على مائدة الحوار المفتوح سؤالا محوريا عن احتمالات التغيير التى قد تطرأ على صورة الفكر والأدب والفن نتيجة لدخول البشرية فى عصر القمر ، وعلى الصفحات التالية يطالع القارىء أكثر من رأى لأكثر من علم من أعلام الطليعة المثقفة من الكتاب والأدباء ورجال الدين واساتذة الجامعات ، كل من زاوية اهتمامه العلمى ونشاطه الثقافى •

مكتبتنا العربية



لا أعتقد أن هناك تعارضاً بين العلم والدين ، فهما مكملان معاً للإنسان . د. أبو الوفا التفتازاني

● ما هي تنبؤاتكم عن مستقبل الفكر الفلسفي بعد ان وطأ الانسان بقدميه سطح القمر ، وهل ستستطيع النظرة الفلسفية الكلية الشاملة للوجود أن تصمد أمام هذا الزحف العلمي ؟

في رأيي أن البشرية ستدخل بهذا عصرا جديدا أبرز مايميزه ايمان لا حد له بالعلم والتكنولوجيا ، وازدياد في ثقة الانسان بنفسه في مواجهة الطبيعة ، واعتداد بعلمية التفكير في شتى نواحي الحياة الانسانية .

وسيتضاءل شان الفلسفة بجانب العلم أكثر مما هو عليه الآن ، ولن يجرؤ فيلسوف على ان يقيم بناءات فكرية نظرية لا تستند الى وقائع العلم منظورا اليها نظرة كلية شاملة ، وستحتاج فلسفات المستقبل الى مجهودات غير عادية تبذل وذلك لتنوع العلوم وازدياد الوقائع العلمية بشكل يفوق تصور العقل ، فهي تتضاعف يوما بعد يوم بحيث يصعب على اى مفكر أن يلاحقها .

وسيتناول المفكرون مستقبلا قضايا لم يكن يهتم الناس بها كثيرا من قبل ، فبعد أن كان الناس في القرن الماضي وأوائل هذا القرن يوجهون اهتمامهم الأساسي الى الواقع المادي المشاهد ، وتطور الكائنات الحية على هذه الأرض ، خصوصا بعد اعلان دارون نظريته في التطور ، فان الجيل المعاصر والأجيال التي ستليه ستتوجه اهتمامها الى الكون الخارجي ، وستتساءل عن حدوده وأبعاده ، وامكان وجود كائنات أخرى فيه ، وما هو نوع حياتها ، وهل الفضاء الخارجي يتناهى أو لايتناهى ، وهل هناك امكانية لحياة البشر على سطح بعض الكواكب الأخرى ، وهل لا يوجد في هذا الكون الا الانسان فقط ، كل هذه تساؤلات ملحة ، أصبحت تلح على الانسان المعاصر بعد أن نجح في الوصول الى القمر ، صحيح ان مثل هذه التساؤلات لن يجيب عليها بشكل محدد الا العلم ، ولكن الانسان المعاصر لن ينتظر حتى يجيب العلم على كل تساؤلاته ، وعندئذ سيلجأ الى الخيال لفترة طويلة مقبلة ، وسيطلق كتاب ومفكرون العنان لخيالهم في هذا الشأن وحتى بعض العلماء سيكثرون من الفروض العلمية الخيالية ، ولكن آراءهم وتصوراتهم جميعا ستكون ادخل في باب الفن والأدب منها في باب العلم .

أما بالنسبة للصراع الأيديولوجي القائم بين المجتمعات المعاصرة فهذا لن يتأثر كثيرا بهبوط الانسان على سطح القمر . صحيح أن هبوط الانسان على القمر قد جذب اهتمام الناس جميعا على اختلاف اتجاهاتهم الفكرية اليه ، ولكنه جذب مؤقت لن يصرف الشعوب عن قضاياها المصيرية ، وأتوقع ان يزداد الشعور في العالم كله بأولوية العناية بمشكلات الانسان المعاصر يوما بعد يوم حتى في الولايات المتحدة ، فقد أصبح كثير من المفكرين فيها يرون

أعتقد أن مشكلات أصل الحياة ستظهر مرة أخرى وسيكون لما يكتشف ردود فعل عميقة
أسامة الخولي

● ماهي ردود الأفعال التي تتوقع أن تطرأ على الحياة بعد أن وطأ الانسان بقدميه سطح القمر ؟

●● ما من شك في أن أي انجاز علمي لابد وأن ينعكس انعكاسا بالغا على حياتنا الفكرية وله من القدرة مايكفي لأن يثير كثيرا مما يعتلج في صدر الانسان من تساؤلات ، ولا أشك في أن غزو الانسان للقمر وغيره من الأفلاك قد يزيد من هذه التساؤلات شأنه في هذا شأن ما سبقه من اكتشافات علمية في القرون الماضيه .

أنه ليست هناك ضرورة لانفاق بلايين الدولارات الاخرى على هبوط الانسان على القمر ، خاصة وأن ماقدمته مارينر٦ ومارينر٧ يؤكد أن سفن الفضاء الأوتوماتيكية الآن قادرة على الحصول على نفس المعلومات التى يسعى اليها الانسان وبتكاليف أقل . وقد عارضت أكاديمية العلوم الأمريكية ارسال انسان الى المريخ أيضا . فهى ترى أن سفن الفضاء الأوتوماتيكية غير المزودة برواد من البشر قادرة على تقديم كل المعلومات التى يريدها العلماء فى المرحلة الحالية عن المريخ .

● لقد أثارت الاستكشافات العلمية فى القرون الماضية كثيرا من الصراعات حول موقف الدين من العلم ، فهل تعتقد أن هناك تعارضا بين الدين وبين ما قد يتطور اليه غزو الفضاء من اكتشاف عوالم أخرى .. ؟

●● لا اعتقد أن هناك تعارضا بين الدين والعلم، فهما مكملان معا للانسان، وأنت لو نظرت الى مفهوم العلم نظرة فاحصة لوجدت أنه فى أساسه خلق ، فالعالم يكتسب معلوماته وفق آداب معينه وهى مايعرف بقواعد المنهج العلمى ، فالعلم ليس معلومات بقدر ماهو طريقة لتحصيل هذه المعلومات ، فهو « قيمة » من القيم اذا آمن بها المجتمع كأسلوب فى الحياة فان هذا المجتمع يحقق تقدمه الحضارى المنشود واذا لم يؤمن بها اصبح فريسة للأوهام والخرافات ، ولم يحقق تقدما ماديا او روحيا . وتأمل معنى قوله تعالى : « قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لايعلمون » .

والاسلام نبه الناس الى أن أهمية قيمة العلم والى أن العلم لا يقف عند حد معين ، وقد كان الناس يعتقدون قديما أن حقائق العلم ثابتة حتى أثبت علماء مناهج البحث فى العصور الحديثة أن نتائج العلوم احتمالية أى أن الصدق فيها احتمالى قابل للتغيير من حيث أنه ثمرة الاستدلال الاستقرائى وهذا يفسر لنا التقدم العلمى المستمر وما أدى اليه من نجاح الانسان فى الهبوط على سطح القمر . فلو كانت الحقائق العلمية ثابتة لوقف التقدم العلمى عند عصر معين أو نظريات معينة . ولعلك تدرك هنا عمق المعنى فى قول الله تعالى :

« وقل رب زدنى علما » فهذه الآية صريحة الدلالة على أن العلم لا يقف عند حد معين وانما يجب علينا أن نستزيد منه يوما بعد يوم .

ولما كان البحث العلمى ينحصر فى مجالين هما العالم الأكبر والعالم الأصغر، أو عالم الأشياء المتناهية فى البعد ، وعالم الأشياء المتناهية فى الصغر ، فقد نبهنا القرآن الى أهمية ذلك فى قوله تعالى : « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى انفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق، أو لم يكف بربك أنه على كل شئ شهيد » ، فالبحث فى الآفاق ، والبحث فى الأنفس ينتهيان بنا الى اكتشاف قوانين الخلق ، أو سننه الثابتة والكون الخاضع للحتمية لا يقوم الا بقوة قادرة، هى ما تطلق عليه الأديان اسم « الله » ، بل ان الله تعالى أطلق على نفسه وصف القوة فى قوله تعالى : « ذو القوة المتين » . فالعالم كله يسير وفق قوانين محددة ، لأن الله تعالى يقول : ولن تجد لسنة الله تبديلا » . « لا تبديل لخلق الله » . فالعلم الباحث فى الأكوان على اختلافها يقودنا الى العلم بالله ، فلا تعارض بين العلمين .

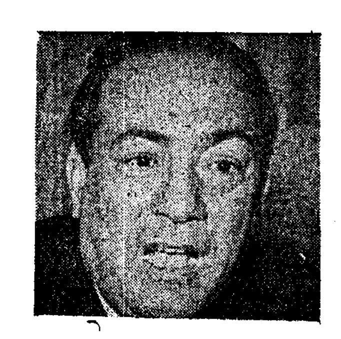
وقد أشار القرآن فى مواضع كثيرة الى أن الشمس والقمر مسخران للانسان منها قوله تعالى : وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ان فى ذلك لآيات لقوم يعقلون » فالانسان مأمور بالبحث فى الطبيعة وفى ظواهرها المختلفة ، ومن واجبه ألا يكف عن البحث العلمى المتواصل فى العالم المحيط به ، وهذه حقيقة مقررة فى الاسلام وفى الأديان السماوية الأخرى أيضا ، وفائدة الدين للعلم هى أنه يعصم الانسان عن استغلال العلم فى غير مايعود بالفائدة على البشر ، لأنه يمده بالقيم الأخلاقية التى ترتفع به عن استخدام العلم فى تدمير الحضارة أو استغلال الغير أو الاستعلاء عليهم ، فلابد من أن يقترن التقدم العلمى دائما بتقدم روحى أو اخلاقى ، والا فلن يتحقق من التقدم العلمى والتكنولوجى الا الدمار بالنسبة للبشرية وحضارتها الراهنة .

وعلى كل فقد يتسنى للانسان على ضوء هذه الاكتشافات أن يتخذ لنفسه موقفا حول مايجرى حوله من تغير جوهرى فى شتى نواحى الحياة . وقد يدفعه ذلك الى مزيد من التفاؤل والتطلع الى مستقبل خلو من مثل ما يعانيه فى حاضره من قلق وحرمان ، وقد يدفعه الى مزيد من التشاؤم والقلق حول مستقبله الذى قد لا يستطيع تبينه وسط هذا الزحام الحضارى .

والواقع أن ارتياد الانسان القمر ليس ، فى حد ذاته ، ثورة وانما هو امتداد أو مظهر من مظاهر الثورة التكنولوجية الزاحفة التى طغت على ما دونها على سطح كوكبنا . ولذا فانى لا أتوقع أن يبقى هذا الحدث ذروة لفترة طويلة ، الا ان هذا الحدث ، ولا جدال فى هذا ، قد اثار قضية الانسان فى المشاهدة العلمية وان كنا ما زلنا فى انتظار التحليل الكامل للنتائج التى أسفرت عنها هذه الرحلة، وما قد تثيره تجارب أخرى بدون بشر.

واعتقد أن مشكلة اصل الحياة ستظهر مرة أخرى وسيكون لما يكتشف ردود فعل عميقة .

مكتبتنا العربية



ان الشعر بصفة خاصة سيعود له وزنه وموسيقاه وستعود له قافيته
العوضي الوكيل

● ماذا يقول الشعر بعد هبوط الانسان على سطح القمر ؟

●● ثبتت رحلة ابوللو للانسان آدميته ٠٠ ومن ثم فلا محل للتوهان والهيمان ونقد القواعد ٠٠ ولذلك ارى أن الشعر ـ بصفة خاصة ـ سيعود له وزنه وموسيقاه وقافيته كما ستعود اليه معانيه الواضحة المترابطة التى لن تخلو من خيال يناسب العهد القمرى الجديد ٠٠ ولا اعتقد ان رؤية الشعراء للقمر ستتغير الا اذا ارتاده هؤلاء الشعراء ووجدوا انه لايستحق الأوصاف التى تصبغ عليه ٠

اما بالنسبة للأدب عموما فلن يكون هناك مجال للغموض بعد أن انكشف المجهول ، ولن تكون هناك حيرة بعد



ان اكتشاف أمريكا للقمر سيكشف عن اكتشاف أمريكا نفسها .
جلال العشري

●● لم اكن شغوفا برؤية اول خطوة يخطوها ارمسترونج فوق سطح القمر ، بمقدار ماكنت شغوفا بسماع اول كلمة يتفوه بها هذا الرائد القمرى ، وكانت كلمته : « انها خطوة قصيرة يخطوها انسان واحد ، ولكنها قفزة هائلة بالنسبة للبشرية » كلمة «بليغة رغم ما فيها من ايجاز» ولكنها البلاغة التى تعبر عن الايجاز الحقيقى الذى حققه العلم المعاصر ، والايجاز الذى يدل على حضارة العمل دون ان ينفق وقتا طويلا فى الثرثرة ٠

لقد استطاع العلم فى هذه الرحلة ان يستوعب كلا من الشعر والفن ، ليحقق فى النهاية مايمكن وصفه بالعالم الشاعر او العالم الفنان ، فكم من قصائد كتبت فى القمر ، وكم من كلمات قيلت فى الفضاء ، ولكن لا القصيدة المنظومة ، ولا الكلمة المنثورة كانت افعل فى ضمير الانسان وعلى امتداد عصوره الطويلة من رحلة ابوللو (١١) الى القمر ، تلك الرحلة التى وان جعلت من العلم قلب النسر ، الا انها أيضا جعلت من الشعر احد جناحيه ومن الفن جناحا آخر ٠

● ولكن ٠٠ هل كانت الرحلة بقلب وجناحين دون ان يكون لها عقل على الاطلاق ؟

●● فى الاجابة على هذا السؤال يكمن الصراع بين العلم والفلسفة ، وهو الصراع الدرامى الذى استمر على امتداد العصور يكتب فيه النصر للعلم مرة وللفلسفة مرة اخرى ، الى ان بلغ الصراع ذروته فى الثلث الأخير من القرن العشرين الذى فقدت فيه السياسة والدبلوماسية سلطانهما بشكل ملحوظ وبدت الكلمة العاقلة أعجز من ان تحفظ المجموعة البشرية فى وحدة واحدة ٠

● ولكن ٠٠ هل معنى هذا ان نمضى وراء العلم مهللين بعد أن نضع باقة من الزهور فوق قبر العلوم الانسانية؟

●● هنا تعود بنا الذاكرة الى اسطورة ايكاروس بن ديدالوس الذى صنع له ابوه جناحين من الريش

أن زالت كل الشكوك .. واعتقد أن القصة القصيرة هى التى ستسود لانها تساير روح العصر وتعبر باسلوبه ..

واما بالنسبة للفكر فاعتقد أن تقريب المسافة بين بقاع الأرض بحيث يمكن لواحد مثل يارنج او يوثانت ان يلف الكرة الأرضية ويتنقل بين عواصم الدول المشتركة فى هيئة الأمم المتحدة فى ٢٤ ساعة ، ستقرب بين الأذواق والأفكار والمشاعر .. اننا فى سبيل الوصول الى لغة ذهنية واحدة تقارب بين الأجناس البشرية جميعا .. ولذلك من الممكن ان يسود السلام لان الحرب لا تنتج الا عن طريق التضارب فى الأفكار .. ان العصر القمرى فاتحة خير للبشرية .

والى جانب هذه اللغة الذهنية قد تظهر لغة لفظية جديدة تتجمع فيها كل اللغات .. وهنا تذوب فكرة الالتزام، فالواقع المحلى والواقع الشخصى والواقع القومى سيحل محله واقع كونى صادر عن مشاعر كونية عامة .. وهكذا يعود العقل والاتزان وياخذ الشعر وضعه من جديد بعد أن يتخلى عن التعقيد والغموض .

● هل هى مجرد نظرة متفائلة ؟

●● ان البشرية تتجه بالفعل نحو سلام دائم ورخاء مستمر .. الى أن يرث الله الأرض والقمر ومن عليهما . ان التشاؤم معناه انعدام الحياة بينما التفاؤل معناه الحياة والرغبة فى الحياة .. وما دمنا نحيا فنحن راغبون فى الحياة ، مقبلون عليها .. لما التشاؤم اذن ؟!

ونصحه الا يحلق عاليا حتى لا تذيب الشمس الشمع اللاحق بجناحيه فيهوى فى البحر ، ولكن ايكاروس تنكب نصيحة أبيه الحكيم فتمادى فى الصعود والتحليق الى ان أذابت الشمس جناحيه فهوى صريعا فوق صخرة فى الجزيرة.

● فاذا كان ايكاروس هنا هو العلم الطبيعى ، وديدالوس هو الفلسفة « أم العلوم » وغرور الشباب وطموحه هو محاولة العلم ان يصعد الى الذروة القصوى. فهل تكون عاقبة العلم المعاصر هى عاقبة سلفه ايكاروس المغرور ؟

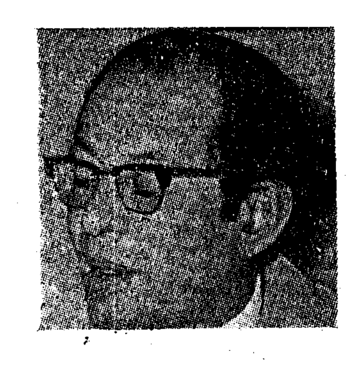
●● فى تقديرى أن قيمة العلم الطبيعى فى منهجه اكثر منها فى نتائجه ، وأن النجاح الاعجازى الذى حققه العلم يرجع الى المنهج التجريبى الذى ظهر فى أوائل عصر النهضة على يد الفيلسوف الانجليزى فرنسيس بيكون ، أما نتائج العلم فموضوع آخر ، لانها تتعلق بالعلم التطبيقى الذى يمكن استخدامه بالسلب كما يمكن استخدامه بالايجاب . وعلى ذلك فالعلم مهما بلغ الذروة القصوى يمكن أن يوضع فى خدمة الجنس البشرى ان احسن استغلاله ، ولكى يستغل استغلالا بشريا نظيفا لابد له من عقل حكيم يحدد مساراته القائمة ويخطط لاتجاهاته المستقبلة « فالعلم - كما قال هوايتهد - يجعل الحاجة الى الميتافيزيقا أكثر ضرورة ، وهو فى ذاته يساعد مساعدة قليلة مباشرة على حل المشكلة الميتافيزيقية » .

اما عن احتمالات التغيير التى قد تطرأ على صورة الفكر والأدب والفن ، فهى فى تقديرى احتمالات ضرورية بل هى احتمالات حتمية ان صح هذا التعبير ، لأنه اذا كان اكتشاف كولومبس لقارة امريكا قد ادى الى كل هذا التغيير الذى يعايشه الانسان الحديث ، فاولى باكتشاف القمر ان يحدث تغيرا مماثلا على اقل تقدير . غير انه اذا كان اكتشاف امريكا قد ادى فى النهاية الى كل هذه الصراعات الاقتصادية والسياسية التى يعيشها انسان القرن العشرين ، فيبدو ان اكتشاف امريكا للقمر سيكفر عن اكتشاف أمريكا نفسها ، بعد ان يخفف من حدة هذه الصراعات ، وبعد ان يجعل الانسان اكثر علوا على مشكلات الأرض ، وبعد ان يفتح امام الانسانية آفاقا ابعد مدى .

على انه لن يكون ثمة تاثير متبادل بين حضارة الأرض و « حضارة » القمر ، ولكن التاثير سيكون بين حضارة الأرض وانسان هذه الأرض ، بمعنى أن الانسان لن يفيد من هذه الرحلة الا فى تعميق انسانيته ، واخصاب حضارته ، واضافة بعد جديد فى نظرته الى الكون ، ذلك الكون الذى أصبح الانسان ، بما لايدع مجالا للشك وبفضل هذه الرحلة ، ركيزته المحورية ان لم اقل محوره الأول والأخير .

اقول هذا عن ايمان يعفينا عن الذهاب الى معبد دلفى ، واستخارة أبوللو اله النور والشعر والموسيقى والنبوآت فى امر ايكاروس الجديد . ايكاروس الذى سيحلق فى هذه المرة وفى راسه نصيحة ابيه الحكيم .

مكتبتنا العربية



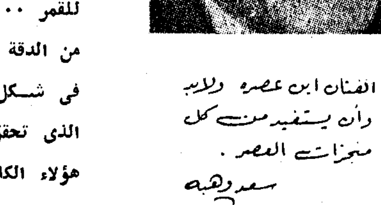
الإنسانية تزداد تمسكاً بتقاليدها كلما تقدم العلم وأصبح خطراً على الإنسان
سعد أردش

●● لا شك أن التقدم العلمي قد أثر تأثيرا ملحوظا على تاريخ الحضارة الانسانية وخاصة على الفنون التشكيلية والموسيقى .. الا أنه من الواضح أن الانسانية تزداد تمسكا بتقاليدها كلما تقدم العلم واصبح خطرا على الانسان.. فالثورات التى حدثت عبر تاريخ الفن التشكيلى لم تستطع أن تطمس معالم الكلاسيكية التى لا يزال سحرها مؤثرا .. والأجهزة الالكترونية التى وصلت الى أعلى المستويات العلمية لم تستطع هى الأخرى أن تثرى الموسيقى بحيث تغنى المستمع المعاصر عن الآلات القديمة التى عرفها الانسان منذ فجر التاريخ .. وكذلك المسرح ، لم تتغير فلسفته منذ اسخيلوس بالرغم من كل الاضافات الفكرية ولم تتغير قاعدته التى يمثل عليها الممثلون بالرغم من كل محاولات التعديل التى أدخلت عليها .

وهذا دليل على أن الانسان ـ وهو ابن مسرح ـ يتمسك بانسانيته وحضارته وتراثه فى مقابل رفض الآلة ان هى حولته الى آلة بدوره ..

● هل معنى هذا أن المسرح ـ بصفة خاصة ـ لن يتأثر بالحدث العلمى الكبير ؟

●● لن يستطيع الانسان وبالتالى ما يخلقه من فنون تجاهل معجزة هبوط الانسان على سطح القمر .. كما بدأ يحدث بالفعل فى السينما والتليفزيون والاذاعة .. وكما سيحدث



الفنان ابن عصره ولابد وأن يستفيد من كل منجزات العصر .
سعد وهبة

● الى أى مدى سيتأثر الأدباء والفنانون بتجربة هبوط الانسان على سطح القمر ؟

●● الأدباء والفنانون سبقوا العلماء الى غزو القمر .. وذلك من خلال أعمال كثيرة ـ روايات ومسرحيات وقصائد ـ تنبأت جميعا بغزو الانسان للقمر .. بل لقد وصل بعض الفنانين من الدقة بحيث صوروا سفينة الفضاء فى شكل يقترب كثيرا من الشكل الذى تحقق فى الواقع .. فى مقدمة هؤلاء الكاتب الشهير جول ورن ..

واضيف أن أحد الشعراء العرب وهو رشدى المعلوف المعروف بشاعر الطيارة وهو لبنانى من أوائل القرن الحالى قد صعد الى القمر فى قصيدة طويلة .. فاذا كان الأدباء والفنانون قد تأثروا بالقمر وهو مجرد حلم يداعب خيالهم، فمما لا شك فيه أن الغزو الحقيقى سيكون له أثره الواضح فى انتاجهم. فاذا كان الفنان ابن عصره ، فمعنى ذلك أن الفنان يستفيد من كل منجزات العصر ، حتى لو لم يشعر هو بذلك .. ان الحياة التى نحياها والتى تتميز بحضارة علمية وتكنولوجية آخذة فى



لا زال الإنسان بموهبته الفنية هو القوة الدافعة والمحركة لهذه الاستكشافات الموسيقية جميعاً .
سمحة الخولي

● شهد القرن العشرون تغيرا جوهريا فى القيم الفنية والجمالية انعكس بصورة عنيفة على الموسيقى فى اتجاهات عدة ، فهل تعتقدين أن غزو الانسان للقمر قد يحدث ما من شأنه أن يعمق هذه الاتجاهات أو السير بها الى أبعد مما وصلت اليه ؟

●● انى اذ أجيب على هذا السؤال يجمل بى أن أعرض للاتجاهات التى

بالتأكيد فى الأدب والشعر وكل وسائل التعبير ، وسيكون هذا الحدث ملهما للفنــان فى كل مــكان ، وخاصــة فيما يتصل بارادة الانسان التى لم تكتف باخضاع عالمها فسعت الى غزو العوالم الأخرى ..

غير أن هذا شيء عادى - من وجهة نظرى - وهو أشبه مايكون بتنــاول الأدب والفن لأحداث الحرب العــالمية مثلا أو لحدث انسانى كالزلازل والبراكين وتفشى الطاعون ...

● ذكرت كل وسائل التعبير التى ستتأثر بمعجزة هبــوط الانســان على سطح القمر ، دون أن تذكر «المسرح» .. هــل لأنه أقل استجابة باعتباره أكثر رسوخا ؟

●● الرؤية المسرحية تنبع أساسا من النص المسرحى .. ولا شــك أن كل نص يملى رؤياه على المخرج . وامتد تدخل العلم بالفعل فى بنــاء المسرح وهندسته وطريقة عمله ومن الممكن ان يصل العلم بفن المسرح الى أبعد من ذلك .. ولكن المسرح سيعود دائما - كما سبق أن قلت - الى جذوره الأولى وتقاليده الراسخة .. مثال ذلك القرص الدائر الذى ابتــدعه بريشت والمسرح الكامل الاســتدارة الذى اســتخدمه بيســكاتور والمسرح الآلى الذى بدأه جوردون بريك .. كل هذه الاضافات لم تستمر فى الوقت الذى استمرت فيه نظريات جاك كوبو وستانسلافسكى فى الاخراج المسرحى ومذاهب برناردشو وبيراندللو فى التأليف المسرحى ..

ان المسرح الاستعراضى الذى يعيش عصره الذهبى فى أمريكا لايمكن أن يخلد خلود المسرح اليــونانى برغم أجهزته الضخمة وميكانيته العظيمة .

● المسرح اذن لا يتأثر ولكنه أيضا لا يؤثر !

●● لأن المسرح يقوم على نظرية وضــعها أرســطو ، ولأنه لا يتنــاول الا الموضوعات التى تعالج البعد الزمانى فضلا عن البعد المكانى ، ولأنه شعر يتغنى بالارادة الحرة لدى الانسان .. انه عالم قائم بذاته ، منطلقه الانسان وغايته الانسان !

التقدم والتطور كفيلة بأن تؤثر فى انتاجنا ، مادام الانتاج جزءا من النشاط الانسانى العام .. فالذى يجرى الآن فى العالم لابد وأن يترك أثره فى تفكير الأدباء والفنانين حتى ولو لم يظهر هذا الأثر صراحة ..

● فى السينما مثلا !

●● فى الســينما شاهدنا فيلما فضــائيا عظيما هو فيلم « أوديســـا الفضاء » .. ورغم أن الفيلم عمل فنى الا أنه قد قام على دراسات ونظريات وتجارب علمية .. ويمكن بعد ذلك لمثل هذا النوع من الأعمال الفنية أن يعتمد على العلم كلية بدلا من المزج بين العلم والخيال ..

● وفى المسرح !

●● المسرح كأى فن آخر يمكنه أن يعتمد على الواقع العلمى بدلا من الخيال الفنى اذا ماتناول موضــوعات الفضاء .. ولقد كتب توفيق الحكيم مسرحيته « رحلة الى الغد » فتخيــل وجود مخلوقات غريبة على سطح القمر .. ومن حق أى فنان أن يتخيل كما يشاء طالما أن الواقع بعيد المنال .. أما الآن وبعــد أن اتضحت حقيقــة الكواكب الأخرى أو اقتربنا من معرفة حقيقتها فان الخيال نفسه لا بد وأن ينطلق من قواعد علمية وعلى أسس علمية ..

● ألم تفكر فى كتابة مسرحية عن « القمر » ؟

●● فكرت فعلا ، ولكن فى كتابة سيناريو فيلم .. انتهيت من اعــداد خطته لأن امكانيات السينما قادرة على تجسيد الخيــال أكثر من المسرح .. ولأن هــذا الموضــوع بصــفة خاصة لا تحتمله خشبة المسرح بمثل ما تفجره السينما وتصل به الى أبعد مدى !

ظهرت فى هذا القرن ، خصوصا تلك التى واكبت غزو الفضاء فى الخمسينيات منه ، ويمكن اجمالها فى اتجاهات رئيسية ثلاث :

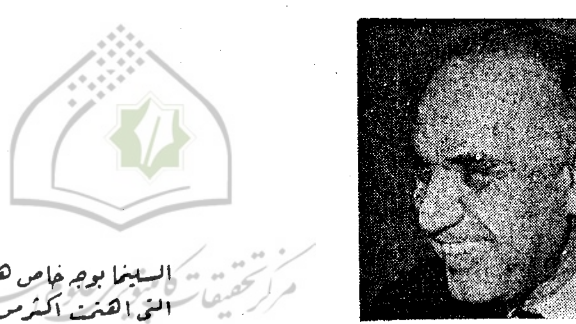
أولا : اكتشاف مصادر غير انسانية للصوت Dehumanization of Music وهى ما تسميها بالموسيقى الاليكترونية التى تســتخرج أصــولها من أجهــزة اليكترونية مثل الـ Ondes Martinot وفى هذه الموسيقى لا تستعمل النوتة الموسيقية بمفاتيحها ورموزها العــادية بل هى عبــارة عن أشكال هندسية يحدد فيها المؤلف ما يختاره من هذا الكون الصوتى الفسيح تحديدا دقيقا يمكن التحكم فيه تحكما تاما فى كل عناصر الصوت من حيث الشدة واللين والطبقة بدرجات لم تتح من قبل فى الأداء الانسانى .

وفى اعتقادى أن هذا الكشف الهام كمصــادر صــوتية جديدة للأصــوات الموسيقية هو التطــور الموسيقى المميز لعصر اكتشاف الفضــاء وهو أيضــا اكتشاف للكون الصوتى على نطاق من الاتساع لا مثيل له من قبل . وقد نجحت الموسيــقى الاليكترونية نجاحا بالغا فى الموسيقى الخلفية أو التصويرية لبعض الأعمــال الســينمائية الجــديدة

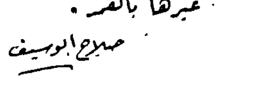
وكذلك بعض العروض الفنية المعروفة بالمسرح الكلى Theatre Total · وانت لاتتصور فيلما عن رحلات رواد الفضاء ، مثلا ، تعبر فيه الآلات الأوركسترالية التقليدية عن هذه الآفاق الجديدة كما تعبر الموسيقى الاليكترونية بأصواتها الغريبة ، اذن فالموسيقى أيضا بسبيل استكشاف آفاق جديدة لها فى عدة اتجاهات احداها الموسيقى الاليكترونية وفروعها مثل الموسيقى ال Concrete

ثانيا : العفوية أو الصدفة
Chance Music

طبقا لنظرية الاحتمالات Probability theory فان هناك اتجاها فى الفنون التشكيلية والموسيقى قد تنتج أعمالا فنية جديدة · وقد تزعم هذا الاتجاه فى الموسيقى J. Cage الذى تطرف فيه الى حد تقديم حفل موسيقى من الآلات الكاتبة او مجموعة من أجهزة الراديو التى تسمع معا فى آن واحد فتنتج بالصدفة مزيجا من الأصوات الموسيقية وغير الموسيقية · ويتميز هذا الاتجاه بقبوله للاصوات غير الموسيقية Noise اى ذات الذبذبات غير المنتظمة كعنصر من عناصر الموسيقى ، وهو الأمر الذى لا نظير له فى تاريخ الموسيقى على الاطلاق الا فى العشرينات من هذا القرن ·







● هل تعتقد أن تغيرا ما سيطرأ على الفنون والآداب نتيجة لغزو الانسان القمر ؟

●● لا شك أن هناك تغيرا سيطرأ على الفنون والآداب وعلى السينما بوجه خاص لأنها هى التى اهتمت أكثر من غيرها بالقمر والصعود الى القمر والهبوط فوق سطح القمر وربما أيضا الحياة على ارض القمر ، ان صح هذا التعبير !

● الم تكن تفكر قبل تحقيق هذا



● كان للثورات العلمية التى ظهرت فى القرون الماضية أثر كبير فى الآداب – والشعر على وجه الخصوص ؛ اذ دخلت كثير من الكلمات العلمية القواميس الشعرية لكثير من الشعراء من أمثال جون دن وبوب وغيرهما ، كما كان للانقلاب الصناعى دخل كبير فى ظهور المدرسة الرومانتيكية ، فهل تعتقد أن هبوط الانسان على سطح القمر –باعتباره ثورة فى نظر الكثيرين– قد يؤثر على الشعر شكلا ومضمونا··؟

●● ان غزو الانسان للقمر ليس بداية انطلاق علمى· بل هو احدى قمم الانطلاق ، وقد يكون له دلالته او وقعه

مكتبتنا العربية

ثالثا : الاتجاه العقلانى Cerebralism

ظهر هذا الاتجاه فى بداية القرن العشرين فى الكلاسيكية الحديثة ، وهو رد فعل طبيعى لرومانتيكية القرن التاسع عشر الذى كان أقسى نقد يوجه فيه الى عمل موسيقى هو ان يوصف بانه عقلانى . وقد يبدو هذا الاتجاه طبيعيا فى القرن العشرين الذى حقق فيه العقل الانسانى هذه الانتصارات العلمية الخطيرة ، بيد انه غريب فى عالم الفن ، وخاصة فى انتاج موسيقى عن طريق الحاسب الاليكترونى الذى أمكن ان يغذى فى معلومات موسيقية معينة طبقا لاحدى الأساليب الموسيقية ، فينتج موسيقى مذهلة بالنسبة للوقت الذى يستغرقه المؤلف الموسيقى فى كتابتها كما يمكن ان يحلل أعمالا موسيقية . ولكن ليس هناك مايدل حتى الآن على أن موسيقى الحاسب الأليكترونى ستحدث ثورة حقيقية فى الانتاج الموسيقى .

● ما موقف الموهبة الفنية الانسانية حيال كل هذا ؟

●● لقد راود القلق على قيمة الانسان ومركزه كمبدع للموسيقى كثيرين من المفكرين فى هذا العصر ولكن لا زال الانسان بموهبته الفنية هو القوة الدافعة والمحركة لهذه الاستكشافات الموسيقية جميعا كما انه هو الذى يصنع الموسيقى سواء بالوسائل الاليكترونية او طبقا لنظرية العفوية .

فهل يتابع العالم بصفة عامة هذا الميدان الجديد للنشاط الانسانى فى مجال الموسيقى بنفس الاهتمام الذى يتابع به رحلات الانسان الى القمر ؟ واخشى أن الهوة التى تحدث عنها علماء الاجتماع من قبل ستزداد عمقا كلما ازداد تقدم الانسان المادى والعلمى ولم يصاحبه تقدم متكافىء فى المجال المعنوى والوجدانى للانسان المعاصر .

الحدث العلمى الهام فى اخراج فيلم عن القمر ؟ وهل تفكر الآن فى ذلك ؟

●● لم أكن افكر فى القمر بذلك الخيال لأن تفكيرى ليس علميا بمعنى البحث فى علوم الفضاء .. ولأنى آثرت فى نفس الوقت ان اكون مخرجا واقعيا ملتزما بالواقع الذى اعيشه ويعيشه مجتمعى والمجتمع الانسانى فى مجموعه ... اما وقد أصبح الوصول الى القمر حقيقة واقعة فمن المحتمل فى هذه الحالة ان اتخيله بذلك الخيال الواقعى .. ومن المحتمل ايضا ان اخرج فيلما عن القمر بالرؤية الواقعية التى حققتها واكدتها رحلة ابوللو .

● ألن تكون تكاليف انتاج فيلم مثل هذا مرهقة بالنسبة للسينما المصرية ؟

●● لا اظن أن التكاليف ستكون عقبة فى سبيل انتاج فيلم عن القمر.. فبالاقتناع والرؤية الفنية الواضحة يمكن للمخرج أن ينتج فيلما بأقل التكاليف .. وبالرغم من ان الفيلم فى هذه الحالة سيكون عن الفضاء الخارجى الا انه يستطيع أن يصوره بأكمله داخل الأستوديو .. وفى نفس الوقت يمكنه أن يستعين ويستفيد بالأفلام الحية التى صورت أثناء القيام برحلات الفضاء وبرحلة ابوللو (١١) وما سيتبعها من رحلات وكذلك الأفلام التى صورت أثناء هبوط رجلى الفضاء على سطح القمر ..

انه ولا شك كشف خطير لعالم جديد ، ولن يكف الانسان عن محاولة ارتياد عوالم اخرى جديدة !

المثير ، لأن الانسان يجاوز الأرض الى عالم آخر . ولكنه على أى حال حلقة من السلسلة التى بدات منذ أوائل القرن العشرين ، والتى غيرت صورة العالم الذى نعيش فيه . وغيرت بالتالى ما نستطيع أن نسميه « حساسية العصر » . وابدعت فى المجال الآدبى والفنى اشكالا جديدة اتسعت لتستوعب مضامين جديدة .

لقد تفجر الشعر وتشكل منذ أواخر القرن التاسع عشر ، ليولد فى أوروبا الغربية مانسميه « حركة الشعر الحديث » ، والتى تتمثل فى أدب الانجليزية فى اليوتوبيتس وعزراباوند، ثم فى أودن وسبندر وماكليش وغيرهم. وتتمثل فى الفرنسية فى رامبو ، ثم فى شعر الرمزيين والسيرياليين ، حتى نصل الى سان جون بيرس ورينيه شار .

ليس هناك ملمح واحد نستطيع أن نرد اليه كل هؤلاء ، ولكن هناك ما نستطيع أن نسميه استجابة تتخذ مظاهر مختلفة للحساسية الجديدة ، التى كان التقدم العلمى احد اوجهها وبواعثها .

هناك صور جديدة من الايقاعات ، او عروض جديدة ، أو بعث لقوالب عروضية قديمة ، بل ان الشعر فى كثير من الأحيان قد تخلص من العروض القديمة جملة لكى يتبنى موسيقى ذاتية جديدة ، كما ان هناك لغة جديدة تخضع لتداعيات جديدة فى تضايقاتها وأوصاف اشيائها ، ثم فى تسلسل الرؤى فيها .

واذا كان النقاد يحددون ميلاد الشعر العربى الحديث بأوائل خمسينات هذا القرن ، فان نقاد الغرب يحددون الشعر الأوروبى الحديث بما بعد بودلير فى فرنسا ، وبانهيار المدرسة الجمالية (جون رسكن – سوينبرن – روزيتى) فى انجلترا . ودلالة ذلك كله هو التأثر بالصورة الجديدة التى خلعها

التقدم العلمى على العالم ، وبالتناقضات الجديدة التى برزت فى هذا الزمان ، وهـذه التناقضات هى مجـال الرؤية الشـعرية ، فالشـاعر هو صياد المتناقضـات ، أو هو الصـوت المحتج الذى يستخرج من تناسق السطح الزائف مايخفيه من اضطراب .

ولا أظن أن غزو الانسان للقمر سوف يغير كثيرا من صورة الشعر الحديث ، لأنها تغيرت فعلا كما قلت فى بداية القرن العشرين ، ولأن غزو الانسان للقمر ليس هو أول بادرة علمية ، فضلا عن أن هذه الخطوة الهامة فى تاريخ العلم لا تكاد تنعكس انعكاسا مباشرا ، أو لم تنعكس بعد على الحياة الانسانية والوجدان الانسانى .

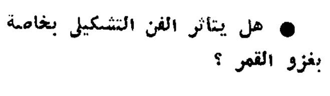
● هل تعتقد أن غزو الانسان القمر قد يخلق عند البعض اسرافا فى التفاؤل حول مستقبل الانسان مثلما حدث فى القرن الماضى .. ؟

النقلة الحاسمة بحق هى تلك التى ستترتب على كشف كائنات عاقلة جديدة

فؤاد زكريا

لكى يستطيع المرء تقدير النتائج الفكرية التى سيؤدى اليها عصر الفضاء فى تطوراته السريعة المتلاحقة ، لابد له من ان يفرق بين نوعين من النتائج : النوع الأول هو التأثير الذى سيعود على عقلية سكان الأرض نفسها من جراء هذه الكشوف ، والثانى هو التغير الذى سيطرأ على طريقة التفكير بوجه عام نتيجة للكشف عن عوالم جديدة قد يكون من بينها ، فى المدى الطويل ، عالم تسكنه كائنات عاقلة .

والأمر المؤكد هو أن النتيجة الثانية، اذا حدثت ، ستكون هى الحاسمة من حيث تأثيرها على عقليات البشر . ذلك لأن الناس قد اعتادوا حتى الآن أن يفكروا فى الأمور كلها من منظور ارضى ، ومن خلال عقل الانسان الحالى. واذا كنا نسلم بان عقل الانسان تتحكم فى تشكيله (جزئيا على الأقل) بنيته الطبيعية ، وتكوينه الجسمى ، وتاريخه الماضى ، فلابد أن يؤدى وجود بيئة طبيعية مختلفة ، وتكوين جسمى مغاير،





الرؤية الفنية أسبق من الاكتشافات العلمية ، بل هى الدافع اليها دائما.

فؤاد كامل

● هل يتأثر الفن التشكيلى بخاصة بغزو القمر ؟

●● التأثر لا يجىء مباشرا ومحدودا .. ولكنه يجىء نتيجة انفعالات وجدانية ، والعالم الخارجى ينفذ الى الوجدان ويخاطب الشعور .. لذلك لن يتأثر الفنان تأثيرا مباشرا ، وان كان قد أثر هو نفسه فى العلم وتنبأ بكل هذه الثورات العلمية التى آخرها وأحدثها وأعظمها هبوط الانسان على سطح القمر .

صور شاجال حالة انعدام الوزن التى لم تظهر علميا وبصورة عملية الا مع تجارب الفضاء .. وصور السيرياليون الفضاء الخارجى والكون اللا نهائى فى العشرينات وصدق تصورهم بعد رحلة أبوللو (١١) .. وكان ابرز السيرياليين فى هذا الصدد ماكس ارنست وايف تانجى وسلفادور دالى..اما التجريديون فقد استطاعوا على الرغم من الفروق الدقيقة بينهم أن يعطوا صورة قريبة الشبه بما وصفه أرمسترونج والدرين عندما راعهما الفراغ اللانهائى وخاصة وصفهما للألوان .. فقد أحسا « بانعدام الألوان » وتركزها فى الأسود والأزرق وهما اللونان اللذان غلبا على أعمال التجريديين ..

●● لا، لقد أصبح الانسان كما يقول كولردج فى نهاية قصيدة الملاح القديم «اصبح أكثر حكمة ، وأكثر حزنا» .

ان التفاؤل الساذج الذى عرفه القرن الماضى استجابة لانجازات العلم ، وتصور الانسان أن العلم هو هذا الفارس الذى يحمل الأمل والسعادة ، هذا التفاؤل أصبح الآن لونا من القصور العقلى ، وتحول الى احساس بالندم يمارسه الانسان فى كتاباته ، كأنه يلوم نفسه على عماه الفكرى . وبخاصة بعد أن أسيء استغلال العلم فى الحربين الكبيرتين ، ومازال حتى الآن معرضا لسوء الاستغلال .

لقد أصبح العلم الآن هو غرامنا المدنس ، نحبه والمرارة كامنة فى النفس . وربما أنتج هذا التقدم العلمى لونا من رد الفعل يتمثل فى الدعوة الى العودة للطبيعة ، كما أنتج عصر البخار هذا الاتجاه الى الرومانتيكية .

لقد زاد التقدم العلمى من خوفنا وتشاؤمنا ، هذا الخوف الذى يتمثل فى بعض الروايات العلمية ، التى تشبه تنبؤاتها تنبؤات « الأبوكليبس » ، ويتمثل فى الوجدان الشعبى الساذج فى حلقات جيمس بوند وامثالها .

وتاريخ مخالف ، الى ظهور عقول من نوع مختلف الى حد بعيد ، مثل هذا الاختلاف لن يمكن التنبؤ بطبيعته مقدما، لأن أى تفكير من جانبنا سيظل مقيدا بحدود عقلنا الحالى . ومهما حاول الانسان أن يكون « موضوعيا » ، فان موضوعيته هذه تظل أسيرة حدود الأرض والتكوين الذهنى الحالى للانسان. ولذلك فان الهزة الفكرية الكبرى التى ستطرأ على الانسان ، والتى ستحدث تغيرا لا نعلم عنه سوى أنه تغيير أقوى بكثير من كل ما نتخيله ، ومن كل ما طرأ على عقل الانسان طوال تاريخه من تحولات ، هى تلك التى تنجم عن كشف كائنات عاقلة فى مكان ما من هذا الكون الفسيح . عندئذ سيكون ذلك اختبارا حاسما لكل ماعرفه الانسان حتى اليوم من فلسفات ومعتقدات .

أما مجرد الوصول الى كواكب أخرى، دون الاهتداء الى كائنات عاقلة فيها ، فانه سيؤدى قطعا الى نتائج فكرية لا يستهان بها ، أهمها أن يتعلم الانسان أن يفكر فى العالم ككل ، وفى الانسانية بوصفها كيانا واحدا ، وأن يزداد عقله اصطباغا بالصبغة « العالمية » بدلا من المحلية الضيقة . وربما كان فى ذلك ما يساعد الانسان على أن يكون أقل عدوانية وتعصبا فى تفكيره . ولكن النقلة الحاسمة كما قلت من قبل ، هى تلك التى ستترتب على كشف كائنات عاقلة جديدة .

● وعلى أعمالك بصفة خاصة !

●● بل حدث فى سنة ١٩٤٧ أن أقيم فى مصر معرض « للرسوم الأوتوماتيكية » واشترك فيه رمسيس يونان وحسن التلمسانى (الذى أصبح مصورا سينمائيا الآن) وأنا .. فاذا مانظرنا الى خريطة القمر بعد تقسيمها تقسيما علميا وجدنا أنها لا تختلف كثيرا عن اللوحات التى عرضت فى هذا المعرض وفى المعارض الأجنبية الكثيرة التى تناولت نفس الموضوع .. وهذا يؤكد أن الرؤية الفنية أسبق من الاكتشافات العلمية بل الدافع اليها دائما .. واعتقد أن الفنان يتمتع برؤية داخلية يتأمل بها الكون ، ولم لا وهو نفسه جزء من الكون حتى أن نظام شرايين الانسان قريب جدا من نظام القنوات ولهذا يستطيع أن يلمس باحساسه عالم الفضاء الخارجى ومكوناته .

● وماذا كان شعور الفنان بعد أن تحققت رؤاه الفنية واصبحت حقيقة علمية ؟

●● لم يحس بدهشة كاملة وكذلك الانسان العادى لأن الحدث كان قد سبقه نوع من التنوير والكشف الذى يقترب من اليقين ، ولأن عملية الوصول الى القمر لم تتم دفعة واحدة وانما جاءت نتيجة للنجاح التدريجى الذى تحقق فى هذا الشأن ..

ولكن شيئا ما حدث فى داخل الفنان قد يكون هو نفسه ماحدث لرائدى الفضاء .. هذا الشىء ربما كان الانبهار الكامل المعلق بين اليقين والقلق والهدوء والتوتر والاكتفاء والرغبة ..

● حدث ما توقعه الفنان فماذا يتوقع بعد ذلك ؟

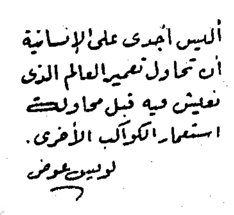
●● ان الحدث بالنسبة للفنان يعد كشفا علميا مثل أشعة اكس أو الصور الميكروسكوبية .. اما تأثر الفنان بالحدث أو بما سيوحى به فمسالة تدخل فى حصيلته العامة بحيث تجد لها صدى فى وجدانه يظهر بلا قيود او حدود .. اما أن تغيرا سريعا وملموسا سيظهر فى أعمال الفنانين المعاصرين فأمر متروك للمقدمات

التي توصل الى النتائج .. واعتقد انه لن يحدث تغير سريع او خلق جديد ولكن الأثر سيظهر تدريجيا ..

● التجـريد يبحث في المطـلق واللا نهائي فماذا بعد ان كشف الانسان غموض العالم الخارجي ؟

●● بصرف النظر عن هذا الكشف فان التجـريد قد اتجه منذ البـداية (١٩١٠) اتجاها هندسيا يتمثل في اعمـــال موندريان واتجـــاها





أليس أجدى على الإنسانية أن تحاول تعمير العالم الذي نعيش فيه قبل محاولة استعمار الكواكب الأخرى.
لويس عوض

● ما من ثورة علمية قامت على سطح كوكبنا الا وكان لها من تأثير بالغ على شتى نواحي الفكر ، فهـل تعتقد ان هبـوط الانسان على القمر سيكون له من التـأثير مثلما كان للثـــورات العـلمية الماضـية كثـورة كوبر نيكوس ودارون عـلى سـبيل المثال ؟

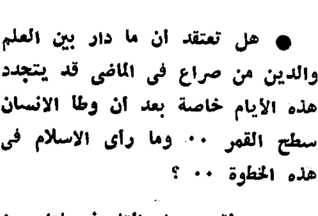
●● كانت ثورة كوبر نيكوس التي قامت ايام النهضـــة الأوروبية ثورة شاملة لانهـا كانت ثورة فلسفية ، فكون الأرض تدور حول نفسها وحول الشمس ـ الشيء الذي لم يكن معروفا للانسان من قبل ـ وكونها لم تعـد مركز الـكون ، ساعد الانسـانية على ان تنظر الى الانسان في حدود علاقته بالكون وعلاقته بالأرض : كل هـــذا ادى الى احساس الانسـان بنفسـه وايمانه بانسانيته ، واصبحت نظرته الى الكون نظرة فيزيقية بعد ان كانت نظرة ميتافيزيقية تماما .

اما ثورة دارون فقـد نتج عنهـا اسراف في التفاؤل في ان العلم سيحل مشاكل الحيــاة ، وهـذا ما تبلور فيما يسمى بمذهب التقدم Progress بمعنى ان الانسان سيستمر في تقدم مطرد الى ان يبسط سلطانه على الارض عن طريق العلم ، وانه اذ تطور عن اصـــول منحطة ، فلا غرو في انه سيتطور حتما الى مايسمى بالانســـان الأعلى Superman ، بيد ان الانتكاسات الانسانية العديدة متمثلة في انتشار الضيق الاقتصادي والبطالة بعد الرخاء الخـرافي الذي عـرفه منتصف القـرن التاسع عشر في انجلترا ، اضافة الى قيام الحروب العالمية التي اودت بحياة



ان كل عقبة توضع أمام التقدم العلمي جريمة إنسانية وإن من يفعلون ذلك ليسوا من الله في شيء.
محمد الغزالي

● هل تعتقد ان ما دار بين العلم والدين من صراع في الماضي قد يتجدد هذه الأيام خاصة بعد ان وطا الانسان سطح القمر .. وما رأى الاسلام في هذه الخطوة .. ؟



●● لقد سجل التاريخ مادار بين العلم والدين من صراع دموى طـويل في اوروبا وفي بعض الأماكن الأخرى ، وهو صراع مؤسف بلا شـك . وقد استطاع العلم ان ينتصر فيه اخـيرا وان كان قد أحرز هذا النصر على ركام كثير من الضحايا والاشلاء .

ونحن من وجهة النظر الاسـلامية نعتقد ان كل عقبة توضع امام التقدم العلمي جـريمة انسـانية ، وان من يفعلون ذلك ليسوا من الله في شيء .. والاسلام يبنى الايمان على النظر العقلي السليم . ومن هنا فهو يرحب بالنشاط العلمي ويشجع بحوثه ، وكل مايطلبه منه ان يعتمد هذا النشاط على القواعد المحترمة في البحث والاستدلال ، وان يتجنب الحدس والتخمين واتباع الظنون والأوهام . وادنى تدبر للقرآن الكريم يشعرنا بمكانة العقل البشرى ورحابة الدائرة التي يعمل فيها ، فان هذا العقل مكلف ان ينتزع معرفة الله من دراسته للـكون واكتشـافه لأسراره وانتفاعه

لا هندسيا يتمثل فى أعمال كاندنسكى .. كان الاثنان يبحثان فى المطلق ولا زال التجريديون جميعهم يبحثون فى هذا المطلق .. لأن المطلق بلا حدود .. فهو لا يقف عند الوصول الى القمر أو المريخ وقد يكون داخل النفس البشرية نفسها ..

الفن هو السر والغموض ولهذا لايكن ان يعبر عن حادثة علمية اصبحت معروفة ومشاعة .. وهو سر غير منطقى ولا يفسره المنطق .. لذلك أعتقد ان الفن سيبحث عن سر جديد وقد يلجأ الى سر آخر من أسرار الكون العظيم بعد أن اكتشف سر القمر !

الكثيرين – كل هذا زعزع ثقة الانسان فى أن العلم بالضرورة سيحقق الفردوس على الأرض .

والآن بارتياد القمر وغيره من الأجرام ، قد يتجدد عند البعض هذا الاسراف فى التفاؤل . ولكن انسان اليوم يبدو أنه أكثر تعقلا من انسان الأمس ، لأن ما نقراه من تعليقات وتسجيل لانطباعات الناس فى هذه الأيام لا يوحى بالاسراف فى الابتهاج الى درجة اشاعة أوهام جديدة عن مستقبل الانسان بما فى ذلك العلماء أنفسهم الذين تتسم تصريحاتهم بحيطة وتحفظ بالغين .

ان وصول الانسان الى القمر فى حد ذاته انتصار علمى عظيم ؛ ولكن أليس أجدى على الانسانية أن تحاول تعمير العالم الذى نعيش فيه قبل محاولة استعمار الكواكب الأخرى ؟ .. ان انسان اليوم يتوجس خيفة ان يكون ارتياد الانسان للأفلاك جزءا من الحرب القادمة ومحاولة كل من أمريكا وروسيا فى السيطرة على كوكب الأرض .

● وماذا عن أثر ارتياد الانسان القمر فى الفنون والآداب ... هل تعتقد أن ذلك سيكون له أثر فى حدوث تغيرات عليهما شكلا أو مضمونا ؟

●● لا اعتقد أن غزو الانسان للقمر والفضاء سيكون له ذلك الأثر الفعال فى الفنون والآداب اللهم الا تجديد اهتمام بعض الكتاب بالقصص العلمى Science Fiction كهذا الذى نشط فى قمة الفتوحات العلمية فى منتصف القرن التاسع عشر ، ولا سيما فى كتابات H.G. Wells فى انجلترا ، Jule Verne فى فرنسا . اقول ان هذا الغزو لا يتجاوز تجدد الاهتمام بالقصص العلمى سواء فى الآداب أو فى الأفلام السينمائية والتليفزيونية ، وربما شجع أيضا الاتجاهات الفلسفية التى تعيد النظر فى حالة الانسانية على ضوء دخولها فى علاقات مع الأفراد الأخرى . غير هذا لا أنتظر ان يؤثر غزو الانسان للقمر فى الأدب او الفن فى شىء لأن الأدب والفن خامتهما عواطف الانسان وسلوكه فى المقام الأول . ولذا لا ينتظر حدوث أى تغيير فى الأدب والفن شكلا أو مضمونا الا اذا أدى ارتياد القمر وسواه الى تغيير فى عواطف الانسان وسلوكه .. فالسؤال اذن ينبغى ان يكون هل سيؤدى غزو الفضاء الى تغيير فى عواطف الانسان وسلوكه أم لا قبل ان نسأل عن مدى تأثيره فى الأدب والفن .

بقواه وثرواته . قال تعالى : « ان فى خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب الذين يذكرون الله قياما وقعودا ويتفكرون فى خلق السماوات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا » . والنظرية الاسلامية التى تحدد وظيفة الانسان فى هذه الحياة أن الانسان سيد فى هذا الوجود عبد لربه الذى مكنه من هذه الحياة وجعله فيها سيدا .. وقد أمتن القرآن على الانسان بأن السماوات والأرض فى خدمته . قال تعالى « الم تروا أن الله سخر لكم ما فى السماوات وما فى الأرض ، وأسبغ عليكم نعما ظاهرة وباطنة » كل مايطلبه الاسلام بازاء هذا التكريم الالهى للانسان هو أن يعرف الانسان ربه معرفة صحيحة ، وأن يشكر نعمته التى أفاضها عليه ، ولكننا نحس فى هذا العصر بأن الانسان قطع أشواطا بعيدة المدى فى مجال التقدم العلمى ، ولم يقطع هذه الأشواط نفسها فى مجال التقدم الروحى والخلقى ، ولذلك فان نجاحه فى وضع قدميه على القمر يعكره انه لن يبلغ الكمال الانسانى الذى يستغل هذا التقدم العقلى استغلالا حسنا ، وقد قيل ان الانسان انفق فى وضع قدمه على القمر أموالا طائلة كان بعضها يكفى لكسوة الجماهير الكثيفة من العراة والحفاة واذهاب ازمات الجوع والحاجة عن الألوف المؤلفة ممن يتعرضون لهذه المصائب .

كما انه لا يشرف الانسان أن يصل الى القمر لينقل اليه علله النفسية .. ترى هل سينقل الى القمر التفرقة العنصرية والعدوان على المستضعفين ، وحرمان الأمم من حق تقرير المصير وما الى ذلك من سيئات لا تزال تشين وجه العالم وتحكم عليه حكما رديئا ؟

● هل تعتقد ان هناك توافقا بين

مكتبتنا العربية

ما ورد فى القرآن من آيات كريمة عن الكون وبين ماوصل اليه العلم الحديث ·· هل ترى أن ذلك يستوجب تفسيرا جديدا للقرآن على ضوء النظريات العلمية الحديثة ؟

●● القرآن كتاب يتضمن خلاصات الوحى الالهى لأنبياء الله جميعا ويكفى فى ادلة صدقه آنه لم يتضمن نصا واحدا يمكن أن يختلف مع الكشوف العلمية المحدثة أو الحقائق التى استقرت



سيختفى أديب الكلمة وأديب الفكرة وأديب المعرفة ليحل محلهم أديب العلم .
مصطفى محمود

● هل يتسع الأدب ليشمل مايمكن تسميته بادب الفضاء ؟

●● ان هبوط الانسان على سطح القمر سيؤدى الى اتساع معنى كلمة « واقع » لأن الأدب الواقعى ، كما نفهمه حتى الآن ، يعنى كل ما يدور حول حياتنا الأرضية ·· فاذا ما تم غزو الفضاء ترتب على ذلك ضرورة أن يشمل الأدب الواقعى جميع الكواكب الأخرى ·· أما الأدب الواقعى فسيكون هو الأدب العلمى أو « أدب الفضاء » كما تحب أن تسميه ·· سيدخل الأدب العلمى حياتنا ، وتعبر الرواية عن « الواقع العصرى » ··

● اذن ستتغير صورة الأديب وتتغير مدركاته ؟

●● أديب «الواقع العصرى» يتحتم عليه أن يكون عالما وليس مجرد كاتب ·· لابد وان يكون فلكيا يعرف نظرية الكوانتوم (المقدار) ونظرية النسبية لاينشتين والجاذبية ·· ويعرف بالحساب كتلة كل نجم وظروفه الجوية وتضاريسه ·· ولذلك سيختفى « أديب الكلمة » و « أديب الفكرة » و « أديب المعرفة » ليحل محلهم « اديب العلم » الذى يحيط بالواقع الجديد ، أريد أن اقول الواقع العلمى الجديد !

● والأديب العلمى نفسه الن يتغير أدبه نتيجة لأحلامه التى تحققت بالفعل؟

●● لا اعتقد لأن الأدب العلمى على صورته الراهنة خطوة فى الطريق الذى أكدته رحلة ابوللو (١١) ··



ينبغى أن نتجه الى المستقبل دون أسف ، ودون ماسى على الماضى
نجيب محفوظ

●● فيما سبق من زمان لعب القمر دور « الحلم » لدى بعض الشعراء والقصاصين · بهبوط الانسان على ظهر القمر تبدد الحلم وأصبح حقيقة، ولن يلعب القمر دور « الحلم » سيكف عن ذلك ، ربما ليلعب دورا آخر بعد حين ·

على أن هبوط الانسان على القمر ليس الا نتيجة لمقدمات علمية وتكنولوجية شاعت فى ثقافة المفكرين وأثرت فى فكرهم وخيالهم وفيما يخلقون من فلسفات وفنون ، بحيث نستطيع ان نقرر ـ لدرجة ما ـ ان ما نتساءل عنه

مكتبتنا العربية

عند جمهور العلماء .

والملاحظ أن هناك تطابقا أو توافقا بين أسلوب القرآن فى وصف الكون وبين المقررات العلمية فى هذا المجال.

وهنا يجب أن نفرق بين الحقيقة العلمية وبين الفرض العلمى أو النظرية العلمية، فالقرآن يستحيل أن يخالف حقيقة علمية ، وتفسير القرآن لهذه الحقائق لا شيىء فيه ، أما محاولة تفسير القرآن بالفروض والنظريات العلمية فنحن نرفضه رفضا باتا لأن هذه الفروض والنظريات لا استقرار لها ولا معنى لتحميل القرآن الكريم أفكارا قد تخطىء أو تصيب .

كل ما هنالك أن « الأديب العالم » سيحلم أكثر .. بطموح أكبر .. وسيتسع نطاق أحلامه ليشمل الكون كله .. ولن تكتفى هذه « الأحلام الكونية » بالتفكير فى المريخ والزهرة ولكنها ستتمادى لتصل الى « الشعرى اليمانية » وهو أكبر النجوم جميعا حيث يصل حجمه الى مليون مرة من حجم الشمس .. وسيضطر الأديب العالم الى المغالاة فى أحلامه لأن العلم أصبح منافسا له فى تحقيق هذه الأحلام بنفس السرعة التى يحلم بها..

● وحياتنا على « وجه الأرض » الن تتأثر بهذا الحدث الكبير ؟

●● من الجائز أن يؤدى تنافس الدول الكبرى فى سباق الفضاء الى فض النزاع الدائر على الأرض ، والافادة بالأموال التى تنفق فى التسليح وتدعيم القوى النووية ، بحيث يتحول الصراع الأرضى الذى يتهدد البشرية الى « ملاكمة فضائية طريفة » يفيد منها العلم والعلماء والبشرية جمعاء .. ومن الجائز أن يحدث العكس فتستغل الدول الكبرى القمر والكواكب الأخرى لتقيم عليها قواعد عسكرية سرية تهدد بها بعضها البعض .. وهنا تكون الكارثة ..

وقد يعثر الانسان على دواء أفضل فوق سطح القمر والكواكب الأخرى يفيد أهل الأرض .. دواء يشبه اكسير الحياة الذى قد يغير الحياة تغيرا خطيرا لا أستطيع الآن أن أحدد مداه .. ،

وعلى كل فليس من المنتظر أن يحدث شىء من هذا فى عصرنا ..

ولكننا مع ذلك مقبلون على مرحلة دينية جديدة ، بعد أن فقد الدين سلطانه فى العصر الحديث .. ذلك أن الاغراق فى علوم الفضاء سيؤدى الى احياء العلوم الدينية ، واتساع نطاق الفكر المادى سيؤدى الى عودة الفكر الدينى .. انها بداية عصر روحى .. وتصوف لا يرمى الى العزلة ولكنه يهدف الى الاندماج : فى العلم والحياة ..

تقول الآية الكريمة : « انما يخشى الله من عباده العلماء » بمعنى أن العلماء هم الذين يؤمنون بالله .. أما الملحدون فهم أنصاف العلماء أو أشباه العلماء !

من أثر فى الأدب نتيجة لهبوط الانسان على القمر قد حصل بالفعل قبل هبوط الانسان على القمر .

ولكن ثمة مزيدا من الآثار المنتظرة عندما يصبح القمر حقيقة قريبة وسياحة غير مستحيلة للناس ، هناك تتجلى نظرة جديدة للكون ، وللمكوث فوق القمر ، ولدور الانسان ، ولمعنى حياته ، وللمستقبل اللامحدود الممتد أمامه .

● ما مصير الأدب فى هذا العالم الجديد ؟

هل يثرى بمضامين جديدة ورؤى بديعة واشكال باهرة ؟ أو هل ينكمش وينزوى امام روعة العلم واعجازه وسحره وابهاره وسيطرته ؟ هل ينكمش وينزوى خجلا حتى يذبل ويموت أو يقوم بمهمة ثانوية لاتستحق الذكر؟

●● الحق ان الفن كان -ومايزال- التعبير عن الانسان الراهن أى « الحيوان العاقل » ، ولذلك فكلما قوى جانب العقل فى حياة الانسان كلما مال الفن الى التعبير عن لاوعيه أو جانبه الوجدانى ليعيد اليه توازنه .

● ولكن اين يتجه تطور الانسان؟

●● الأرجح انه يتجه نحو العقل على حساب الغريزة والعاطفة ، حتى يبرز للوجود فى النهاية الانسان العاقل فحسب ، وعند ذلك يصبح الفن من ذكريات الطفولة المحبوبة والسخيفة معا ، أو ينشأ فن جديد عقلى بحت يسر الانسان كما تسره النظرية العلمية أو المسألة الهندسية .

على أى حال ينبغى أن يتجه الى المستقبل دون أسف رومانسى على الماضى .

القضية هي قضية تصريف أو ابعاد الاحتكار العالمي عن طريق القمر .
نعمان عاشور



● هل سينتج عن غزو القمر مايكن تسميته بأدب القمر ؟

●● ليس هنـاك أدنى صلة بين صعود الانسـان الى القمر والانتـاج الأدبي ؛ وربما كانت الصلة الوحيدة عكسـية بمعنى أن الانسـان سيزداد اهتماما بالأرض بدلا من تعلقه بالسماء ، وهذه هي النتيجة الصحيحة التي يجب أن يتجه اليها الانتاج الأدبي .

أما المزاعم القائلة بان الصعود الى القمـر سيؤثر على مايجيش بعواطف الانسان أو أحلامه على الأرض ، فانها



الوصول الى القمر لن يحدث ثورة في الأدب أو الفكر .
يوسف ادريس

● هل يحدث الوصول الى القمر ثورة في الأدب والفكر ؟

●● الوصول الى القمر لن يحدث ثورة في الأدب أو الفكر ، لأنه في رايي لن يعـلو عن كـونه تقـدما تكنولوجيا يساير التقـدم التكنولوجي الذي يحفل به العـالم المعاصر . وقد يفيد الوصول الى القمر في الكشف عن بعض الحقائق الدقيقة عنه وعن طبيعته وعن الكون .. ولكنه لن يحدث ثورة تغير من مفهومنا عن أصل الحياة والعالم .

ان نجاح الرحلة سيكون له تأثيره في المستقبل على سينما الفضاء .
يوسف فرنسيس

●● في السـينما سـوف تزداد افلام الفضاء غنى وثراء .. وسيصبح القمر منجما للأفكار السينمائية، يستغله كتاب القصة والسيناريو في استلهام موضـوعات جـديدة وافكار طريفة ، ويستغله المخرجون في خلق اجـواء وكادرات لم تسـتحدث في السـينما بعد .. قد يصبح القمر قاسما مشتركا في السينما العالمية ، وقد يتحول في السـينما المعاصرة الى ظاهرة خاصة كظـاهرة « جيمس بوند » ، ولـكنه سيصـير خلفيـة لمعظم قصص الحـب والجاسوسية .

● فيلم « أوديسا الفضـاء » تم تصويره قبل رحلة أبوللو (١١) .. فهل جاء مطابقا لواقع الرحلة ام كان في حاجة الى نتائجها ؟

●● لقد أثبت الفيلم برغم تصويره قبل رحلة الفضاء وان كان قد استعان بالنظريات العلمية التي قامت عليها الرحلة أن السـينما ترتاد المجهـول بخيالها قبل أن يرتاده العلماء بعلمهم .. وهكذا تم تصوير الفيلم بدقة رائعة لم تـكن في حاجة الى انتظـار اتمام الرحلة حتى تستند الى حقائقها .. ولا شك أن النجاح في اطلاق صاروخ وهمي ـ بالخدعة السينمائية ـ بشيء يثير العجب أكثر مما يثيره النجاح في اطلاق الصاروخ الحقيقي ..

وهـذا لا يمنع ان نجـاح الرحلة سـيكون له تاثيره في المستقبل على « سينما الفضاء » ، التي ستلتزم حتما بالحقائق العلمية اذا ما تناولت حدثا وقع ، وبالنظريات العلمية أيضا اذ

مزاعم هروبية خالصة لايمكن أن ينادى بها الا الأدب السوداوى المعاكس لتقدم الانسان وربما وجد أعداء الانسان الفرصة المواتية للتأكيد على هذا الاتجاه كمهرب يساعده على مزيد من المواقف العكسية التى تمثلت أخيرا فى اللامعقول والعبث وغيره من الاتجاهات الأدبية المضادة ، والتى تعتبر من أبرع ما أسفرت عنه تطورات المجتمع الراسمالى العفن فى محاولة انقاذ الثقافة من الانهيار .

● وبماذا يمكننا أن نصف النجاح العلمى الذى حققته المرحلة الأخيرة ؟

●● الواقع اننا اذا تعمقنا فى صعود الانسان الى القمر بالأسلوب الأمريكى الأخير يتكشف عن أوهى الحقائق . وهى أن عملية الصعود الى القمر أو ما أسميه لعبة القمر ، جاءت فى وقتها كمهرب للاحتكارات العالمية وكحل مؤقت لأزمتها فى صرف فائض القيمة على عمليات أو مغامرات من هذا القبيل تعوضها عن امكانية تصريف الأسلحة المكدسة فوق سطح أرض أصبح من المحال أن تقام عليها الحروب الا اذا كان فيها دمار شامل للانسانية كلها .

واعتقد أن الروس كانوا على شىء من الدهاء فى عدم اسراعهم الى هذه الخطوة التى لايمكن أن يصعب عليهم تحقيقها بما لهم من سبق ومقدرة تكنيكية تعادل مقدرة الأمريكا .

القضية اذن هى قضية تصريف أو انقاذ الاحتكار العالمى عن طريق القمر ولا أظن أن هذا يمكن أن يؤثر فى أدب الشعوب الغارقة تحت أقدام الاحتكارية الأمريكية على سطح الأرض.

الثورة تحدث حقيقة اذا اكتشفنا كائنات عاقلة فى المجموعة الشمسية أو فى المجرات الأخرى .. لأننا سنتفاعل عندئذ مع مانجده من نتاج الحضارة الحية هناك ، ونتحول من كائنات أرضية الى كائنات كونية .. ويتسع أدبنا وفننا ليعطى احتياجاتنا الفكرية والخيالية البالغة الاتساع أو هكذا ستكون حينئذ .

● هل معنى هذا أن الحدث ستقتصر أهميته على الناحية العلمية البحتة ؟

●● ان اكتشاف الكروموسومات التى تثبت الوراثة ، أخطر من الوصول الى القمر بالنسبة للأديب الذى يتناول قضايا الانسان من خلال المجتمع .. هذا على الرغم من أن تجربة الوصول الى القمر تعد فى الحقيقة تقدما علميا خطيرا .. لقد أرقتنى تلك المحاولة ليلتين كاملتين ، ظللت طوالهما متوترا شغوفا وخائفا .. متوترا من أجل الرواد ، وشغوفا بالنتيجة وخائفا على التجربة ..

أما المعلومات التى تأكد منها الرواد أو العلماء فلم تكن شيئا جديدا .. كنا نعرفها منذ كوبر نيكوس ، ولهذا أقول ان وصول الانسان الى القمر لن يغير من صورة الآداب والفنون بمثل ما كان سيحدث لو أن الرحلة جاءت بمعلومات جوهرية جديدة لم نكن نعرفها من قبل .. ولهذا أيضا أقول ان وجود حياة أو كائنات حية فى كوكب آخر سواء كان القمر أو المريخ هو الذى سيغير حتما صورة الآداب والفنون بل سيحدث فيها ثورة شاملة !

هى أرادت أن تسبق العلم بالخيال .. كما حدث فى فيلم «أوديسا الفضاء» .

● هل تعتقد أن التخلف عن «سباق الفضاء» يترتب عليه بالضرورة تخلفا فى انتاج « أفلام الفضاء » ؟

●● نفس رحلة أبوللو (١١) والرحلات السابقة واللاحقة بما فيها من تفاصيل حقيقية تعتبر سيناريو كامل ، بل فيلم مصور لا ينقصه الا أن يفرغ من شرائط التليفزيون فى شرائط السينما .. وهذا أمر مكفول للجميع ..

غير أن هذا النوع من الأفلام ، شأنه شأن رحلات الفضاء نفسها ، يتكلف تكاليف مرهقة لا تقدر عليها الدول النامية – على الأقل – ان لم أقل جميع الدول المتخلفة عن سباق الفضاء .. لأن هذا النوع من الأفلام فى حاجة الى الاقناع .

● وفى الفن التشكيلى !

●● فى الفن سوف يتغير المنظور ، لأن رائدى الفضاء لا حظا أن قمم الجبال على سطح القمر ليست ظاهرة لأنها ضائعة فى ظلها .. وسوف تتغير الألوان ، لأن عدم وجود جو على سطح القمر جعل الأشياء والأجسام تكتسى جميعها بالألوان العادية .. وسوف تتغير الأشكال لأن التكوينات البركانية التى ظهرت فوق سطح القمر ستفتح آفاقا جديدة أمام الفنان التشكيلى فى تصوره للأشكال وتصويره لها .. وأخيرا سوف يزداد ادراك الفنان للتفكير العلمى فى الفنون التشكيلية .

● والقمر نفسه هل يتغير شكله أم يختفى نهائيا من لوحات الفنانين ويفقد قيمته كرمز للعشاق والمحبين ؟

●● ظل الفنان وهو يرسم اثنين من العشاق ، يرسم باللاوعى دائرة القمر ، رمزاً لليل ملاذ المحبين .. فاذا كان الليل سيظل كما هو بالنسبة للعشاق فعلى الفنان التشكيلى أن يبحث عن شىء آخر غير القمر يشارك المحبين خلوتهم فى الليل الستار ..

وعلى الرغم من كل هذا فان الأرض ستظل هى مركز الكون ينطلق منها الانسان دائما الى آفاق أرحب ويعود اليها أبدا حاملا معنى أساسيا هو أن الانسان خالق العلوم والفنون والآداب وسيظل هو موضوع العلوم والفنون والآداب مهما اختلفت المناهج والأساليب وطرق التناول .. أما الفنان فسيظل حائرا بين الماضى والمستقبل !

تيارات فلسفية

الإرادة والحرية

عند الدكتور زكي نجيب محمود

امام عبد الفتاح امام

« إن الشرط الأول لإمكان أن اكون مذنبا أو غير مذنب ، أعنى أن أصبح موضوعا لحكم أخلاقى ، هو التشابه الذاتى : أن أكون أنا نفسى باستمرار شخصا واحدا فى هوية ذاتية مع نفسى »

حاولنا فى مقال سابق أن نبرز جانبا هاما من جوانب التطور الروحى للدكتور زكى نجيب محمود ، وهو الجانب الميتافيزيقى كما يتمثل فى بحثه عن « الجبر الذاتى » الذى تقدم به لنيل درجة الدكتوراه من جامعة لندن ، وهو بحث يذهب فيه صاحبه الى أن الانسان مجبر ذاتيا أعنى أنه



حر لكن بحرية منظمة تنظيما سببيا « فالفعل الارادى معلول وحر فى آن معا » . وقلنا ان الباحث الذى يذهب الى أن الانسان حر في أفعاله الارادية ، عليه أن يحدد لنا مايعنيه بلفظتى : **حر وارادة**»، ومثل هذا التعريف ضرورى ايضا للفظة « النفس » اذا ما زعمنا أن الانسان مجبر ذاتيا أعنى مجبر عن طريق « نفسه » .. وسوف نتناول فى هذا المقال معنى الارادة والحرية بعد أن أفردنا المقال السابق كله (على صفحات هذه المجلة : عدد ٥٢ ـ يونيو ٦٩) لفهم تعريف «النفس» وهو التعريف الذى اعتبرناه بمثابة الاساس فى بناء هذه النظرية . ولقد انتهينا فى هذا المقال الى أن النفس فعل بواسطته يجمع الفرد مايساعده فى حفظ وجوده »، وهذا الفعل هو : الانتباه، فالذات لاتكون ذاتا الا لانها تنتبه باستمرار وليست هناك لحظة واحدة فى حياة الفرد يمكن أن تخلو من الانتباه خلوا تاما . والانتباه هو الجانب الذاتى ومانتنبه اليه هو الجانب الموضوعى ، والافعال السيكولوجية كلها ليست الا تنوعا للجانب الموضوعى من الانتباه ، فليس هناك سوى فعل أساسي واحد هو الانتباه ثم موضوعات متعددة ننتبه اليها فى أوقات مختلفة : ففى الادراك الحسى ننتبه الى موضوعات حسية، وفى الادراك العقلى ننتبه الى محتويات عقلية »، وفى حالة الارادة ننتبه الى موضوع يتسم بخصائص معينة وهكذا ..

الارادة ...

معنى ذلك أن الارادة ليست الا مثالا جزئيا من أمثلة الانتباه (وهو الفعل الاساسى للذات) لايفترق عن غيره الا بخصائص معينة هى التى تطبع بطابعها موضوع الانتباه ، وهى التى تكون بالتالى فعل الارادة .. وسوف ينتهى بنا

مثل هذا التعريف للارادة الى انكار ما يسمونه عادة (بملكة الارادة » لان تصور مثل هذه الملكة لن يعنى فى هذه الحالة الا اننا نقوم بتعميم مجرد من الامثلة الجزئية للمواقف الارادية ، كما هى الحال بالضبط تصور « الانسان » الذى لا يدل الا على تعميم مجرد من الافراد الجزئية التى تشترك جميعا فى خصائص معينة ، وبمعنى آخر ليست هناك «ارادة» تريد فى مناسبات مختلفة أشياء معينة ولانريد هذه الاشياء فى مناسبات أخرى ، بل هناك فقط الامثلة منوعة للمواقف الارادية ، وافتراض وجود ملكة للارادة هى التى تجعلنا نريد فى مواقف معينة ولانريد فى مواقف أخرى، سوف يبدو أشبه مايكون بافتراض «ملكة للغناء» هى التى تجعلنا نغنى ، و «ملكة للرقص» هى التى تجعلنا نرقص ..

الارادة ـ اذن ـ هى الانتباه الى موضوع ذى خصائص معينة ، ولاتوجد حالة واحدة من حالات الارادة لاتتوقف عند تحليلها على الانتباه الى فكرة لها خصائص معينة : «حين نعقد العزم على أن نتبع لونا معينا من ألوان السلوك» فاننا نكون فكرة واضحة ـ بقدر الامكان عن هذا اللون من السلوك ، ثم نضع هذه الفكرة بجهد من الانتباه أمام العقل .. وقل مثل ذلك فى حالة الاسترجاع الارادى لواقعة ما كنا قد نسيناها .. » وفى اسطاعتنا أن نسوق أمثلة لاحصر لها من المواقف الارادية ، وسوف نجد أنها كلها تعتمد دائما على الانتباه الى شيء ما . والانتباه كما سبق أن ذكرنا له جانبان : ايجابى وسلبى ، فهو ايجابى حين يأخذ فكرة التغير المطلوب ، وهو سلبى حين يستبعد الافكار الاخرى التى تعرقل تحقيق الفعل المراد ، اذ لابد أن يكون هناك دائما أكثر من خط واحد ممكن للفعل المراد ، على الاقل : الاقدام على هذا الفعل أو الاحجام عنه ، ويختار الفاعل من بين البدائل الممكنة بديلا واحدا ويحتفظ بفكرته فى الانتباه حتى يتحقق ..

خصائص الموقف الارادى ..

لكن ذلك كله ليس الا تعميما يحتاج الى تخصيص وتحديد : فاذا كان الموقف الارادى عبارة عن فعل من أفعال الانتباه الى موضوع يتسم بخصائص معينة ، فما هى تلك الخصائص التى تطبع بطابعها موضوع الانتباه حين يكون الموقف السيكولوجى اراديا .. ؟ لابد أن نقول بادىء ذى بدء أن الفكرة التى تكون موضوع الانتباه فى حالة الارادة هى بصفة عامة فكرة التغير ، لا أعنى فكرة شيء يختلف عما هو موجود بالفعل . واذا ماحللنا هذه الفكرة لوجدنا أنها تتألف من العناصر الآتية : (١) ـ أن يكون هناك وجود له طبيعة معينة . (٢) ـ أن تكون هناك فكرة عن تغير يراد احداثه فى هذا الوجود . (٣) ـ أن يتم احداث التغير بالفعل طبقا لمضمون الفكرة . (٤) ـ أن يتم التغير بفضل نشاط الفرد المنتبه الى الفكرة التى نتحدث عنها دون مساعدة العوامل الخارجية . (٥) ـ أن تتحقق ذات الفاعل من خلال تعبيره عن طبيعته فى الفكرة . تلك هى الخصائص الخمس التى يتميز بهذا الموقف الارادى ، وعلينا أن نلاحظ أمرين هامين قبل أن نخوض فى تحليلها الاول : أن هذه العناصر الخمسة ليست الا جوانب لفكرة واحدة ينصب عليها الانتباه وهى فكرة التغير بمعنى أنها ليست خمس أفكار منفصلة . لكنها حلقات متكاملة فى سلسلة واحدة هى مانطلق عليه اسم الموقف الارادى . والامر الثانى : أنه لايقصد بترتيب العناصر بهذا الشكل سوى فهمها فحسب فقد يحدث أن تتحقق كلها دفعة واحدة وبعبارة أخرى هى «عملية واحدة» وليست مجموعة من الخطوات المنفصلة ولنشرع الآن فى تحليل كل جانب على حدة من هذه الجوانب الخمسة التى تشكل عادة مايسمى بالارادة .

الخاصية الاولى ..

الخاصة الاولى للموقف الادارى هى أن يكون هناك وجوده له طبيعة معينة ، وجود « أريد » له أن يتغير وفقا لمضمون الفكرة التى أنتبه اليها . وقد يكون هذا الوجود المطلوب تغييره وجودا داخليا أو خارجيا : وهو حين يكون خارجيا فانه يعنى دائما يوجد فى زمان معين ومكان محدد ، وحين يكون داخليا فانه يعنى واقعة سيكولوجية معينة . وفى كلتا الحالتين لابد من توافر شرطان : الأول : أن تكون فكرتى عن التغير مخالفة لهذا الوجود بمعنى أننى أريد لهذا الوجود أن يكون خلاف ما هو عليه . والثانى : أن تبدأ عملية التغيير الآن ، واذا لم يتحقق هذان الشرطان ـ أحدهما أو كلاهما ـ فلن يكون هناك ارادة . أعنى أنه ما لم يظهر الوجود على أنه التغير المطلوب تماما فلن يكون ثمة ارادة ، وكذلك لا تكون هناك ارادة لو كان عندى فكرة التغيير لكنى أقوى أن أبدأها فى لحظة فى المستقبل ، صحيح أنه فى الحالة الأخيرة سوف يكون هناك عزم أو تصميم لكن العزم والتصميم شيء والارادة شيء آخر . فليس المهم أن تكون فكرة التغير موضوعا للانتباه فحسب حتى نسمى الموقف اراديا لكن المهم أن يحدث التغير المطلوب . ومن هنا فان القول باننا : « نستطيع أن نريد حتى ولو لم تستطع تحقيق ارادتنا بالفعل » قول ظاهر البطلان ، لأنه ما لم يحدث تغيير الوجود المنتبه اليه كاملا فلن تكون هناك ارادة ، فلو كان عندى هدف معين أريد تحقيقه فاننى أبحث عن الوسائل التى تمكننى من بلوغ هذا الهدف ، ولو ظهر أن هناك عدة وسائل فاننى أبحث عن أسهلها وأفضلها ، أما اذا ظهر انه ليس ثمة سوى وسيلة واحدة فاننى أبحث عن كيفية بلوغ غايتى بهذه الوسيلة : « وفى

هذه الحالات جميعا ترانا نرتد من الغاية الى الوسيلة ، ومن وسيلة الى أخرى ، حتى نصل فى نهايةا الأمر الى وسيلة يمكن أن نتبناها « هنا » و « الآن » .. » وبهذا تبدأ الخطوة الأولى فى الموقف الارادى .

الخاصية الثانية ..

الخاصية الثانية للموقف الارادى أن تكون لدى فكرة عن تغيير هذا الوجود ، أعنى أنه لابد أن يكون هناك صراع بين فكرتى من ناحية ، وبين ذلك الواقع الموجود « هنا » و « الآن » من ناحية أخرى ، وبديهى أن التغير المراد لابد أن يكون شيئا ممكنا ، فلو أننى تصورت تغيرا لا يكون من الممكن تحقيقه فان مثل هذا التغيير لا يسمى ارادة لكنه رغبة : « فنحن لا نستطيع أن نختار المستحيل ، ومن يفعل ذلك لابد أن يكون أحمق لكننا نرغب فقط فيما هو مستحيل : كالفرار من الموت مثلا .. » . و « قد ترغب كذلك فيما لا تستطيع فاعليتنا أن تحققه كنجاح ممثل أو فوز رياضى معين ، لكنا لا نختار أبدا أمثال هذه الأشياء ، وانما نختار فحسب تلك الأشياء التى نعتقد ان فى استطاعتنا تحقيقها .. » .

وعلى ذلك فالتغير المطلوب لابد أن يكون أولا : شيئا ممكنا ، ولابد ثانيا : أن يكون مما نستطيع بقدرتنا الخاصة تحقيقه . لكن قد يعترض على ذلك بأننا قد لا نحتاج فى بعض المواقف الارادية الى تغيير الوجود ، لأن الوجود الحاضر المستمر قد يكون هو نفسه موضوع الارادة ، وبمعنى آخر قد أريد لهذا الوجود الحاضر المستمر نفسه أن يستمر على هذا النحو ، وبالتالى فلن يكون هناك تغيير مع أن هناك ارادة . لكن ذلك خطأ لأن الحاضر لو كان سيستمر من تلقاء نفسه فلن يكون للارادة معنى ، وبالتالى فلو اننى قلت « انى أريد » هذا الحاضر المستمر نفسه فلن يكون لهذا القول معنى ما لم يكن يعنى أنه بدون فعل الارادة فان هذا الوجود الحاضر سوف ينتقل الى وجه آخر مخالف لما هو عليه ، واذا كان ذلك كذلك فاننى فى منعى تغيير الحاضر أكون قد تسببت فى تغيير ما .

الخاصية الثالثة ...

لا يكفى للموقف الارادى أن تكون عندى فكرة عن تغير ما ، ولا يكفى أن يحدث هذا التغير فى الوجود ، وانما لابد أن يحدث التغير كما هو موصوف فى مضمون الفكرة . ويجمل بنا هنا أن نلفت النظر الى أن فكرة التغير والتغير ذاته نادرا ما يتحدا — هذا اذا اتحدا على الاطلاق ، فالتغير — عادة يتضمن شيئا أكثر بكثير من فكرته والواقع أن التغير معقد للغاية لدرجة يصعب معها تحديد ما يشمله تحديدا دقيقا ، فلو اننى أردت ، أن أذهب الى المكتبة لكى أقرأ فيها كتابا ، فمن الواضح أن الفعل الذى سأقوم به سوف يشتمل على عدد غير معين من الحركات التى لم أكن أقصدها بطريقة مباشرة . وعلى ذلك فحين نقول ان التغير لابد أن يحدث كما هو موصوف فى مضمون الفكرة فاننا نسمح بزيادة كبيرة تعرف بالتداعى اللازم لمضمون الفكرة ، ومثل هذه الزيادة لابد أن ينظر اليها على أنها مرادة هى الأخرى ، اذ على الرغم من أنها ليست جزءا جوهريا من الفكرة ، فانها مع ذلك مصاحب ضرورى لها . لكن لو كانت هذه الزيادة لا ترتبط عادة بالفكرة فانها لا تكون مرادة : افرض — مثلا — أن صيادا أراد أن يصطاد بعض الطيور لكنه حين أطلق الرصاص قتل شخصا تصادف مروره لحظة اطلاق النار : ان هذه الواقعة الأخيرة لا هى التغير المقصود ولا هى تداعيه للازم ، ومن ثم فهى لا يمكن أن تكون مرادة .

الخاصية الرابعة ..

وفضلا عن ذلك فان التغير الذى يحدث طبقا لمضمون الفكرة لابد أن يكون نهاية لعملية كانت بدايتها فكرة التغير الموجودة فى الانتباه . وهذا التغير لا يكون ارادة الا حين يتحقق بنشاط الفرد المنتبه بحيث يكون الفرد نشطا أعنى سببا كافيا لاحداث العملية . وعلى ذلك فاننا فى حالة احداث تغير معين يكون لدينا من ناحية فرد منتبه الى فكرة تغير ، ويكون لدينا من ناحية أخرى تحقق هذا التغير نفسه ، والانتقال بين هذين الجانبين هو الذى يكون الفعل .

افرض أن لدى فكرة عن شخص نسيت اسمه لكنى أريد أن أتذكره ، اننى فى هذه الحالة لدى فكرة الشىء المطلوب لكن ليس لدى وجوده : فحالتى الجسمية الراهنة تخالف المضمون المطلوب ، ولاحداث النتيجة التى أريدها فاننى أقلب هذه الفكرة الموجودة فى ذهنى بحيث تستدعى أوضاعها المترابطة شيئا فشيئا حتى يحضر الاسم الذى كنت أبحث عنه ، وهذه النتيجة وصلت اليها عن طريق الفكرة الأولى الأصلية التى كانت بداية لعملية نهايتها النتيجة المطلوبة . وهذه العملية أحدثها الفرد المنتبه الى فكرة أصلية ، لكن لو أن الاسم وقع لى دون أن يكون مطلوبا ، فلن يكون هناك ارادة لأنه ليست هناك فكرة تحققت عند وقوع الاسم ، ومن ثم فان الاسم سيكون حادثة وليست فعلا اراديا ، سيكون حادثة دون فاعل أحدثها .

وحين ينصب التغير المراد على العالم الخارجى ،

كاحداث حركة معينة فى الأجسام المادية ـ سواء اقتصرت على جسم الفاعل نفسه أو امتدت الى اجسام أخرى ـ فان هذا التغير لابد أن يحدث نتيجة لفكرة عن التغير انتبه اليها الفرد . اذ ان حدوث الحركة التى نفكر فيها ليس تسلسلا طبيعيا للظواهر الموجودة أمامى والا كانت هذه الظواهر عبارة عن « أحداث » ولا نعدم وجود الفعل ، والفرد حين ينتبه الى التغير المطلوب لا يكون فقط سابقا على هذه الحركة لكنه يكون : فاعلها وسببها الكافى ومنتجها ومحدثها .

وعلى ذلك فاذا افترضنا أن الارادة تعتمد على تتابع الحركة وتسلسلها دون وجود فاعل يمارس الفعل لكان معنى ذلك أن أى سلوك حركى سيكون حالة من حالات الارادة ، خذ مثلا التنويم المغناطيسي تجد أن الفكرة المفروضة على الشخص النائم يعقبها حركات معينة لكن ذلك ليس ارادة ، لأن تحقق الفكرة لا يتضمن التعبير عن طبيعة الفاعل ، ولكى يعبر الفاعل عن طبيعته لابد أن يكون خالقا نشطا للتغير . ومن هنا فانه ليس من الضرورى فى الارادة أن تعقب الحركةالفكرة فحسبلكن من الضرورىأيضا أن تعقبها لاننى أقرر انه يجب أن يحدث ذلك » أى أن معيار الارادة هو مدى سيطرة الفاعل على الفكرة ، فاذا لم يسيطر عليها ، واذا لم يكن فى قدرته أن يخلق ـ أو يوقف ـ الحركة المناسبة التى تحقق الفكرة فان معنى ذلك أن مؤثرات خارجية قد تدخلت وأنالفاعل ـ بالتالى ـ ليس هو السبب الكافى للفعل ، وكما قال « برادلى » : «اذا لم يكن لى حيلة فى هذا الأمر ، فلا يمكن أن أريده» ، فالفعل لا يمكن أن يكون مثلا للارادة ما لم نعرف أن فى قدرة الفاعل أن يفعله أو لا يفعله ، وبعبارة أخرى : فى حالة الارادة لابد أن يكون هناك أكثر من خط واحد ممكن للفعل ، لابد أن يكون هناك على الأقل بديلان : **أن أفعل الفعل أو ألا أفعله** ، فالخط الواحد للفعل لا يمكن أن يكون مرادا بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة . ومن ثم فالفعل المنعكس ـ سواء أكان بسيطا أم مركبا ـ ليس فعلا مرادا ، وكذلك الفعل المعتاد الذى يتبع مجرى مألوفا لا روية فيه ولا اختيار ، لكن ذلك لا يعنى انكار الارادة على سلسلة الأفعال الأولى التى كونت هذه العادة . وفى عملية الروية التى تسبق الفعل ترانى أتأمل نفسى فى الوضع الذى سأكونه لو اننى نفذت هذا الفعل وجعلته جزءا من تاريخ حياتى الواقعية ، ثم أتأمل نفسى ـ من ناحية أخرى ـ فى حالة تركى اياه بلا تنفيذ ، وبعبارة أخرى ، اننى أربط نفسى ـ فكريا ـ بخط معين من الفعل ثم أرى ما اذا كان يتناسب مع شخصيتى ككل متكامل . وقد يقال ـ خطأ ـ انه اذا كانت الارادة تعتمد على تحقيق فكرة معينة . فان النتيجة اذا ما تحققت الفكرة هى محصلة الارادة ، وبالتالى فلو كان لدى فكرة كسب مائة جنيه فى وقت معين ثم حصلت على المال ملقى فى الطريق ووضعته فى جيبى ، فى هذه الحالة لا أكون قد حققت فعلا ارادا لأن نتيجة الفكرة أحدثتها عوامل أخرى غير فاعليتى ونشاطى . فالفعل الارادى كما سبق أن لاحظنا لابد أن يكون نهاية لعملية كانت بدايتها الفاعل نفسه متخذا خطأ معينا من السلوك للوصول الى تلك النتيجة . لكن قد يقال افرض أن فكرة التثاؤب جعلتنى أتثاءب : ألا تكون تلك حالة من حالات الارادة .. ؟ والاجابة هى أن هذا الفعل يكون اراديا ـ يقينا ـ اذا ما انتبهت الى فكرة التثاؤب لكى أتثاءب فعلا ، وفى هذه الحالة سيكون تثاؤبى فعلا مرادا ، لكن لو تصادف أن وردت الفكرة على خاطرى ثم أعقبتها حركات معينة بلا هدف فلا تكون فى هذه الحالة ارادة .

الخاصية الخامسة ..

وتحقق فكرة التغير عن طريق نشاط الفاعل المنتبه اليها ـ وهى سمة الموقف الارادى ـ لابد فى نفس الوقتان يكون تحققا للفاعل : فهو يحقق نفسه لأن الفكرة التى ينتبه اليها تعبر عن شخصيته : « فأنا أستطيع مثلا أن أنتبه على التوالى الى فكرة الطريقة التى تحكم بها بلادى الآن (أى عام ١٩٤٧) ، والى فكرة الطريقة التى ينبغى أن تحكم بها ، وكلما انتبهت الى الوجود الفعلى شعرت بصراع بينه وبين شخصيتى ، بينما أشعر بارتياح الى فكرة الدولة التى أتخيلها وأجد أن هذه الدولة تلائم طبيعتى وشخصيتى وانها افضل لتحسين وجودى ، ومعنى اننىأشعر براحة لفكرة التغير أننى لا أجد مثل هذا الشعور مع فكرة الوجود الواقعى بل على العكس أجد ان هذا الوجود الواقعى شىء غريب عن شخصيتى .. » .

واذا تساءلنا لماذا يأخذ الفرد بفكرة التغير فى معارضة الوجود الواقعى .. ؟ كانت الاجابة أن الفكرة تلائم حياته بطريقة أفضل اذا ما أخذت فى كل منظم . لكن ذلك يثير مشكلة : فالذات يمكن أن تنتظم فى أكثر من صورة ، والنسق المتكامل للحياة يمكن أن يختلف باختلاف الناس، بل انه قد يختلف مع الشخص الواحد باختلاف أحواله فقد أجد فعلامعينا يلائم البيئة التى أعيش فيها ثم فجأة تتغير هذه البيئة فيصبح نفس هذا الفعل غير قادر على تحقيق شخصيتى ، وهذه الأحوال المختلفة أو هذه الأنظمة المختلفة للذات هى ما أطلق عليه « ماكنزى » اسم « عوالم الرغبة » وهو يقول عنها : « كل رغبة تنتمى الى عالم خاص وتفقد معناها لو انتقلنا من هذا العالم الى عالم آخر ، وهذا العالم الذى تنتمى اليه الرغبة هو العالم الذى يتكون من مجموع ما نسميه بخلق الانسان وهذا الخلق يعبر عن نفسه فى الوقت الذى نشعر فيه بالرغبة . انه باختصار عالم النظرة الأخلاقية للانسان فى لحظة ما وهذا العالم يمكن أن يتغير فجأة عند الشخص الواحد عن طريق تحول فجائى للظروف التى يعيش فيها ، فأى تغير

فجائى كنبأ وفاة صديق ، أو تذكر موعد .. الخ يمكن أن ينقلنا فى الحال من عالم الى عالم آخر .. » . ومن هنا كانت الافعال التى تساعد البخيل - مثلا - فى زيادة ثروته يمكن أن تناسب نظامه أكثر من تلك الافعال التى تساعده فى تنمية المعرفة أو الفضيلة ، وقد تكون الحال مختلفة مع شخص آخر . والسؤال الذى يطرح نفسه الآن هو : هل يمكن أن يكون هناك **نظام مثالى** من بين هذه الأنظمة المختلفة للحياة تتحقق عن طريقه الذات المثالية .. ؟ قد يكون واضحا أن هذه الطرق المختلفة للحياة ليست كلها على مستوى أخلاقى واحد مهما كان المعيار الخلقى الذى نستخدمه : « والمعيار الخلقى الذى آخذ به وأعتبره صادقا هو الآتى : ان الذات الحقة هى تلك التى يمكن أن توصف حقا بأنها ذات عاقلة ، انها ذلك العالم الذى نشغله فى أعمق لحظات حياتنا حكمة وروية وبصيرة » .. ومعقولية النسق الذى يسير عليه السلوك لابد أن تدوم دوام قوانين المنطق ، واذا ما سار الفاعل وفقا لنسق آخر غير النسق العقلى فان هذا النسق الجديد لابد أن يكون وجها مؤقتا للذات ، اذ يمكن للذات أن تستبدل بالنظام العقلى أى نظام آخر فى اللحظة التى يغير فيها الفاعل وجهة نظره . وحين نقول ان فعلا من الأفعال أو أن النسق كله ليس الا نسقا مؤقتا ، فان ذلك يدل على أن هذا النسق ليس هو الكل المتكامل المثالى الذى ينبغى أن تتفق معه الافعال الارادية ، وقد لا يكون فى استطاعة المرء أن يسلك باستمرار سلوكا عقليا طوال حياته ، ومع ذلك يظل الاتساق العقلى هو المقياس . وكلما اقترب هذا السلوك من هذا المقياس ارتفع من وجهة النظر الاخلاقية ، لأن الفاعل حين يسلك سلوكا عقليا يعبر عن طبيعته الحقة ، ولا يمكن أن نسأل لماذا يجب على المرء أن يعبر عن طبيعته الحقيقية لأن احترام المرء لطبيعته هو السبب أو المبرر ، واذا كان من المشروع أن نسأل لماذا ينبغى علينا أن نطيع الله أو الدولة فانه لا معنى لسؤالنا عن السبب الذى من أجله يجب أن نحقق طبيعتنا .

الارادة والأخلاق ..

قلنا على الرغم من تعدد الأنظمة المختلفة للحياة فان هناك نظاما مثاليا يمكن أن يتحقق عن طريق الذات المثالية (وهى الذات العاقلة) . فالأخلاق تعنى السلوك تحت سيطرة العقل ، والفاعل بهذا السلوك يحقق ذاته الحقة . وليس معنى ذلك أن كل فعل ارادى لابد أن يكون فعلا أخلاقيا ، لأن الفعل الارادى ليس الا تحققا لذات الفاعل فحسب . لكن هناك بالطبع فرقا كبيرا بين الفاعل الذى يحقق ذاته فقط ، وبين الفاعل الذى يحقق ذاته المثالية . والمقصود بالذات المثالية هنا هو الذات العاقلة فكلما سار المرء فى أفعاله وفقا للعقل سما من

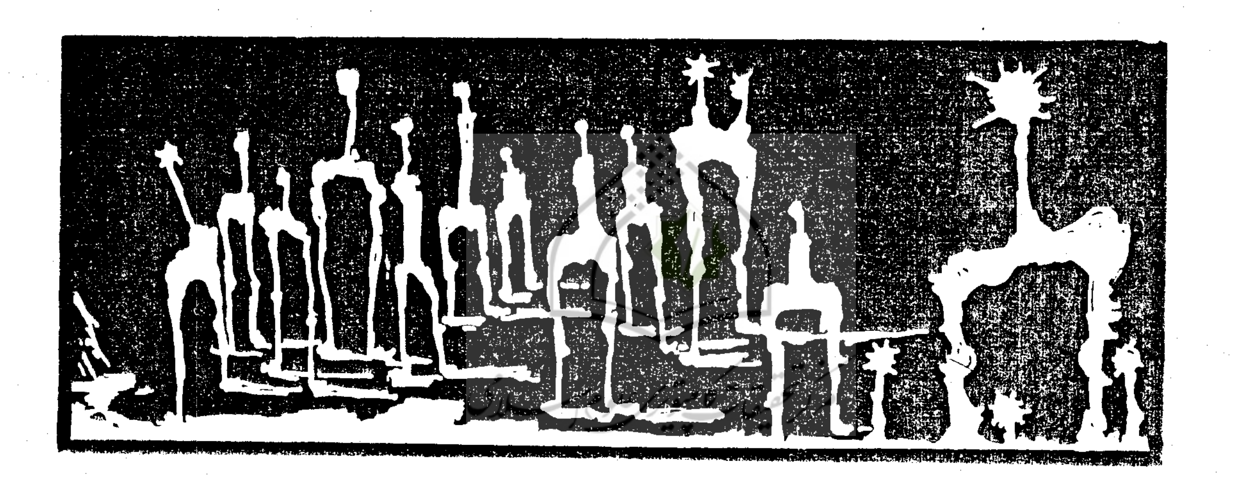
الناحية الاخلاقية ، لكن المرء يستطيع أن يسلك سلوكا اراديا حتى ولو كان هذا السلوك منافيا لمطالب العقل (وبالتالى منافيا لمبادىء الاخلاق) وهو فى هذه الحالة انما يعبر عن نفسه لحظة حدوث الفعل لكنه لا يعبر عن ذاته العليا ، والتغير الذى يحدثه سلوك ذلك الشخص قد يكون تغيرا الى الأسوأ لا الى الأفضل ولكنه يظل - مع ذلك - فعلا من أفعال الارادة .

والتباين بين الحالة الراهنة وبين فكرتى عن التغير قد تختلف فى درجتها اختلافا عظيما ، فقد تتسع الهوة بينهما وقد تضيق ، لكنها كلما اتسعت قوى الصراع واشتد وصعب المجهود الذى نحتفظ به بفكرة التغير فى الانتباه حتى يتحقق التغير المطلوب ، والصعوبة هنا سيكولوجية وليست فزيقية : « من السهل - فزيقيا - أن تتحاشى معركة أو أن تبدأها على حد سواء ، كما أنه من السهل أن تحتفظ بالمال أو تبعثره على ملذاتك الخاصة ، ومن السهل أيضا أن تطرق باب امرأة لعوب أو أن تبتعد عنه - جميع هذه الامور يسهل القيام بها على حد سواء لكن الصعوبة عقلية فهى تكمن فى الاحتفاظ بفكرة السلوك الاكثر حكمة لتظل فى ذهننا باستمرار .. » ويبدو أن اتساع الهوة بين فكرة التغير - لو جاءت مطابقة **للعقل** - وبين الوجود الفعلى لو كان هذا الوجود يشبع ميلنا **الطبيعى** - هذا الاتساع يزيد السلوك من الناحية **الاخلاقية** سموا ، ولهذا فقد تظهر هنا مشكلة أخلاقية هى : اذا كان صحيحا أنه كلما قوى المجهود الذى نحتفظ به بفكرة الواجب العقلى فى الانتباه ضد ميلنا الطبيعى - ارتفع السلوك من الناحية الاخلاقية : ألا ينتج من ذلك أن الشخص الذى تحول الواجب عنده الى مجرد عادة - وهو بذلك يلغى مقاومة الرغبة - لايسلك فى هذه الحالة سلوكا أخلاقيا لان الصراع بين الواجب والهوى قد اختفى أو قلت حدته .. ؟ قد يقال - كما قال « روس » - أن الفعل لا يقل فى خيريته كلما أصبح سهلا عن طريق العادة : « ان الخيرية لا تقاس بشدة الصراع وانما بقوة التكريس للواجب . فكلما كانت الدوافع التى تعارض فعل الخير قوية كنا على يقين بأن الاحساس بالواجب لابد أن يكون قويا ، لكنه قد يكون قويا أيضا حين تكون الدوافع المعارضة ضعيفة أو غير موجودة .. » ويمكن أن نوضح مايعنيه «روس» بقولنا ان الجيش القوى يظل قويا صادفته مقاومة أم لم تصادفه ، فالمقاومة - ان وجدت - لاتخدم الا فى اظهار مدى قوته ، لكنا اذا تساءلنا هل يستحق الجيش الثناء سواء برهن على قدرته فى لهيب المعركة أم لا ؟ » فأنا أميل الى رأى مخالف اذ يصعب على جدا أن أفهم كيف يمكن أن تظل القيمة الاخلاقية باقية كما هى سواء كانت المقاومة ضعيفة أم قوية ؟ واذا كان السلوك الخير يظل خيرا فهل تظل القيمة الاخلاقية التى تعزى الى هذا السلوك فى الظروف المختلفة هى هى .. ؟ هل نبدى نفس الاعجاب للرجل الفاضل الذى يعيش وسط اغراءات الغواية ولكنه يسلك مع ذلك سلوكا فاضلا ، والرجل الذى يسلك سلوكا

فاضلا دون أن تكون حوله غواية ولا اغراء يشدانه الى الاتجاه الخاطىء .. ؟

وعلى ذلك فكلما أصبح الفعل الاخلاقى سهلا عن طريق العادة ظلت سلامته الاخلاقية تامة غير منقوصة لكن **قيمته** الاخلاقية تتناقص بالتدريج مع تناقص الجهد المطلوب ، فالفعل الاخلاقى يكون كذلك بالقياس لما يبذل فيه من جهد أخلاقى ، ومن هنا كان الفعل الاخلاقى أشبه مايكون بالانتاج الفنى اعنى أنه نوع من الخلق : فاذا ما تكرر الفعل حتى أصبح عادة فان الخالق الحقيقى فى هذه الحالة يعزى للافعال الاولى فى السلسلة بينما لاتكون الافعال التالية سوى «تقليد» أو محاكاة ، صحيح أن الافعال التالية لها نفس

من خلالها ذاته المثالية ويعبر عنها ـ فسوف يتضح لنا الفرق بين الارادة والفكر : ففى الارادة لابد أن تخرج الفكرة من حدودها العقلية بحيث تتحقق فى الوجود ، بينما نجد أن الفكر ـ على الرغم من أنه يطور نفسه فى سلسلة ـ فانه مع ذلك قد لايتحقق . ومن ناحية أخرى نجد أن الفكرة فى حالة الارادة لابد أن تحتوى على توقع للنتيجة ، بينمانجد فى حالة الفكر أن النتيجة ليست متوقعة . واذا أردنا أن نضرب مثلا لذلك فلنأخذ « جمهورية أفلاطون » لنجد أنها فكرة وليست ارادة ، صحيح أن الفكرة فيها تتطور لكنها لاتتحقق ، وحتى لو أنها تحققت عن طريق شخص ما أو عن طريق أفلاطون نفسه لما كانت ارادة أيضا ، لانها لاتكون ارادة الا اذا تحققت الفكرة وجاء تحققها هذا من داخل



شكل الفعل الاول لكنها ينقصها الماهية التى تجعلها فعلا أخلاقيا حقيقيا : **ذلك الجهد الذى يبقى المثل الاعلى فى الانتباه ويطرد الرغبة** ، فكل فعل ينبغى النظر اليه كشيء عينى يدرس ويحكم عليه بذاته ، وخيرية الرجل الفاضل لاتقل اذا حكمنا عليه بأنه خير بناء على أفعاله الاولى تلك التى كان فيها صراع وجهد .

الارادة والفكر ...

اذا نظرنا الى الارادة على أنها تحقق لفكرة الوجود المتغير داخليا أو خارجيا ـ وهى الفكرة التى يحقق الفاعل

مضمونها نفسه بحيث تحقق وجودها الخاص ، وفضلا عن ذلك فان الفكرة المنتبه اليها فى حالة الارادة لابد أن تكون فكرة تغير ينصب على الوجود ، بينما الفكرة فى حالة التفكير قد تكون انعكاسا للوجود كما هو بالفعل أو كما ينبغى أن يكون . لكن الارادة فى النهاية تعتمد على التفكير فالفكر يفكر والارادة تتحقق ، وفعل الارادة لايمكن أن يكون له وجود ما لم تسبقه فكرة ما والافكار بالطبع هى من طبيعة الفكر .

الارادة والمعرفة ...

يمكن أن نوضح العلاقة بين الارادة والمعرفة اذا قلنا

ان الارادة تتضمن المعرفة لكن المعرفة لاتتضمن الارادة . صحيح أن المعرفة تتضمن تقريرا والتقرير فعل »، لكن ليس كل فعل مثلا للارادة . ان الفعل هو الاساس لكل واقعة سيكولوجية لكنه يصبح فعلا اراديا اذا ما اتسم بالخصائص التى سبق أن ذكرناها ، وأى موقف يمكن معرفته اذا ما وجد الفكر لا الارادة ، والعبقرية العقلية لاتتناقض مع انحطاط الحياة الاخلاقية لكن العكس غير صحيح »، أعنى أن الامتياز الاخلاقي العظيم يتضمن بالضرورة بصيرة عقلية عليا. وكثيرا ما يقال ان القديس قد لا يكون ممتازا عن الناحية العقلية فهو لا يحتاج الى عبقرية عالم الرياضة أو الفيلسوف لكن ذلك لايبرهن الا على أن الامتياز العملى فى مجال معين لايتضمن بالضرورة القدرة العقلية اللازمة لمجال آخر. ولسنا نزعم أن الخير العملى أو السمو الخلقى يتضمن القدرة الرياضية ، وانما نقول فحسب ان الفضيلة تتضمن فى كل حالة درجة معينة من البصيرة وهى طبيعة المعرفة على الرغم من أنها لا هى نظرية ولا هى علمية ، وما لم تكن الفضيلة محصلة هذه البصيرة فسوف تكون أمرا من أمور المصادفة والاتفاق »، وسوف يكون من الممكن أن يرتكب الفاعل الشر بدلا من أن يفعل الخير دون أدنى فرق فى موقفه الاخلاقى .» غير أننا نقول ان الارتباط ضرورى بين المعرفة والارادة فان ذلك لايعنى أنهما متحدان في هوية واحدة : فالنزوع ليس هو المعرفة على الرغم من أنهما يرتبطان برباط لاينفصم ، والعلاقة بين المعرفة والارادة هى علاقة التواجد معا ، لكنها ليست علاقة الهوية .

وهناك فارق آخر بين المعرفة والارادة : فالفاعل — فى حالة الارادة — يوجد نفسه مع الفكرة التى يختارها ، بينما نجده لا يفعل ذلك فى حالة المعرفة ؟ لاننى فى الحالة الأخيرة أما أن أثبت أو أنفى لكنى فى حالة الارادة **اختار « أ » واستبعد « ب »** ! ذلك لاننى أجد أن « أ » **تعبر عن شخصيتى** فى لحظة السلوك أفضل من « ب » وحين اصدر حكما أظل محايدا لكل من البديلين ، أما فى حالة الارادة فاننى اختار وأوحد بين شخصيتى وبين أحدهما لأنه يعبر عن ذاتى أكثر من الاخر : « قل لى ما هى الأفعال الارادية التى حققتها طوال حياتك ، وأنا أستطيع — يقينا — أن أقول لك أى نمط من الناس أنت — لكنك لو ذكرت لى ما أصدرته من أحكام طوال حياتك لكان من الصعب على أن أغوص فى شخصيتك لكى اكشف عن الجوانب الخبيئة منها . ومن هنا فان حياة القديس تبرز أكثر بكثير مما تبرزها نظريات عالم الرياضة ! ففى استطاعتك أن تعرف من خلال دراستك لنسق رياضى الى أى حد أصاب عالم الرياضة أو اخطأ فى هذا النسق : لكنك لن تستطيع أبدا أن تعرف هل كان خيرا أم شرا .. »

لننظر الآن الى الارادة كما عرفناها : الارداة هى فعل من أفعال الانتباه الى فكرة تغير الوجود حتى تحقق هذه الفكرة نفسها وبهذه الطريقة يعبر الفاعل عن ذات نفسه : «أفرض انى أردت ان تكون الاشتراكية نظاما للحكم في بلادى (كتب هذا عام ١٩٤٧ !) اننى فى هذه الحالة أحتفظ بفكرة تغيير الأوضاع الرأسمالية والاقطاعية الحالية »، بحيث تبدأ الفكرة فى تطوير نفسها من الغاية الى الوسيلة حتى أصل الى الوسيلة التى آخذ بها هنا والآن . ولتكن هذه الوسائل القريبة — مثلا — كتابة وطبع نشرات وكتيبات صغيرة تحوى مبادىء الاشتراكية وأسسها وفوائد تطبيقها .. الخ ثم تتلو هذه الخطوة خطوة ثانية وثالثة ..... وهكذا أظل أسير فى خطوات مرسومة ان أردت لفعلى الارادى أن يتحقق حتى يتولى أحد الاشتراكيين السلطة . وهذه السلسلة من الأحداث تشكل فعلا اراديا واحدا . والخطوة الأولى فيها هى الانتباه الى فكرة تغيير الوضع الحالى ، فهل تستطيع أن تجد فى هذه السلسلة نفس العلاقات التى يمكن أن تعبر عنها فى شكل معادلة ....؟

وخذ الآن فعل الانتباه الذى يعتبر الخطوة الاساسية فى العملية بأسرها ! فما الذى يعينه الارتباط السببى هنا..؟ هل يعنى أنه حدث لى مرات عديدة طوال حياتى أن فعلت فعلا معينا كتناول طعام معين أو قراءة كتاب معين أو حركت جسمى بطريقة معينة وأنه فى كل حالة من هذه الحالات كان هذا الفعل يتبعه الانتباه الى فكرة ادخال النظام الاشتراكى في بلادى ...؟ هل يعنى أن شيئا معينا حدث فى العالم الخارجى « وجذب » انتباهى الى الفكرة ، وانه قد لوحظ دائما أن مثل هذا الحدث يتبعه باستمرار الانتباه الى فكرة تغيير الأوضاع الاجتماعية فى بلادى بهذه الطريقة المحددة .. ؟ أم أن هناك شيئا فى تركيب جسمى — كعملية الهضم مثلا أو دقات القلب — ظهر من الخبرات الماضية أنه يعقبها باستمرار انتباهى الى مثل هذه الفكرة .. ؟ لابد لى أن أعترف أننى لا أستطيع على الاطلاق أن أرى أى نوع من أنواع التتابع السببى بين حدث — معين — عقلى أو فزيقى — كمتقدم ، وبين انتباهى الى فكرة التغيير الارادى كنتيجة لهذا المقدم — ومع ذلك كله دعنا نسلم بهذا الفرض المستحيل وهو أنه حدث لى مرات عديدة طوال حياتى أن انتبهت الى فكرة جعل بلادى دولة اشتراكية وأن الفكرة قد تحققت فى كل مرة ادعنا نفترض هذا الفرض المحال ! فهل نستطيع أن نسلم بالاضافة الى ذلك ان المقدم وهو الأوضاع الراهنة التى لا بد أن تكون على الأقل فى جانب منها عقلية — كانت دائما واحدة .. ؟ ليس هناك أفضل للاجابة على هذا السؤال من أن نقول مع « برجسون » ! « أنه لما كان من شأن الماضى أن يظل حيا باقيا فى الحاضر ، فأنه من المحال على الشعور أن يمر بنفس الحالة مرتين ! ذلك لأنه مهما كانت الظروف متشابهة ، بل حتى اذا ما كانت الملابسات واحدة »، فانها لا تؤثر مطلقا على نفس الشخص ذاته ، ما دامت تعرض له فى لحظة جديدة تاريخه . ولما كانت شخصيتنا في تكون

مستمر لأنها تبنى ذاتها فى كل لحظة مستعينة بما تجمع لديها من تجارب ، فان شخصيتنا تتغير باستمرار ، وهى اذ تتغير بدون انقطاع ، فانها تحول دون أن تتكرر فى أعماق ذواتنا حالة نفسية واحدة بعينها حتى ولو بدت تلك الحالة فى الظاهر حالة واحدة بعينها .. »

اللاجبرية الخالصة ...

اذا كنا قد رفضنا المذهب الجبرى باعتباره مذهبا لا يقوم على أساس سليم ، فاننا نرفض لنفس السبب مذهب اللاجبرية الخالصة ! « وأنا أعنى بمذهب اللاجبرية الخالصة تلك النظرية التى ترى أنه ليس ثمة شيء فى طبيعة « س » - أو فى طبائع الأشياء التى ترتبط بها - يلزم « س » أن تكون لها الخاصية « ب » فى اللحظة « ت » . وبناء على هذه النظرية فان « س » يمكن أن تكون أى شيء فى أية لحظة دون أن يكون هناك أرتباط على الاطلاق بين الحاضر من ناحية وبين الماضي والمستقبل من ناحية اخرى .. » والواقع أن هذا المذهب ينتهى الى نتائج غريبة اذا ما طبق على السلوك البشرى : فهو يرى أن الفاعل حين يسلك سلوكا معينا فانه لا يكون مقيدا فى فعله هذا بأى شيء داخليا كان أم خارجيا : « فهو لا يسلك سلوكه هذا لانه يحقق أعلى رغبة من رغباته ، ولا لأنه يجلب أعظم قدر من السعادة لأكبر عدد من الناس ، ولا لأنه صادر عن سلطة الواجب الداخلية ، وهو ليس مقيدا فى فعله بتركيبه الجسمى أو العقلى أو الوراثة أو البيئة التى نشأ فيها ! انه باختصار شديد يفعل « أ » بلا سبب . فليست هناك مقدمات من أى نوع تضطره أن يفعل « أ » ويستبعدالبدائل الاخرى ، فهو لايرتبط بغايةتغريه بهذا السلوك ولابمقدمات تضطره اليه ! ان فعله هو ببساطة مجرد صدفة » ومثل هذه اللاجبرية الخالصة أو حرية اللامبالاة تعنى ببساطة العشوائية التى هى سلب للعقل والقانون ، فكل شيء ممكن ولا شيء مستحيل ، ولن يكون هناك شيء مؤكد فى حياة الانسان لأن الرجل الفاضل قد ينقلب فجأة الى رجل سيء السلوك ، ومن ثم فكل محاولات المربى تصبح بغير جدوى . واذا كانت الحرية تعنى انعدام القيود ، فان الحرية المطلقة لابد أن تعنى أن تكون حرا من جميع القيود : أن تتحرر من الاشياء الخارجية ومن الطبيعة ، ومن الناس من حولك ومن القانون ، ومن العقل ومن الوراثة ، لكنك من ناحية أخرى لو تحررت من كل شيء لكان معنى ذلك أنك لاشيء ، فاللاشيء أو العدم هو وحده الحر حرية مطلقة : الحرية المطلقة هى العدم المجرد ، ومن هنا فاذا كان الانسان بالموت يتوقف عن أن يكون شيئا ، فانه - بالموت أيضا ، يكون لأول مرة حرا حرية مطلقة لأنه سيصبح ! لا شيء .

المسئولية الخلقية وحرية اللامبالاة

ولا شيء يهدم المسئولية الخلقية كما تهدمها حرية اللامبالاة ، لان الفاعل حين يسلك سلوكا معينا فانه يفعله كما قلنا بلا سبب وبلا هدف ومن ثم فهو غير ملتزم به . لكن قد يقال « انه يكون غير ملتزم قبل الفعل لا بعده » لكن ذلك ليس الا مراوغة لاتجدى لان الفعل لايصف الذات بأية صفة على الاطلاق . واللاجبرية المطلقة تعنى أن السلوك الذى أسلكه فى لحظة معينة لا يرتبط على الاطلاق بما حدث فى الماضى ، اذ لو كانت هناك رابطة بين الماضى والحاضر لكان معنى ذلك أن الفعل - جزئيا أو كليا - يرتبط بمقدمات معينة ! لكن القول بأننى فى كل لحظة شخص جديد تصدر عنى أفعالى فى استقلال كامل عن ماضى - فهو يؤدى الى هدم الهوية ويعفينى بالتالى من المسئولية والهوية لاتعنى شيئا سوى التشابه الذاتى مع التباين فى آن معا ، وما لم نتصور أن الفاعل هو هو مع بعض الفروق فاننا لن نستطيع أن نحمل عليه أية صفة على الاطلاق . يقول « برادلى » : « ان اسم شخص ما هو اسم لفرد معين يبقى موجودا وسط التغيرات الجزئية » . فوجود الفاعل لايعنى مجرد تتابع لحظات جزئية لكنه يعنى هوية تجاوز اللحظات الجزئية : « لانه ما لم يكن الشخص متميزا فسوف يصعب أن يكون له اسم خاص يعتمد على بقائه هو نفسه وسط التغيرات ، ونحن لانستطيع أن ندرك شيئا ما لم تكن له خاصية معينة أو مجموعة من الخصائص نستطيع من وقت لآخر أن نوحد بينها ، فالفرد يبقى هو نفسه وسط تغير الظاهر ، وهذا يعنى أن له هوية حقيقية » . ووجود الهوية مرتبط بالمسئولية لانك حين تقول عن شخص ما انه مسئول عن أفعاله فانك تعنى أنه يظل فى هوية مع نفسه فى الماضي والحاضر ، واذا ما بقى الفرد فى هوية مع نفسه فى لحظتين مختلفتين - اذا كان غدا هو نفسه بهويته الحاضرة - فلا شك أن هناك أرتباطا بين الماضى والمستقبل ، أى انه سيكون مقيدا فى سلوكه غدا بما هو عليه الآن . ومن هنا فان مذهب اللاجبرية الخالصة يتناقض مع المسئولية الخلقية لأنه ما لم يكن هناك ارتباط بين اللحظات المتتالية فى حياة الانسان فسيكون من الخلف أن ننسب اليه مسئولية خلقية فى لحظة ما عما فعله فى لحظة سابقة » ان الشرط الأول لامكان ان أكون مذنبا أو غير مذنب أعنى أن أصبح موضوعا لحكم أخلاقى أيا كان نوعه - هو التشابه الذاتى : لان أكون أنا نفسى باستمرارشخصا واحدا فى هوية ذاتية مع نفسى .. »

الجبر الذاتى ...

من ذلك يتضح أن الجبرية التامة ، واللاجبرية

الخالصة مذهبان خاطئان : فأحدهما يزعم أن لكل شيء سببا وينتهى الى انكار حرية الارادة ، بينما يفترض الآخر الحرية كحقيقة مقررة وينكر أن يكون للارادة سبب . وقد يجوز أن يكون كل مذهب منهما محق فيما يؤكده مخطيء فيما يذكره أعنى أنه من الممكن أن يكون للارادة سبب وأن يكون هذا السبب نفسه مع ذلك حر : والقول بأن الارادة مشروطة وحرة فى آن معا هى مانعنيه **«بالجبر الذاتى»** فالافعال الارادية ترتبط ارتباطا سببيا بمقدمات معينة تقوم فى طبيعة تكوين الفاعل نفسه مادامت هذه الافعال تعبر عن طبيعة الفاعل وتحقق ذاته ، وهى فى نفس الوقت حرة لانها ليست نتاجا ضروريا لشيء آخر خارج طبيعة الفاعل نفسه ، فبمقدار مايكون الفاعل مكتف بذاته فى تفسير الفعل الارادى فهو حر الى هذا الحد فى هذا الفعل وهو بانجازه له على هذا النحو يكون محددا بذاته أو مجبرا ذاتيا .

الواقع قضايا تحليلية لا يضيف فيها المحمول الى الموضوع شيئا جديدا حتى أنه ليمكن منطقيا استنباط الموضوع من المحمول بينما القضايا التى يذكرها الثانى قضايا تركيبية حتى أننا نجد أن التحليل الكامل للموضوع لايؤدى الى استخراج المحمول منه : القضاياالاولى أولية يمكن معرفتها بمعزل عن التجربة ، أما الثانية فهى بعدية لايمكن معرفتها الا عن طريق التجربة وحدها .

لكن ألا توجد حلقة وسطى بين الميتافيزيقى والتصور التجريبى للسببية بحيث تشكل تصورا ثالثا .. ؟ هناك بالفعل خطوة وسط ! ففى حين أن المقدم فى السببية الميتافيزيقية ضرورى وكافى ، وفى السببية التجريبية لا هو ضرورى ولا كاف فهو في هذا التصور الثالث : **تصور ضرورى لكنه ليس كافيا .**

نوعان من السببية ...

«كلمة «سبب» اما أنها تعنى مقدما ضروريا أو مقدما ضروريا وكافيا فى آن واحد . والسبب الضرورى هو شيء اذا تحقق جعل تحقق النتيجة ممكنا ، أعنى أن « النتيجة » لا يمكن أن تتحقق دون أن يسبقها السبب فى حين أنه يمكن التفكير فى السبب مستقلا عنها . لكن السبب الضرورى والكافى هو شيء ، اذا تحقق جعل تحقق « **النتيجة ضروريا ولازما** » ، وفى هذه الحالة لايمكن التفكير في أى من الحدين بمعزل عن الآخر لأن العلاقة بين الاثنين مطلقة ، وهذه العلاقة المطلقة هى ماتسمى عادة بالسببية الميتافيزيقيةالتى نجد فيها أن الترابط الضرورى بين السبب والنتيجة يمكن معرفته معرفة أولية عن طريق تحليل التصورات أى أن معرفته لا تتوقف على التجربة التى لا تكشف الا عن العلاقات العرضية وحدها . وهذه السببية الميتافيزيقية فضلا عن أنها تعنى ضرورة العلاقة بين السبب والنتيجة ـ تتضمن وحدة كامنة وراء ثنائيتهما : « حين لا نستطيع تصور السبب بدون النتيجة ، أوحين تتضمن ماهية السبب ماهية النتيجة . عندئذلايصبحالتصوران بعدذلك اثنينلكنهما يمتزجان فى تصور واحد ، وفي هذه الحالة يصبح السبب ضروريا للنتيجة والنتيجة ضرورية للسبب ومن ثم تصبح النتيجة فى هوية واحدة مع السبب والعكس صحيح أيضا .. » . أما التصور التجريبى للسببية فهو عكس هذا التصور الميتافيزيقى : فبدلا من الرابطة الضرورية بين السبب والنتيجة نجد أن العلاقة بينهما حادثة أو عرضية تماما . واذا كان التصور الميتافزيقى يميل نحو الوحدة الكامنة وراء الكثرة ، فان التصور التجريبى يتجه نحو الكثرة . الأول يهتم بهوية السبب والنتيجة والثانى يهتم بالتتابع البسيط ، والقضايا التى يصدرها الأول عن

شخصية الفاعل هى التصور الثالث ..

سبق أن ذكرنا أن الارادة يمكن أن تحلل الى الانتباه الى فكرة التفسير بشرط أن يتحقق وفقا لمضمونه الفكرة وبنشاط الفاعل نفسه على نحو يشعر معه أنه يحقق ذاته فى هذا الفعل . ورأينا أن الفرد المنتبه لمثل هذه الفكرة يكون نشطا أعنى أنه يوجه نفسه ويتميز عن ذلك الذى يوجه غيره ؟ وحين ينتبه الفاعل الى فكرة التغير يحددنفسه لانه قبل فعل الانتباه لم يكن ثمة شيء يؤثر فيه بحيث يجعله ينتبه الى هذه الفكرة الجزئية فتلك هى **الوظيفة الاساسية لفرديته العينية** . ومعنى ذلك أن العملية التى تبدأ من الانتباه الى فكرة معينة وتنتهى بتحقق هذه الفكرة مشروطة بشخصية الفاعل لكن العلاقة هنا بين الشرط والمشروط تجعل من الممكن تصور الاول بدون الثانى ، على الرغم من أن الثانى لايمكن تصوره بدون الاول فالعلاقة بين شخصية الفاعل وفعله الارادى ليست هى نفسها العلاقة بين المثلث وخواصه : كلا : ولا هى كالعلاقة السببية بين الجدار وبياضه ، لكنها علاقة من نوع خاص : **فهى تعنى أنه بدون هذه الشخصية العينية للفرد لايمكن أن يصدر على الاطلاق مثل هذا الفعل الارادى ، لكن هذه الشخصية العينية نفسها يمكن أن توجد دون أن يكونهذا الفعل الارادى نتيجة ضرورية لها .** وواضح أن معنىالارادة هنا يختلف عن معناها عند «اسبنوزا» الذى يرى أنالارادة «حالة معينة من حالات الفكر فحسب» بينما الارادة هنا تعنى العملية كلها التى تبدأ من «حالة معينة من حالات الفكر» وتنتهى بالتحقق الكامل لمضمون هذه الحالة . وواضح أيضا أن اهتمامنا ينصب على الارادة بوصفهانتيجة أكثر منها سببا ، فهى بوصفها نتيجة سببها شخصيةالفاعل ـ **حرة** ، بمعنى أن شخصية الفاعل التى هى سبب الارادة

ضرورية لكنها ليست كافيــة »، أعنى أنه اذا كان الفعـل المراد لايمكن تصوره بدون سببه ، فان هذا السبب نفسه يمكن تصوره دون أن يستتبع ذلك بالضرورة الفعل المراد. ومعنى ذلك أن السلوك الارادى هو النتيجة الممكنة ــ لا الضرورية ــ لسبب ضرورى وهذا السبب الضرورى نفسه ليس كافيا أعنى أنه يمكن تصوره دون تصور النتيجة لكن العكس غير صحيح .

التنبؤ تناقض فى الالفاظ ..

الحرية التى ندافع عنها هى حرية الخلق ، حـــرية الانبثاق من الماضى المتراكم الى الجدة التى لايمكن التنبؤ بها انما ننتبه باستمرار ونختار دائما فعلا معينا نعبر به عن أنفسنا ، وكما يقول «برجسون» فى عبارة مشهورة اننــا ننتفخ بماضينا مثل كرة الثلج التى تتضخم حين تتدحرج ويلتف الجليد حولها ، ففى كل لحظة من لحظات حياتنا ننتقى شيئا معينا من الموضوعات الممكنة التى نجدها أمامنا ونحن بانتقائنا لهذا الموضوع نحقق أنفسنا . وحين ننظر الى الوراء الى أفعالنا التى حققناها يبدو كل منها على انه مقيد بالفعل الذى سـبقه ولهـذا ننظر الى سلسلة المقدمات والنتائج كما لو كانت شيئا غريبا عنا ، وهـكذا نظن أن كل مقدم قد فرض علينا فرضا ضروريا من الخارج؛ لكن الواقع أننا أنفسنا هذا الماضى ، ونحن نحقق كل فعل من افعالنا فى لحظته بحـرية . أما حين ننظر الى أفعالنا الماضية على أنها «أحداث مضت» فاننا فى هذه الحالة ننظر اليها من الخارج لا من الداخل أعنى كمتفرجين لا كفاعلين. وذلك يشبه بالضبط النظر الى قصيدة من القصائد بمعزل عن النشاط الخالق الذى تتضمنه هذه القصيدة ، أعنى النظر اليها كبناء لغوى مكون من مجموعة من الكلمات . ان كل لحظة فى تاريخ شخصية الانسان هى شىء جـديد يضاف الى ماهو موجـود بالفعل ، كل لحظـة في حيـاة الانسان ــ لاسيما أفعاله الارادية ــ تشبه انتاج الفنان الذى لايستطيع أى فرد حتى ولا الفنان نفسه ــ فيما يتعلق بتفصيلات الانتاج ، أن يتنبأ بشكلها الدقيق : «لان التنبؤ يعنى انتاجها قبل أن تنتج ــ وهو فرض محـال، لانه يهدم نفسه بنفسه» وسلوك الانسان لايمكن التنبؤ به لان شخصيته ليست شيئا ثابتا محددا الى الابد : والا فأين يمكن ياترى أن نجد تلك اللحظة التى نستطيع أن نقول ان شخصية الفرد سوف تتوقف عنـدها من الآن فصاعدا .. ؟ لاوجود لمثل هذه اللحظة لان شخصية الفرد تظل فى حالة تكوين مستمر طوال حياته ، وهذا هو السبب فى أن فرديته لاتكتمل أبدا ،، ومعـرفة شخصية انســان ما تعنى معرفة حياته كلها ، ومن هنا فانك لن تستطيع أن تستخدم معلوماتك عن **شخصيته كمعطيات تستدل منها** مستقبله لانـه فى اللحظـة التى تعرف فيها **كل شىء** عن شخصية الفرد بحيث لايمكن أن ينضاف اليها جـديد فان هذا الفرد لن يستمر بعد ذلك فى الوجود : «هل يستطيع أحد أن يؤكد أنه من الممكن ــ حتى من الناحية العقلية ــ أن يتنبأ بأنه هو نفسه ــ دع عنك ان يتنبأ لغيره ــ سوف يفكر فى كذا وكذا ، وسـوف يفعل كيت وكيت فى الاسبوع القادم .. ؟ ان القيام بمثل هذا التنبؤ لابد ان يستغرق أسـبوعا كاملا لانك لن تستطيع أن تحـذف أية فكرة أو أى سلوك يتم خلال هذا الاسبوع ولايمكن لمعدل السير أن يزيد ما لم تكن هناك زيادة مماثلة فى سرعة العالم كله . ولهذا فسوف نجد انفسنا بالضبط حيث كنا من قبل . ومن هنا فان ما يسمى بالتنبؤ لابد أن يكون بعد وقوع الحدث » .. ومعنى ذلك اننا لانستطيع أن نعـرف شيئا الا اذا كان واقعة تامة ومنتهية . وحين نعرف كل شىء عن واقعـة ما فليس ثمة فارق في هـذه الحالة بين الماضى والحاضر والمستقبل ذلك لان المـاضى والمـستقبل يمكن ادراكهما فى الحاضر ، وهنا يمكن ان يوجد المستقبل وان يتنبأ به لكن **لا** على أساس أنه لم يحـدث حتى الآن وســوف يحدث فيما بعـد لكن على أسـاس أنه موجود بالفعـل ــ أعنى ان ذلك **لا** يمكن أن يحدث **الا** اذا كانت الواقعة التى نتحدث عنهـا تامة وكاملة . اما فى الافعال الارادية فاننـا نفس عادية اننا **لا** نسـتطيع أن نعـرف المقدمات دون أن نعرف الفعل الاخير وهو الشىء الوحيـد الذى ليس معروفا بعد . والواقع انه حتى اذا ما تيسر لنا فى ظروف معينة أن نصدر حكما احتماليا على سلوك شخص فى المستقبل فاننا فى هــذه الحالة **لا** نتنبأ بما سيقدم عليه في المستقبل من أفعـال ، وانما نحن نصـدر حكما معينا على شخصيته الحـاضرة او بعبارة أصـح **على ماضيه** . وقد يكون فى استطاعتنا ان نقول عن بعض الأفعال انها تلائم طبيعة ذلك الشخص ، وعن أفعال أخرى انها لا يمكن أن تلائم طبيعته . لكن القول بوجـود ضرب من التوافق او التنافر بين سلوك معين وشخصية معينة لا يعنى اننا قد استطعنا أن نربط مستقبل ذلك الشخص بحاضره ربطا قويا محكما . وليس من شك أن هناك فرقا شاسعا بين الاستنتاج الاحتمالى والتنبؤ اليقينى القاطع .

اننا نستطيع ان نتنبأ بواقعة من وقائع الطبيعة (كما هى الحـال مثـلا فى علم الفلك) لان الوقائع توجـد فى الزمان ، والزمان هنــا لا فرق فيه بين اللحظـة الاولى واللحظة الاخيـرة . بنما الفعـل **يحتاج الى ديمومة** ولا يمكن ان تقتطع منه لحظة واحـدة دون أن تغير من طبيعة الفعل . ومن هنا فاننا نستطيع أن ننظر الى ماضينا على انه واقعة من الوقائع الموجـودة فى الزمان ، ولهـذا يمكن استرجاعه كله فى لحظة واحدة . اما مستقبلنا فهو فعـل لا يمكن ان يعيش فى الخيال اقل من ديمومته الضرورية . والمثـل الذى يقول : « لا تحـكم على شخص ما حتى يسلك » مثل صحيح **لانه الشخص هنا فاعل يسلك سلوكا**

معينا فيتحقق ذاته فى هذا السلوك . أما اذا نظرنا الى هذا الشخص على أنه **واقعة** فلن نجـد ما يدعونا الى الانتظار حتى يسلك سلوكا معينا : لسنا فى حاجة ـ مثلا ـ الى أن ننتظر حتى يسلك لكى نقول أنه ولد من أبوين معينين ، أو فى التاريخ الفلانى ، **أو** البلد الفلانى .. الخ فهـذه كلهـا وقائع يمكن أن تستخدم في الاحصاء والحسـاب مثلها مثـل جمع تلك الوقائع الموجـودة فى الطبيعة ، لكن الفعل ـ أعنى فعل الارادة ـ فهو شىء مختلف عن ذلك أتم الاختلاف .

حرية الجبر الذاتى ...

يتضح من ذلك كلـه أن حرية الجبر الذاتى التى ننسبها للانسان لا تشمل كل ما يتعلق بوجوده وسلوكه ، فمن الطبيعى ألا نتحدث عن وجوده الذى بدونه لا يمكن أن يكون لا حرا ولا مجبرا لأن أى صفة تنسب اليه لابد أن يسبقها التسليم بأن الانسان موجود ، **فوجوده شرط سابق لحريته** .

لكن هـل حركات الانسان وأفعاله **كلها** حرة .. ؟ لا يجمل بنا هنا أن نلاحظ أن حركات الجسم البشرى يمكن أن تنقسم الى فئتين نطلق عليهما : « الحركات الآلية » و « الحركات الحيوية » . والأولى يمثلهـا حركة رجـل يسقط من صخرة ناتئة على شاطىء البحر فيهوى فى الماء ، فلتفسير سقوطه هذا لا يلزمنا أن نفترض أن الرجل كائن حى لانه يسقط بفعل الجاذبية كما يسقط الحجر ، أمـا حين يصعـد الرجل قمة الجبـل فانه عندئذ يفعل ما لا تستطيع أن تفعله مادة ميتة تشبهه شكلا وحجما فهـذه اذن حركة حيوية . ومن المسلم به أن جميع حركات الجسم البشرى لا ترتبط بهـذا الجسم الا من حيث ما تلعبه طبيعة أى جسم مادى آخر فى تحديد سلسلة الحوادث التى يتعرض لها . ومن ناحية أخرى فان جميع الظواهر « الحيوية » للجسم البشرى التى يهتم بها عالم الكيميـاء او الحياة أو وظائف الأعضاء تحددها طبيعة الكائن الحى بأوسع معنى لهذه الكلمة بمعنى أن أى كائن حى مكون على نحو يجعله يعمل بطريقة مناسبة فى جميع الظروف .

يبقى أمامنا بعـد ذلك الجانب السيكولوجى ، وفى هذا الجانب نجد أن الأفعال الارادية وحدها هى الأفعال الحرة بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة : « وانك لتجد من الجبريين أنفسهم من يسلم بأن الموجودات البشرية هى الاستثناء الوحيـد للمبـدأ الجبرى الذى يسـود جميع المجالات ، وأن خصائص الارادة هى وحدها المستثناة ». وعملية الارادة تبدأ من الانتباه الى فكرة معينة عن تغير ما وتنتهى بالتحقق الكامل لهذه الفـكرة ، واذا نقص شىء فى هذه العملية المتكاملة لا تسمى ارادة . ولكن اذا ما تمت العملية وتحقق التغير فـلا بد أن تكون حرة على الاقـل بالمعنى السلبى للحرية الذى يعنى انعـدام القهر الخارجى » والواقع أن عبارة « الارادة المجبرة » عبارة متناقضـة لان الارادة لاتكون كـذلك الا اذا تمت العملية حتى نهايتها . والحق أن كلمتى « الحرية » و « الارادة » ليستا الا الاسم السلبى والاسم الايجابى لخاصية واحـدة هى خاصية الفعل الذى نحقق به أغراضنا فى عالم الواقع. « فأنا أريد » حين يكون سـلوكى الخارجى **معبرا عن ذاتى** وفى هـذه الحالة نفسهـا **أكون حرا** . ومن هنا كانت **الارادة والحرية شيئا واحـدا** ، لان الارادة التى نقـول عنها انها « ليست حرة » لابد أن تكون ارادة لا تترجم هدفى الخاص الى عالم الواقـع ، وبالتالى فهى ليست ارادة على الاطلاق » ومن ثم فالسـؤال : هل نحن احرار .؟ يمكن أن يكون أكثر وضوحا لو وضـع في صيغة مسـاوية فقلنا : هل أردنا شيئا قط .. ؟ واذا ما وضـع السؤال على هذا النحو فسوف تتولى التجربة والخبرة الاجابة عنـه اجابة مباشرة » اذ لا شـك أنه كانت لدينا أغراض معينة فى حياتنا ، ولا شك أيضا أننا ترجمنا هذه الأغراض الى سلوك ، ومن هنا « فان الحرية ـ يقينا ـ واقعة من وقائع الخبرة المباشرة » واذا ما أراد شخص على الاطلاق فان ارادته لابد أن تكون حرة لان الارادة هى التحقـق الفعلى لفكرة تغير يراد اظهـاره الى الوجـود . وحين تتحقق الفكرة بالفعل فلا معنى لقولنا انها مجبرة جبرا خارجيا . لكن الحرية ـ من ناحية أخرى ـ التى ننسبها هنا للفاعل ليست هى الحرية التى تعنى انعدام القانون أو الخضـوع العشـوائية لكنها حـرية الجبر الذاتى التى تربط الفعل المراد بسببه . وشخصية الفاعل هى السبب الضرورى ـ وان لم تكن السبب الكافى ـ للفعل المراد . وبعبارة أخرى ! الفعـل المراد هو كما سـبق أن ذكرنا النتيجة الممكنة ـ لا الضرورية ـ لشخصية الفاعل ومن ثم حرية الفاعل . والشخصية ليست نتاجا تاما وكاملا وليسـت تصورا مجردا يمكن أن تكون طبيعته محددة مرة واحـدة والى الابد » لكنها شىء حى متزايد ، وخبرة اللحظـة الحاضرة تضيف شيئا جديدا للخبرة الماضية وباضافتها يصبح الكل مختلفا عما كان. ويمكن أن نقول فى النهاية مع برجسون : «نحن أحرار حين تنبع أفعالنا من شخصيتنا بأسرها . حين تعبر هذه الافعال عن تلك الشخصية بحيث يكون بينهما تشابه لاحد له ، وهو التشابه الذى نجده أحيانا بين الفنان وانتاجـه ، ولايهم أن يقـال بعـد ذلك اننا عندئذ نستسلم للأثر القوى الشـامل لشخصيتنا : لان شخصيتنا في النهاية هى نحن .. » .

امام عبد الفتاح امام

عن الجغرافيا ومحنة العصر

دراسة فى فكر جمال حمدان

عبلة محيلة *

● لقد استطاعت الثورة المصرية عن طريق ايديولوجيتها ان تحقق معادلة هيجل المشهورة ولكن على مستوى آخر ، فاذا كانت الثورة الفرنسية قومية طبقية ، واذا كانت الثورة الروسية لا قومية لا طبقية ، فان الثورة المصرية ، وثورات العالم الثالث ، قومية لا طبقية .

● ليس صحيحا اننا لن نقهر اسرائيل حتى نحقق الدولة العصرية ، وانما الصحيح اننا لن نحقق الدولة العصرية حتى تذهب اسرائيل، فوجودها بالوعة لا قرار لها ، تمتص وتبتلع كل جهود العرب نحو التقدم ، وتشكل معوقا ومعطلا ومؤخرا لوصولهم الى العصر ودولة العصر .

سنة ١٩٥٣ ... حصل شاب مصرى اسمه **جمال حمدان** على درجة الدكتوراه الممتازة من جامعة رادنج فى انجلترا ، وكان موضوع بحثه « **سكان منطقة وسط دلتا النيل** » ، وفى سنة ١٩٥٩ حصل **الدكتور جمال حمدان** على جائزة الدولة التشجيعية فى العلوم الاجتماعية ، عن كتابه « **دراسات فى العالم العربى** » .. واذا كنا قد دهشنا لحصول شاب فى الثلاثين على هذه الجائزة ، وهى عادة تعطى لمن جاوزوا علامة الأربعين ، فان دهشتنا تزيد ، وبالتحديد منذ سنة ١٩٦٤ ، حين نجد أستاذا متخصصا فى الجغرافيا ـ وجغرافية المدن بالذات ـ يقرؤه العام والخاص ، بل ربما قرأه العام قبل الخاص .

وسوف نحاول هنا ـ مجرد المحاولة ـ تحديد الاطار الفكرى عند جمال حمدان ، أو بوضوح أكثر « **النظرية الاستراتيجية العالمية** » عند جمال حمدان ، وتفريعات هذه النظرية فى كتبه ، ابتداء « **بدراسات فى العالم العربى** » وانتهاء « **باستراتيجية الاستعمار والتحرير** » عدا عشرات من المقالات فى مختلف المجلات .

فى أول كتابه «**استراتيجية الاستعمار والتحرير**» كتب جمال حمدان :

« ان الذى يستقرىء مراحل التاريخ السياسى والاستراتيجى يجبهه ـ وهو جدير أيضا بان يروعه ـ دائما او غالبا نمط ثلاثى متواتر لصراع القوى ، قد يختلف عن

النمط المعاصر فى التفاصيل والظلال والأبعاد ، ولكن لعله لا يختلف عنه كثيرا فى أساسياته وجوهره »

ما هو هذا النمط ؟

اننا لن نستطيع أن نفهم فكر حمدان ، دون أن نفهم قبلا نظرية العالم الجغرافى الانجليزى هالفورد ماكيندر H. Mackinder الذى وضع فى أوائل هذا القرن « نظرية **المحور الجغرافى للتاريخ** فقد تصور ماكيندر ثمة « **جزيرة عالمية** » ، تضم العالم القديم ، وتصبح الأمريكتان واستراليا بمثابة أقمار صغيرة تدور فى فلكها ، وكل يقع فى محيط واحد هو « **المحيط العالمى** » ، وللجزيرة العالمية مركز دعاه ماكيندر فى Heartland (الاتحاد السوفييتى **اساسا**) ، يحيط به «**هلال خارجى أو جزرى**» (**بريطانيا ، كندا ، الولايات المتحدة ، جنوب افريقيا ، استراليا ، اليابان**) ، وبين الهلال الخارجى والهارتلاند يقع « **الهلال الداخلى** » (**المانيا ، النمسا ، تركيا ، الهند ، الصين**) . ويرى ماكيندر أن محور الصراع يدور حول المنطقة البينية، وهى الهلال الداخلى (القوى البر مائية) ، بحيث تصبح هذه المنطقة ، منطقة « **ارتطام أو التحام** » ، ويعتقد انه اجتمعت للهارتلاند عدة عوامل تؤهله للصدارة العالمية ، أهم هذه العوامل عمق الدفاع ، ووضع معادلة يقول فيها :

من يحكم شرق أوربا يسيطر على الهارتلاند
من يحكم الهارتلاند يسيطر على الجزيرة العالمية
من يحكم الجزيرة العالمية يسيطر على العالم

وبعد أن يأتى ماكيندر بأمثلة عديدة من التاريخ ، يفسر بها نظريته ، يقترح على بلاده (انجلترا) خلق دول صغيرة متماسكة فى منطقة الالتحام ـ شرق أوربا ـ تفصل بين قوى البر وقوى البحر .

وقد تعرضت نظرية ماكيندر فى الاستراتيجية العالمية للنقد ، كما أجرى عليها آخرون عدة تعديلات ... فماذا كان موقف **حمدان ؟**

بين الفيل والحوت والتمساح

يعتقد حمدان أن نظرية الصراع بين البر (**الفيل**) والبحر (**الحوت**) على المنطقة البينية (التمساح) نظرية صحيحة فى جملتها ، أو انه لم تظهر نظرية أخرى فى الجغرافيا تنقضها ، وهو يجعل منها أساسا لفهم التاريخ والاستراتيجية العالمية حتى منتصف القرن العشرين ، لكنه يعدلها فى الشكل والمضمون معا ، **فهو ـ أولا ـ يحصرها فى العالم القديم** ، **بسبب حداثة العالم الجديد** ، وغياب الولايات المتحدة عن أفق السياسة العالمية حتى الحرب الأخيرة ، ثم يحدد قوة الهارتلاند بسهولة أراضيه التى تدعو الى الامبراطورية ، ازاء قوى البحر المتعددة ، ومناعته الدفاعية ضد الغزاة ، لكن عيبه الوحيد فى تعدد القوميات ، داخله، وتخلخل السكان والعمران فى القلب . أما قوى البحر ، فهى اسكندناوة ، دنمرك ، هولندا ، بلجيكا ، فرنسا ، بريطانيا ، ايبريا ، ايطاليا ، اليونان ، تمتاز هذه القوى بكثافة السكان وبطاقة انتاجية عالية وموقع بحرى حر ، مما دعاها الى الاستعمار (البحرى) ، لكن تقطعها الجغرافى نتج عنه تفككها سياسيا ، وتعدد الصراعات فيما بينها .

وبين القطبين الكبيرين تقع منطقة الارتطام التى تجمع بين خصائص البر والبحر ، وهى ألمانيا ، شرق أوربا ، البلقان (فيما عدا اليونان) ، الشرق الأوسط (تركيا ، ايران ، الشرق العربى) وقد تمتد الى الشرق الأقصى ، على أن أهم مواقع هذه المنطقة هى الشرق الأوسط وشرق أوربا ، وهو ماتعبر عنه بوضوح العلمين وستالنجراد . وتتميز منطقة الارتطام بأنها أقل مساحة وسكانا وقوة ، وأكثر تمزقا من القوى القطبية ، لكن هذا لايعنى حتمية التبعية ، لأن نفس هذه الخصائص قد تكون عامل قوة ، اذا ما اتحدت المنطقة أو اتحد الجزء الأكبر منها ، وهى فى تاريخها مرت بثلاث مراحل « **خط خمود سياسى** » ، « **منطقة رهو سياسى** »، « **خط استواء سياسى** » .. أولا بخضوعها لاحدى القوى القطبية (شرق أوربا للبر والشرق الأوسط للبحر) ، ثانيا أن تدور فى فلك أو مساومات القوى القطبية بالبلقنة (بعد الحرب العالمية الأولى) ، أو الدول الحاجزة (افغانستان)، أو المحافظة على بعض دولها (الدولة العثمانية) ، ثالثا حين ترتفع قوة المنطقة ، فتمنع الالتحام بين القطبين ، أو

أن تسيطر عليهما ، وعندنا ثلاث حالات (الدولة العربية الاسلامية جنوبا ، الدولة العثمانية فى الوسط ، النازية الألمانية شمالا) ، واذا كان أغلب القطاع الشمالى يقع الآن فى يدى الهارتلاند ، فان أغلب القطاع الجنوبى مستقل ، وهو الآن ليس خط خمود سياسى ، ولا منطقة رهو سياسى، لكنه ليس بعد خط استواء سياسى .

هذا هو الاطار العام لنظرية ، ماكيندر المعدلة عند حمدان ، أو نظرية حمدان المتأثرة بماكيندر ، ولحمدان اضافات أخرى ، سوف يتحدد مكانها بعد قليل .. على انه من خلال هذه النظرية تعرض حمدان لما أسماه **«جنوانية الاستعمار والتحرير»** ، باعتبار ان الاستعمار يعبر بوضوح عن صراع القوى القطبية (قوى البحر أساسا) على المنطقة البينية ، ثم كيف حدث التحرير .



ج . حمدان

بين الاستعمار والتحرير

يحدد حمدان مفهوم الاستعمار بانه سيطرة حضارة متقدمة على حضارة اخرى متخلفة ، من اجل خلق « نواة متروبوليتانية » سائدة ، وبهذا فان الاستعمار ظاهرة حديثة تبدأ مع الكشوف الجغرافية ، أما قبل ذلك فان الوضع كان أقرب الى أن يكون تكوينا للأجناس ، وهو فى معظمه صراع بين بر و بر (**الموضع**) ، لكنه مع الاستعمار أصبح صراعا بين بر وبحر (**الموضع والموقع**) . وأتى الاستعمار على موجتين ، الموجة الأولى فى القرنين السادس عشر والسابع عشر ، وارتبطت أساسا بالعروض المعتدلة والبلاد الجديدة ، والموجة الثانية فى القرن التاسع عشر ، وارتبطت أساسا بالعروض المدارية والبلاد القديمة ، والذى دفع أوربا الى الاستعمار لم يكن عبقريتها الخاصة ، وانما ظاهرة **« هجرة الحضارة صوب القطب »** ، ثم العامل الجغرافى موضعا وموقعا، وأخيرا الانقلاب الصناعى .

ويقسم حمدان قوى الاستعمار الى **قوى عتيقة** (البرتغال ـ أسبانيا) ، **قوى عتيدة** (فرنسا ـ بريطانيا) ، **قوى وليدة** (ايطاليا ـ ألمانيا) ، **قوى جديدة** (روسيا القيصرية ـ الولايات المتحدة) ، **قوى شريدة** (اسرائيل) ، ثم يحدد أنماطه بعد ذلك فى ثلاثة أنماط ، **سكنى** ، **استراتيجى** ، **استغلالى** ، وان كان البعد الاستغلالى قاسما مشتركا **أعظم** ، كما ان الاستعمار قد يغير أعراضه ومن ثم أنماطه ، حسبما تقتضيه الظروف ، لكنه بصفة عامة (**ميكانيكية الاستعمار باختصار ، مضخة ماصة فى المستعمرات ، كابسة فى المتروبول ، ورياضياته عملية طرح هنا وجمع هناك** » .

على أن الجغرافيا لعبت دورا كبيرا فى استراتيجية الاستعمار ، فتشابه هضاب أمريكا اللاتينية مع هضبة الميزيتا (اسبانيا) وجه الأسبان الى الاستعمار السكنى ،

وموقع روسيا بين صحراء الجليد شمالا وصحراء الرمل جنوبا أدى بها الى انتهاج سياسة البحار الدفينة ، وهو بالتالى دفع انجلترا الى انتهاج سياسة الاحتواء والتطويق ، بحقن الرجل المريض (تركيا) ، وخلق دول حاجزة (افغانستان) ، وأدى نفس العامل الجغرافى الى أن يتأخر استعمار العالم العربى الى نفس الفترة ، ولكن بسبب الجغرافيا الحضارية ، **لأن العالم العربى اذا كان أقرب الى أوربا مسافة ، فانه كان أقرب اليها حضارة ، الفرق هنا فى العلاقة بين القوة والمقاومة ، ونفس هذه الجغرافيا الحضارية هى التى جعلت الاستعمار كاسحا فى افريقيا بطيئا فى العالم العربى .**

وتنتهى الحرب العالمية الثانية ليتحدد **« خط تقسيم فى التاريخ »** ، لا يقل خطرا عن الكشوف الجغرافية ولا الانقلاب الصناعى ، فقد حدث انقلابان هامان هما التحرير والقنبلة النووية ، وأتى التحرير على ثلاث موجات ، **موسمية** (آسيا) ، **متوسطية** (العالم العربى) ، **مدارية** (افريقيا) فى الأربعينيات والخمسينيات والستينيات بصفة أساسية وعلى التوالى ، **على ان ما بناه الاستعمار فى خمسة قرون ، هدمه التحرير فى عقدين اثنين ، واذا كان الاستعمار قد جاء على موجتين ، فان التحرير جاء على موجة واحدة .**

وعادت الجغرافيا لتلعب دورها ، ولكن فى التحرير ، ففى الشرق الأقصى اجتمعت عوامل البيئة الطبيعية والبعد الجغرافى عن القوى المتروبوليتانية والقرب من الصين ،

لترجح كفة الثـوار ، ثم ان الاستعمار هنـاك ـ بسبب الجغرافيا أيضا ـ لم يكن سكنيا ولا استراتيجيا ، وانما كان استغلاليا ، وهذا كله ساعد على التحرير ٠٠ وعلى النقيض ـ تقريبا كان دور الجغرافيا فى العالم العربى ، لان الاستعمار **هنا استراتيجى** (مصر) أو **سكنى** (الجزائر) **أو استراتيجى وسكنى** معا (فلسطين) ، فاذا أضفنا عامل القرب الجغرافى، لوجدنا ضراوة الاستعمار ، على أن التحرير العربى لم يكن صدى للتحرير الآسيوى ، لأن التحرير العربى بدأ مع الاستعمار ، بل ان أثره (ثورة ١٩١٩) على التحرير الآسيوى (الهند) كان كبيرا ، الى جانب ان لدينـا تواريخا أقدم للتحرير وان كان شكليا (مصر ١٩٢٢ أو ١٩٣٦) ٠٠٠ **أما افريقيا فان الشـال العربى كان قويا ازاءها مبـاشرا وحاسما ، بحيث أن مصر لعبت فى افريقيـا دورا أشبه ـ وان اختلفت الوسيلة ـ بدور اليابان فى آسيا ٠**

صراع العملاقين الجديدين

ماهى خريطة الاستراتيجية العالمية بعد سنة ١٩٤٥ ؟

تحدد سنة ١٩٤٥ استراتيجيا الصراع بقوى برية مطلقة (الاتحاد السوفييتى) وقوى بحرية مطلقة (الولايات المتحدة) ليصل الى قمة التناقض الجغرافى والاستراتيجى والايديولوجى، وكلا القوتين بمصادرهما قوى دينوصورية٠٠ قوى ماموث٠٠ **لكن اذا كان عام ١٩٤٥ يحدد ظهور هاتين القوتين ، فانه يحـدد أيضـا بداية عصر جـديد فى تاريخ البشرية والاستراتيجية العالمية ،** وهو ظهور مايسمى بالاستراتيجية التكنولوجية ليحل محل الاستراتيجية الارضية بوضوح أكثر لم يعد هناك شىء اسمه بعد جغرافى أو قرب جغرافى ، الى جانب ضياع ميزة العمق الاستراتيجى ٠

هل معنى هـذا الغاء الاستراتيجية التقليدية تماما ٠٠ أو بعبارة أخرى نظرية ماكيندر ؟

يرى حمـدان أن توازن الرعب الذى أحـدثه العصر النـووى ، وظهور الغواصات النـووية والصـواريخ عابرة القـارات ، أدى الى تعـايش الاستراتيجية التقليدية مع الاستراتيجية النووية ، خاصة فى أحوال الحروب المحلية المحدودة التى تشنها الامبريالية العالمية على دول العـالم الثالث ، وبقاء سياسة الأحلاف والقواعد العسكرية ، فضلا عن أن الموقع الجغرافى تبقى له أهميته فى وقت السلم ٠٠ على انه بصـورة عامة لا أحد يريد أن يشهد (القيـامة النووية) ٠

فما الحل ؟

لقد تحولت نظرية ماكيندر عند حمدان من مفهوم جغرافى الى مفهوم حضارى ، وهو ماتعبر عنه بوضوح سياسة **«عدم الانحياز»** ٠٠ ان هذه السياسة ولدت فى المنطقة البر مائية، منطقـة التمسـاح الذى تحـول الى حمـامة (**بين النسر والصقر**) ٠٠ هذه المنطقة تحولت ، أو أنها فى طريقها الى أن تتحول من « **منطقة التحام** » الى « **منطقة التئام** » من منطقة خمود أو رهو سياسى الى خط استواء سياسى ، من المحافظة على نفسها الى المحافظة على العالم ، وكان عدوان ١٩٥٦ شهادة ميلاد عدم الانحياز نهائيا وبنجاح ٠

وانتهجت هـذه المنظمة لنفسها أيديولوجية تختلف عن أيديولوجية القطبين المتصارعين ، وتعبر عنها أيديولوجية الثورة المصرية التى حققت معادلة هيجل المشهورة ، ولكن على مستوى آخر ، فاذا كانت الثورة الفرنسية قومية طبقية، واذا كانت الثورة الروسية لا قومية لا طبقية ، فان الثورة المصرية (وثورات العالم الثالث) قومية لا طبقية ٠

لكن عدم الانحياز يمر بأزمة ٠٠ بل أزمتين ، أزمة من الداخل ، وأزمة أخرى مفروضة عليه من الخارج ، **الأزمة الأولى** يوضحها ان اضلاع القوة فى عالمنا المعاصر هى السياسة والاقتصاد والعلم ، وهو مايفتقر اليه العالم الثالث جميعا ، لكن هذه الأزمة من الممـكن التغلب عليها ، بفصم علاقات التبعيـة (الكومنولث) وشجب الخلافات بين دول العـالم الثالث وعمليات التوحيد ، ثم التنمية والتنمية الكثيفة ، ورأس الحـربة التصنيع ، والعـلم الذى هو حضارة القرن العشرين ٠

على أن أكبر ما يتعرض له العالم الثالث من أخطار ، انما يأتى من جانب الولايات المتحدة التى جعلت هذا العالم يمر بمرحلة حرجة ، ذروتها يونيو ١٩٦٧ حين تخفت النجمـة الخماسية (**الولايات**) وراء النجمـة السـداسية (**اسرائيـل**) ، فالولايات ورثت الرأسماليـات الليبرالية والفاشية جميعـا ، ووصـلت الى مرحـلة فوق الرأسمالية وتحولت الى رجل شرطة عالمى ، تحاول أن تفرض مبـدأ مونرو على العالم غير الشيوعى ، سياستها هنا **« ذهب اليانكى وسيفه »** ٠٠ وجعلت الكثيرين فى بلاد العالم الثالث يتصورون ان ثمة تناقضا بين مبدأى التعايش السلمى وعدم الانحيـاز ويتساءلون عن جدوى هذا المبدأ الأخير ٠

اذن ٠٠ ما الحل ؟

يقول حمدان ان ثمة مصلحة مشتركة تجمع بين العالم الثانى والعالم الثالث لأن ضرب العالم الثالث قد يكون حربا عالمية (بالقطاعى) ٠٠٠ اذن فلابد من وحدة عمل استراتيجية لا أيديولوجية ، وتتجلى هذه الوحدة فى حروب اقليمية محدودة ، وحروب التحرير الوطنى ، وقد بدأت تتضـح معالم هذه السياسة ، فالاتحاد السوفييتى يحول أسـلحته الدفاعية من تقليدية الى أسلحة تناسب حروب ما وراء البحـار ، وليس خروجه الى البحر المتوسط ، الا ليلغى اعتباره بحيرة أمريكية ، بل ان هذا يؤدى الى ما تنبأ به

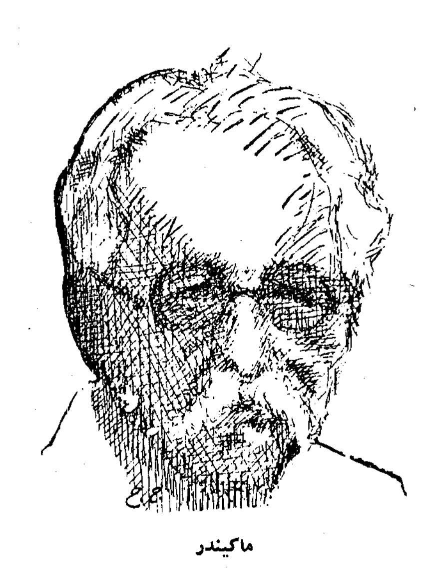
ماكيندر من تحول الاتحاد من قوة بحرية الى قوة برمائية ، أما حروب التحرير الوطنى فهى مسئولية العالم الثالث ، بالاشتراك مع حلفائه الطبيعيين أو ماعبر عنه حمدان « **الحد الأقصى من السلاح الشرقى فى يد الحد الأقصى من القوات الوطنيـة** » .

وأخيرا يختزل الصراع بين العالم الأول والعالم الثالث فى الصراع بين العالم العربى (قلب العالم الثالث) وبين الولايات المتحدة (قلب العالم الأول) ، بتحديد أكثر مصر ـ الولايات (اسرائيل) .. انه صراع بين أقدم دولة هامة فى التاريخ (مصر) وأحدث دولة هامة فى التاريخ (الولايات) .. فى النهاية يتحدد الصراع بهذه المعادلة :

مصير الامبريالية العالمية يتوقف على مصير العالم الثالث

مصير العالم الثالث يتوقف على مصير العالم العربى

مصير العالم العربى يتوقف على مصير فلسطين ـ اسرائيل



ماكيندر

قضية العالم العربى

قدر العالم الثالث اذن هو قدر العالم العربى ، وقدر العالم العربى فى الوحدة ، وحمدان هنا لا يتحدث عن القومية العربية ، فهذا شأن علماء الاجتماع ، لكنه يتحدث عن الوحدة العربية لأنها مجال الجغرافى أساسا ، وفى ميدان القومية العربية لانجد ـ حقيقة لانجد ـ اسما أكبر من **ساطع الحصرى** ، وفى ميدان الوحدة العربية أيضا لا نجد اسما أكبر من ... **جمال حمدان** .

كيف أتى تحليل حمدان ؟

فى كتابه « **دراسات فى العالم العربى** » يقول حمدان :

« ليس من الضرورى أن يكون لـكل منطقـة شخصية اقليمية متفردة ، وليس من الضرورى أن تكون الشـخصية الاقليمية للمنطقة كاملة التفرد والتمايز عن غيرها ، ولكن لا مفر من أن نعد العالم العربى واحدا من بين تلك المناطق النادرة التى تمتاز بشخصية اقليمية متفردة ، لدرجة ليست أقل من مذهله ، فهناك نغمة أساسية وايقاع مشترك ، يرين على جميع نواحى الوجود الطبيعى ويتكرر بالحاح فى كل جوانب الحياة البشرية فى الماضى والحاضر » .

ماهى هذه الشخصية الاقليمية ؟

ان شخصية العالم العربى الاقليمية تبدو فى انه اقليم اتصـال ، واقليم الاتصـال المثالى بالضرورة ، من جميع النواحى الطبيعية والبشرية والتاريخية والحضارية والسياسية، فهو أشبه بجزيرة من اليابس تتوسط الجزيرة العالمية ، ومن ثم فهو اقليم انتقال من المداريات الى المعتدلات ، يقع حيث يتعامد خط الاستواء الصحراوى المتخلخل السـكان وخط الاستواء السكانى الكثيف لذا فقد جمع بينهما كحل وسط ، ففيه تتداخل الزراعة من الرعى ، ويصبح ممرا لعدة سلالات ، لكن هذا لم يؤد الى « **فوضى جنسية** » بسبب حواجز البحر والجبل والصحراء ، فالفرشاة الأساسية سلالة بحر متوسط ، وهى سلالة انتقالية ، الى جانب انه جسر سهلى بين قطبى المعمور المعتدلات والموسميات ، مما ساعد على تجارة المرور ، فضلا عن ان البيئة الفيضية فيـه دفعت الى صنع الحضارة ، تحميها الدرقة الصحراوية ، ثم ان موقعه بين قوى البر وقوى البحر ككتلة برمائية أدى به الى أن يخضع لاحدى الكتلتين (**الاستعمار**) أو يخضعهما (**الاسلام**) أو يمنع الصراع بينهما (**الحياد الايجابى**) .

واذا كان العالم العربى اقليم اتصال بين أقاليم العالم، فانه اقليم متصل فى ذاته ، وهذا معناه الوحدة ، وحمدان هنا يفرق بين نوعين من الوحدة ، « **وحدة مورفولوجية** » أى تركيبية ، ويقصد بها الحد الأقصى من التجانس الداخلى والحد الأقصى من التنافر الخارجى ، وبين « **الوحدة الوظيفية** » أى التكامل فى الوظائف السيكولوجية والثقافية والاقتصادية، ويصل هذا التكامل الى قمته فى الوحدة السياسية ، وعنده ان العالم العربى يتمتع بقدر كبير من الوحدة المورفولوجية ـ خاصة فى جانب التنافر الخـارجى ـ وبقدر أكبر منه من الوحدة **الوظيفية** .

فالعالم العربى واضح التحديد بالبحر والجبل والصحراء ، وهذا مما حفظ له شخصيته ، وخلق التجانس داخله ، أما الشذوذ فهو فى الأقليات الدخيلة ، التى أتى بعضها مع الاستعمار ، ثم ان هناك نظائر جغرافية داخل هذا العالم ،

أى تنافر يأخذ صورة متكررة ، من بيئات **فيضية** (مصر ـ العراق) **أو بحرية جبلية** (المغرب ـ الشام) **أو صحراوية** (الصحراء العربية ـ الصحراء الكبرى) . وهـذا كله يؤدى بالتبعية والضرورة الى الوحدة الوظيفية ، لأن أعلى مراحل التطور العضوى هو الحد الأقصى من التخصص (أى التباين) . مع الحد الأقصى من التكامل (أى الترابط) ، وليس غريبا أن فرنسا تختزل أقاليم أوربا الطبيعية الثلاثة جميعا .

واذا كانت الوحدة الوظيفية (السياسية فى النهاية) لم تحقق أغراضها بعد ، الا أن الضرورة الاستراتيجية فى عالم الكتل الديناصورية ، تحتم على العالم العربى أن يتحد، لأنه اقليم اتصال ، سواء من ناحية الموقع الخارجى ، أو من ناحية المضمون التركيبى الداخلى ، وهى عناصر ضعف بلا وحدة ... والوحدة هنا ليست بدعة ، حدثت أيام الأتراك ، وليس امتداد الوطن العربى (سبعة آلاف كيلو متر) يحول دون تحقيق الوحدة ، لأن القطار يستطيع هنا أن يلعب نفس الدور الذى لعبه فى ألمانيا ، فضلا عن ان الوحدة تستطيع أن تحل مشاكل افراط السكان (مصر) أو تفريطهم (العراق) . الى جانب حل مشكلات الأقليات فى الدولة الكبيرة .

ونعود ثانية الى الاستراتيجية العالمية ...

يقول حمدان : « ان على جميع أعضاء منطقة الارتطام فى العالم القديم واجبا أخلاقيا نحو البشرية ، لايقل خطرا والزاما عن واجبها نحو نفسها ، هو أن تتحول الى كتلة ثالثة فعالة ، تمنع مصير العالم من أن يتحدد بالصراع بين القوى القطبية وحدها ، وتصبح طرفا ثالثا فى معادلة توازن القوى الجغرافية فى العالم ، فتصبح بذلك خط استواء حقيقى بدل منطقة رهو ، تصبح بمثابة جيروسكوب للتوازن الاستراتيجى العالمى ، يفرض سياسة التعايش السلمى ، بدل منطقة ارتطام والتحام ، تغرى بالاصطدام ، تصبح ستارا حريريا بدل ستار حديدى . وليس من سبيل الى هذا الا بالقوة ، بالوحدة القصوى بين أى قطاع متجانس الشخصية فيها ، والعالم العربى أبرز وأخطر حلقة فى سلسلة المنطقة يصدق عليها هذا التخصيص » .

ولكن ماهو الشكل الذى يقترحه حمدان للوحدة ؟

انه يقترح قيام أربع وحدات ، الهلال الخصيب ، الجزيرة العربية ، وادى النيل ، المغرب الكبير ، ثم ينشأ بين هذه الوحدات اتحاد فيدرالى يضمها جميعا .

هذه هى نظرية حمدان فى الوحدة العربية ، ولا يفوت باحث (جغرافى) حين يتعرض لهذا الموضوع أن يتحدث عن دور البترول فى قضية الوحدة ، وسوف يكون السؤال كما طرحه حمدان نفسه : **((هل دفع البترول حركة الوحدة العربية أم دافعها ... هل غذاها أم غزاها ؟ » .**

يجيب حمدان على هذا السؤال فى كتاب مستقل بعنوان « **بترول العرب** » **فيعرض أولا للجانب السلبى من الصورة،** فالبترول من حيث انه مادة استراتيجية عطل التحرير ، ودعم دعاوى الاستعمـار (اسرائيـل) ، **وأغرى بأطماع** توسعية (ايران) ، روج لاقتصاد هدمى وتبعيات اقتصادية، ثم انه لتطوحه فى مناطق التخوم الصحراوية والساحلية أثار خلافات بين وحداته السياسية المنتجة ، فضلا عن انه يدعم الاتجاهات الانعزالية فى وحداته الغنية .

ومع هـذا فان البترول كان حقيقـا بأن تكون جوانبه الايجابية أوضح بكثير من جوانبه السلبية . وهذا يبدو فى أنه غير من البنيـة الاجتماعية فى مناطقه ، ورفع المستوى الحضارى لها ، الى جانب انه أعاد توزيع الأثقال السياسية لدول المنطقة ، وخلق نوعا من الترابط بين المنتج والمخرج (الأنابيب) ، ونمى علاقات التموين والسياحة .

على ان البترول اذا صح انه عقبة فى سبيل الوحـدة العربية ، الا انه عقبة عارضة ، أما العقبة الكبرى ، فهى اسرائيل ، فكيف عالج حمدان القضية الفلسطينية ؟

مستقبل القضية الفلسطينية

فى كتاب صغير له بعنوان « اليهود انثروبولوجيا »

طرق حمـدان القضية من زاوية جديدة ، ربمـا كانت ارهاصاتها الأولى عند الدكتور **محمد عوض محمد** « **الاستعمار والمذاهب الاستعمارية** » .. لكن حمدان هنا جراح يمسك بالمشرط ليحدد أين موقع يهود صهيون من يهود التوراة ، وجاء هذا التحديد انثروبولوجيا ، وهو يفرق بين نوعين من الصفات ، صفات مكتسبة من البيئة الطبيعية والبيئة الاجتماعية ، وصفات أخرى وراثية ، وهذه الأخيرة هى « **محـور الدراسات الانثروبولوجيه جميعا** » فمن مصادرنا القديمة يبدو يهود التوراة مجموعة سامية من سلالة البحر المتوسط من سمرة فى الشعر وتوسط فى القامة وتوسط الى طول فى الرأس وأنف اقنى وضيق فى الوجه ، وأقرب الممثلين لهم السامريون ، وعددهم أقل من مائتين ، يقيمون فى احدى قرى نابلس ، أما يهود اليوم فان ٨٠٪ منهم لا تتطابق ملامحهم الانثروبولوجية الوراثية مع ملامح يهود التـوراة » فلا توجد وحـدة لونية لهم ، والأنف الأقنى تكاد توازى نسبته عندهم نسبته عنـد **(الجنتيل)** ، والأهم هو شكل الرأس ، فهم يتسمون بعرض الرءوس ، والقليل منهم طوال الرءوس ، على أن هذا القليل (الشرقيون وبعض السفارديم) عاشوا بين أقوام طوال الرءوس .

يأتى حمدان بعد ذلك بأدلة الاختلاط التاريخية ، من تحول دينى (خزر ـ فلاشة ـ تاميل) ، وتزاوج (نبهت الكنيسة الى خطره) ، ثم ان الاتجاه العلمانى الحديث ،

وشيوع الزواج المدنى (أمريكا) أدى الى وجود أنصاف وأرباع يهـود ، بل ان كثيرا من اليهـود أثبتوا أصولهم الآرية ابان عهد السطوة النازية فى ألمانيا .

نحن اذن امام اوربيين تهـودوا ، وليس امام يهـود تاوربوا .

« وفى النتيجة فان جسم الطائفة ليس ثابتا جنسيا ، بل هو متحرك وفى تغير داخلى مستمر ، وفى ابتعاد دائم عن الأصول الأولى ، بحيث يتضاءل حجم النواة النووية الحقيقية من بنى اسرائيل التوراة فيهم ، حتى لتكاد تختفى وتنقرض، فضلا عن أن تظل قابلة للتعرف عليها وتحديدها. انها عملية احلال وابدال مزمنة دائما ، معدية أحيانا ، ظاهرة مستمرة، وئيدة ربما ، ولكنها أكيدة قطعا ، انها تكاد تكون عملية تغيير دم كلية وشاملة » .

ان اخشى ما تخشاه الصهيونية هو الاندماج ، لأن هذا الغاء لوجودها اصلا ، البديل هو ضد سامية جديدة .

وعلى المستوى السياسى يؤكد حمدان ارتباط الصهيونية عضويا بالامبريالية العالمية ، لأن بداياتها تعاصرت مع آخر موجة كبرى للاستعمار القديم ، لكن تحققها تعاصر مع أول موجة كبرى للاستعمار الحديث ، بحيث أصبحت اسرائيل فى النهاية قاعدة أمريكية بدرجة دولة ، فجمعت بين أنماط الاستعمار المختلفة ـ **استراتيجيا واستغلاليا وسكنيا** ـ وأثبتت بوضوح ان الصهيونية هى أعلى مراحل الامبريالية .

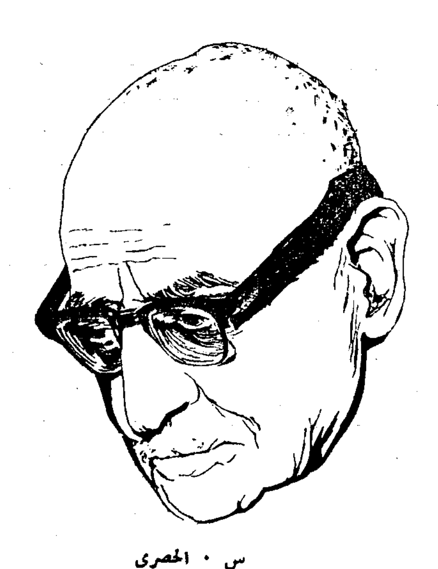
اين يكمن الحل ؟

الحرب ... وان يعجل بالحرب ، ولن تقارن بين اسرائيل والصليبيات الوسيطة لأنها (اسرائيل) تفوقها فى امكانياتها واحقادها ودعاويها ، ثم انه لا خوف من امتلاكها قنبلة أو اثنتين من طراز هيروشيما ـ وهو أمر مستبعد ـ لأنها اذا استطاعت عن طريق هذه القنبلة أن تؤثر فى جزء من طاقة الأمة العربية ، الا أن الجسم الأساسى من هذه الطاقة يبقى سليما ، يستطيع أن يرد الضربة ضربات تقليديا اذا لم يكن نوويا .

لكن يجب أن يصاحب العمل العسكرى عمل آخر ، **هو من اختصاص المثقفين** ، فعلى الرغم من صعوبة مواجهة الدعاية الصهيونية فى الخارج ، الا انه من الممكن النفاذ الى نقابات العمال وأحزاب اليسار والاشتراكيات الأوربية ، ويجب وضع مرجع كامل عن القضية الفلسطينية باللغات الأجنبية « **وخلف الجميع لا بد من معهـد كامل للدراسات الفلسطينية** » .

ولكن ايهما اسبق الوحدة العربية أم تحرير فلسطين ؟

يرى حمدان أن الوحدة الدستورية طريق مثالى الى



س . الحصرى

فلسطين ، لأن اختلاف الأنظمة الاجتماعية بين العرب يشكل عقبة فى طريق الوحدة ، لكن نفس هذا الاختلاف لن **يحول** دون وحدة عمل ، أو حد أدنى من وحدة العمل ، خاصة وان اسرائيل لن تنتظر حتى تتحقق الوحدة الكاملة ، **لأنه** بطبيعة تكوينها « **اسفنجة غير قابلة للتشبع** » تمتص طاقة المنطقة ، وأداة فى يدى الامبريالية لضرب حركات التحرير .

حول شخصية مصر

بانتهاء تقويم حمدان للمشكلة الفلسطينية ينتهى ـ شكليا ـ تحليله للاستراتيجية العالمية المعاصرة باعتبار فلسطين اسرائيل الموقع أو الموقعة الذى سوف يحدد مصير العالم العربى ، ومن ثم مصير العالم الثالث ، **لكنه بقدر ما كانت اسرائيل وجه (أو واجهة) العالم الأول فى مواجهته** للعالم الثالث ، فان مصر وقعا (وواقعا) هى قلب العالم الثالث فى مواجهته للعالم الأول .

فكيف كان موقف حمدان ؟

انه يتحدث عن مصر وزعامتها داخل العالم العربى ، وكيف ان هذه الزعامة مسئولية فادحة تفرضها الطبيعة ، لكن مصر من أجل أن تقوم بهذه المسئولية ، لابد لها من أن تستكشف ذاتها .. شخصيتها الوطنية ، وموقع هذه الشخصية فى العالم ... أن تتلمس حلا للجوانب السلبية فى صورتها ، لأنه اذا كان من لوازم النصر أن نعرف عدونا ، فان من لوازمه أيضا أن نتعرف أنفسنا ومواطن الضعف فينا .

لم يكن حمدان أول من تحدث عن الشخصية المصرية ، لكن كتابه « **شخصية مصر** » هو أنضج محاولة للحديث عن هذه الشخصية (قارن : **العقاد ، حسين مؤنس ، شفيق غربال ، حسين فوزى ، نعمات فؤاد**) ، وكتابه هذا اذا كان فى أساسه جغرافيا (**الموضع ـ الموقع**) . الا انه يبدو للمشاهد جغرافيا انسانية ، اذا جاز التعبير ، لايتيسر تأليفه الا لانسان ينفتح على الانسانيات .

حدد حمدان أبعاد الشخصية المصرية فى التجانس والوحدة بسبب النيل والصحراء ، المركزية لضيق مساحة المعمور ، تعادل الموضع والموقع فى أحوال القوة وتخلف الموضع عن الموقع فى أحوال الضعف ، ملكة الحد الأوسط بسبب عزلة مصر فى الموضع وانفتاحها فى الموقع ، أبعاد حضارية وسياسية فى المنطقة حولها ، الاستمرارية فى تاريخها وشخصيتها ، العروبة وزعامة العروبة .

ثم يجيب حمدان على هذا السؤال التقليدى : لماذا اتسم التاريخ المصرى بالصورة الدرامية الحزينة ، بحيث تصور البعض أن القضية هنا حتم تاريخى ، فيقول : « **ان ما تكرر فى بعض فترات تاريخنا من مظاهر الطغيان ، لم يكن الا انحرافة اجتماعية ، من صنع الاقطاع لا النيل ، ومن فعل الجغرافيا السياسية لا الطبيعية** » ثم ان التغيير قد بدأ فعلا ... الثورة الاشتراكية ، الحكم المحلى ، السد العالى ، التصنيع ، الوحدة العربية ...

قارة المستقبل الجديد

ولكن اذا كانت نظرية ماكيندر قد تحولت فى النهاية عند حمدان من مفهوم جغرافى الى مفهوم حضارى ، فانه يتحدث عن افريقيا فى كتاب كامل « **افريقيا الجديدة** » وامكانية استقطابها الى العالم الثالث ، ولكن اذا كانت افريقيا هى « **قارة المستقبل** » فان مستقبل القارة يكمن فى القومية ... فالواجب اذن هو تعميم مبدأ القومية وتعميقه، ولكن هذا لا يعنى ان هناك شيئا اسمه القومية الافريقية ، انما الصحيح اننا أمام قوميات افريقية ، فالجنس يتراوح بكل نسب القهوة واللبن ، ولدينا عدد من اللغات يصل الى علامة الألف ، فضلا عن الثنائية (أحيانا الثلاثية) الدينية ، ولا يخفى الاختلاف فى المستويات الحضارية والثروات المادية ، وتقطع اللاندسكيب (بنية الأرض) بين الصحراء والسافانا والغابة المدارية ، الى جانب الامتداد .

اذن فلا يوجد شىء اسمه القومية الافريقية ، نحن لانقول قومية آسيوية ولا قومية أوروبية ، وليس معقولا أن ننتقل من مستوى القبيلة الى مستوى القارة مباشرة ، بل ان الاستعمار لعب دورا (ولكن جنوب الصحراء) فى تنمية القومية ، ونفس دعاة القومية الافريقية تتراوح آراؤهم بين الوحدة التامة والتعاون ، بل ان بعضهم له صلات استعمارية ، يريد أن يركب الموجة ، مادامت لن تؤدى الى شىء .

ومع ذلك فان المؤلف لا ينكر وجود ما يسمى « **بالشخصية الافريقية** » يشترك فيها معظم الافريقيين ، وتتمثل فى محاولة البحث عن تواريخ قومية وقيم ومثل سلفية ، والتصدى لعقدة اللون ومركب النقص الحضارى ، والبحث عن لغة خاصة ... والترجمة الحقيقية لهذه الشخصية هى فيما يسمى بالتضامن الافريقى على المستوى السياسى ، والسوق المشتركة ، على المستوى الاقتصادى .. انها ببساطة وحدة عمل ، وليست وحدة دستورية .

فى النهاية يقدم حمدان مشروعا لخريطة جديدة للقارة ، تقوم على أساس القوميات الموجودة فعلا ، أو التى من الممكن أن توجد فى المستقبل ، وبهذا نستطيع أن نختزل عدد دول القارة (خارج العالم العربى ومدغشقر) الى اثنى عشرة دولة ، وهو هنا يتحرز فيصرح بأنه يقدم مادة للدراسة ، لا تجاوز فى أبعادها خطوط التقسيم الاقليمى الى تعيين الحدود السياسية نفسها ، وكانت ضوابطه هى ، التخطيط الحر ، اعتدال الأحجام ، القوة الاقتصادية ، التكافؤ المادى ، التجانس البشرى ، حرية الخروج .

نحو فكر مصرى معاصر

وبعد ... اننا منذ الجبرتى (**آخرون يقولون رفاعة**) نحاول الوصول الى فكر له نكهة مصرية ، ان لم يكن شخصية مصرية ، **لكننا نلاحظ ان ثمة انفصالا شبكيا بين الفكر والواقع عندنا** ... الفكر لم يستطع أن يؤثر فى حياة الانسان المصرى نفس تأثيره فى بلاد أخرى غير مصر ، قد نختلف فى الأسباب ، وأقول ان التخصص (على النمط المصرى) كان سببا فى تخلف فكرنا عن أن يعيش فى عالم القرن العشرين ، **أصبح التخصص عندنا قوقعة يتخفى فى** داخلها محار الجهل.. ان لدينا شئنا أم لم نشأ ظاهرة اسمها (**جهل باسم التخصص**) . على ان التخصص لا يكون فى القراءة قدر مايكون فى الكتابة ، فثمة خط عام يصل بين المعارف الانسانية المتنوعة ، خلف هذه المعارف تكمن الفلسفة التى هى فى النهاية نظرة شمولية الى الكون .. **ان عدم فهمنا الواعى للتخصص أدى الى انعزال العلوم بعضها عن بعض ، فضلا عن انعزالها عن المجتمع ، وأدى ايضا الى تخلفنا فى مجال العلوم الحديثة ، وبعضها يضم أجزاء متفرقة من مجموعة أخرى من العلوم .**

الجديد الذى أتى به حمدان انه جعل الجغرافيا تنفتح على الانسانيات الأخرى ، بل أن يجعلها « **علم بمادتها فن بمعالجتها فلسفة بنظرتها** » ، انها باختصار فلسفة المكان الذى يختصر الحياة الانسانية جميعها بمعارفها المختلفة ... **لقد حول حمدان الجغرافيا من حقائق الى افكار ، وعقد صلات مديدة بين جغرافية الافكار هذه وبين الانسانيات الأخرى** ، بحيث قد يستغرب القارىء كيف أنجبت الجغرافيا

ـ وجغرافية المدن أصلا ـ كتابا مثل « **شخصية مصر** » .

وحمدان بعد ذلك يتمثل حاجات عصره ، يكتشف القوانين التى تحرك علاقاتها ، ثم هو يردها بعد ذلك الى أرض الواقع ، يحاول أن يغير منه ، باختصار لقد وظف الجغرافيا من أجل خدمة حياتنا اليومية ... الوحدة العربية، الشخصية الوطنية ، البترول ، الاستعمار ، افريقيا ، عدم الانحياز ، الاستراتيجيه العالمية ، بل انه يوظف جغرافية المدن نفسها من أجل أن تعالج ظاهرة المدنية وهى ظاهرة عامة وعربية وجاء هذا العلاج فى ثلاثة كتب أحدها بالانجليزية ولا يوجد غيرها فى المكتبة العربية .

ثم هل هناك قضية تشكل علينا حياتنا ، بل ونتعاطاها يوميا ، مثل قضية فلسطين ، ان كتابه عن انثروبولوجية اليهود أبرز ضرورة دراسة القضية الفلسطينية علميا وليس ديماجوجيا .

بعد يونيو وبعده مباشر يقرر ان الحل السياسى غير ممكن ، لن يرضى به العدو اذا رضينا به نحن ، ولا يوجد صقور وحمائم فى اسرائيل ، فالجميع يقررون انها « **تابو** » لايمس ثم هو يضيف : « **نحن فى الحقيقة ـ حتى لو انسحب العدو الاسرائيلى بالسياسة ولن ينسحب ـ بحاجة الى نصر عسكرى ولأكثر من سبب ، فلا يفل الهزيمة العسكرية الا نصر عسكرى ، وحتى النصر السياسى لا يعدل ولا يمحو وصمة الهزيمة العسكرية** » ... بعد ذلك يضيف بأنه يجب على دبلوماسيتنا أن تنمى عقدة الذنب فى الغرب عن مسئوليته فيما حدث لشعب كامل (**فلسطين**) ، وانه يجب الرد على دعاية العدو وهى دعاية عاطفية بالمنطق الذكى ، وهو يحدد هذه الدعاية فى عملية الاغتصاب ، طرد اللاجئين ، علاقة اسرائيل بالاستعمار ... وبعد أن يفند دعاوى الصهاينة يأتى بمقولاتهم ، وعلى الجانب الآخر مايجب أن تكون عليه مقولاتنا .

واذا كان العلم هو « **حضارة المستقبل** » أو انه السبيل الى المجتمع العصرى ، فان حمدان لا يعتقد أن ثمة تناقضا بين الأيديولوجيا والتكنولوجيا ، لكننا ازاء قضية القضايا ـ فلسطين ـ يجب ألا نجعل المعاصرة مدخلا الى فلسطين « **ليس صحيحا اننا لن نقهر اسرائيل حتى نحقق الدولة العصرية ، وانما الصحيح اننا لن نحقق الدولة العصرية حتى تذهب اسرائيل ، فوجودها بالوعة لا قرار لها ، تمتص وتبتلع كل جهود العرب نحو التقدم ، وتشكل معوقا ومعطلا ومؤخرا لوصولهم الى العصر ودولة العصر** » .

ولم يتعرض حمدان لنقد قدر ما تعرض له من جانب هؤلاء الذين ينكرون ـ أو يدنون ـ من دور الجغرافيا فى صنع التاريخ ، بدأ هذا النقد مع **ساطع الحصرى** الذى خصص بابا كاملا فى كتابه « **حول القومية العربية** » لمناقشة ما ورد فى كتاب حمدان « **دراسات فى العالم العربى** » ، على ان منطلق الحصرى فى نقده تحدد فى « **ان الذى يكون أساس القومية هو اللغة والتاريخ لا الجغرافيا** » ... ونرد على هذا بأن حمدان لم يذكر أنه ينظر للقومية العربية ، وانما هو ينظر للوحدة العربية ، والمفهومان ـ **القومية والوحدة** ـ وان كانا متصلين الا ان كلا منهما كيان بذاته .. ثم ان الحصرى اذا كان قد رفض الجغرافيا ، فانه رفض العوامل المادية (والاقتصادية) فى كتبه كلها .

واذا كان كتاب « **شخصية مصر** » قد تعرض للهجوم باعتبار ان المؤلف قدم صورة قاتمة لهذه الشخصية ، تناسى فى رسمها العوامل الاجتماعية فى تكوين بنية الشخصية الوطنية (الاقطاع مثلا) ، الا ان حمدان يؤكد ان هذه الصورة القاتمة هى فرضية من الجغرافيا السياسية ، وليست من الجغرافيا الطبيعية ، الأمر الذى يفسر تغييرا واقعا اليوم ، وهو اذا كان ـ فرضا ـ قد ركز على الجوانب السلبية ، فان لهذا التركيز ضرورته ، من أجل رصد هذه الجوانب وتحديدها ، ومن ثم يتسنى مواجهتها بعد ذلك .

ان حمدان ـ فى جميع الأحوال ـ لا يغمط أثر العوامل الاجتماعية ، بل والميتافيزيقية فى صنع التاريخ ... فنظرية **ماكيندر** تحولت عنده من مفهوم جغرافى الى مفهوم حضارى، والاسلام ليست له ضوابط تتصل بالصحراء ، وبخط الاستواء ـ كما زعم البعض ـ وانما الذى تحدده قوى ميتافيزيقية أولا وأخيرا وعوامل أخرى معوقة أوربية استعمارية أساسا .

على ان حمدان قد يقع فى بعض الهنات التاريخية ، مثل اعتباره الاستعمار « مجرد جملة اعتراضية فى تاريخ البشرية ، وظاهرة ى الجغرافيا السياسية عابرة مهما طالت، وهى عابرة **لأنها غير طبيعية فى النهاية** » ... والحقيقة ان الاستعمار ليس مجرد جملة اعتراضية ، وانما هو مرحلة فى تاريخ البشرية ـ حتمية ربما ـ أتت نتيجة التطور الناشىء فى عمليات الانتاج ، وتحول الرأسمالية من « برج » الى « متروبول » .

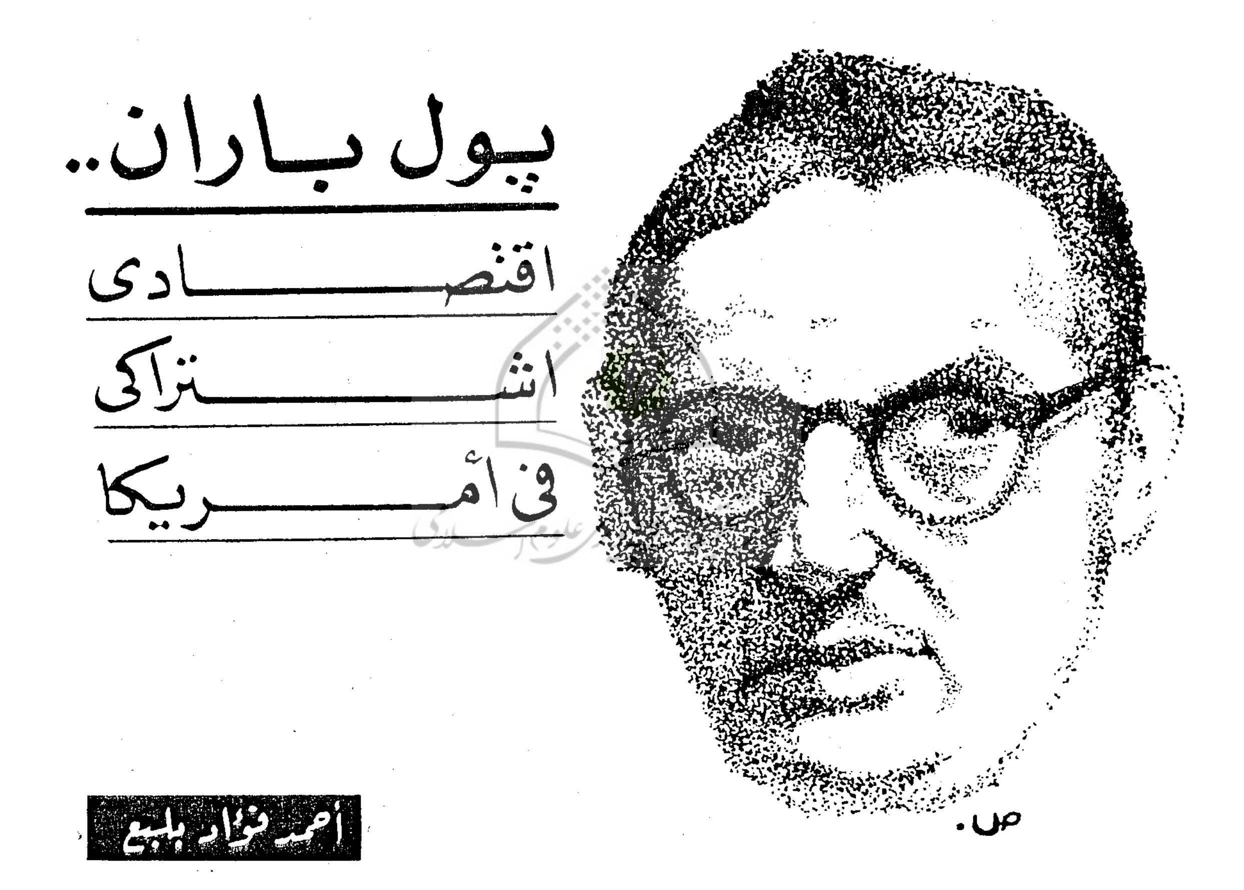
أما أسلوب حمدان أو طريقة كتابته للجغرافيا **فهى** تحتاج الى دراسة بلاغية نقدية مستقلة ، وعبارته ليس سهلا استيعابها فضلا عن تمثلها ، ولكن ليس سهلا أيضا نسيانها . كما ان له اضافات فى مجالات التعريب والاشتقاق والنحت اسهم بها فى معالجة مشكلة المصطلح العلمى عندنا.

ان جمال حمدان علامة ، بل علامة كبيرة ، على الطريق الى فكر مصرى معاصر ، وهو الآن فى رحلة الحياة ، وصل الى سنوات الأربعين ، وسوف تكون أمامه سنوات طويلة ، يثرى فيها حياتنا ، يعطينا من زاد فكره ... من هذا وعليه ، فان ، دراستنا هذه تبقى ناقصة ، وسوف تأتى بعدها دراسات أخرى ، تبدد من سمائنا سحابة اسمها : « **مؤامرة صمت** » .

عبادة كحيلة

فكر سياسى واقتصادى

پول باران.. اقتصادى اشتراكى فى أمريكا



أحمد فؤاد بلبع

● ان الرغبة فى قول الحقيقة لا تعد لذلك سوى شرط واحد لكى يصبح الانسان مثقفا ، أما الشرط الآخر فهو الشجاعة والاستعداد للمضى فى التحقق الرشيد مهما تكن النتائج ، ولتوجيه نقد لا يرحم لكل ماهو قائم .

لم تكن ذاكرة باران تعي شيئا يذكر من تفصيلات حياته الاولى ، كما لم يكن من عادته ان يحكي شيئا من ذلك لاصدقائه . ولهذا امكن الوقوف على الكثير من هذه التفصيلات من الاوراق التي خلفها . فقد كان يجمع قدرا كبيرا من هذه الاوراق ، ويحفظه بطريقة منظمة في مجرى المتاعب المتكررة المتعلقة بجوازات السفر وتصاريح الاقامة وغيرها خلال ذروة المكارثية في الولايات المتحدة ، بين عامي ١٩٥٠ ، ١٩٥٥ .

كانت أوراقه تقول ان تاريخ ميلاده هو ٢٥ أغسطس ١٩٠٩ ، وبذا يكون قد عاش ٥٤ عاما ، حيث انه قد مات في ٢٦ مارس ١٩٦٤ . بيد ان باران كان يقول عن هذا التاريخ انه خطأ ، وأن يوم ميلاده الحقيقي هو ٨ ديسمبر ١٩١٠ ، وهو اليوم الذي كان افراد أسرته وأصدقاؤه المقربون يحتفلون به بالفعل .

وكان أبوه عضوا في جناح المنشفيك في الحركة الاشتراكية الروسية ، ولكنه انسحب من النشاط السياسي لممارسة مهنته الأصلية ، وهي الطب . **وقد كانت هذه الخلفية ذات أهمية كبيرة في تشكيل اتجاهات باران وتطوره الثقافي .**

ونشبت الحرب العالمية الأولى ، وبول في طريقه الى المدرسة ، ولكن الظروف لم تكن تسمح بانتظامه في مدرسة مناسبة ، لذلك أشرف والده على تعليمه حتى سن الحادية عشرة ، وغرس فيه خلال تلك الفترة الاهتمام بالمؤلفات الاشتراكية ، وبالمسائل الاجتماعية والسياسية ، وظل هذا الاهتمام يلازمه طوال حياته .

وقد رحب والده بسقوط القيصرية في عام ١٩١٧ ، ولكن تطور الاحداث بعد ثورة أكتوبر ، وما أعقبها من حروب وتخريب وأهوال، دفعاه الى مغادرة موسكو مع أسرته الى مسقط رأسه فيلنا (التي أصبحت جزءا من بولندا بعد انتهاء الحرب) ، وحصل أبوه وأمه على الجنسية البولندية ، ومن ثم كان بول بولنديا بالوراثة ، **وظل يحتفظ بهذه الجنسية حتى حصل على الجنسية الأمريكية خلال الحرب العالمية الثانية .**

ومن فيلنا انتقلت الأسرة الى درسدن بألمانيا ، حيث التحق بول بالمدرسة الثانوية . وفي هذه الأثناء كانت الأحوال قد تحسنت في الاتحاد السوفييتي ، فعاد والده الى هناك في عام ١٩٢٥ حيث حصل على منصب مغر ، وترك بول في مدرسته الألمانية ليكمل بها دراسته الثانوية . وكانت سنوات بول في المدرسة الألمانية مثيرة ومثمرة ، ففي اثنائها اتقن اللغة الالمانية ، واطلع على مؤلفات كبار علماء الاجتماع الالماني ، وانضم الى الشبيبة الشيوعية والمنظمات الطلابية الشيوعية ، وشارك في نشاطها بحماسة . ثم لحق بوالديه في الاتحاد السوفيتي ، في عام ١٩٢٦ ، حيث التحق بمعهد **بليخانوف** للعلوم الاقتصادية بجامعة موسكو ، ودرس فيه طيلة العامين التاليين . **وتعد حصيلته في هذين العامين ذات أهمية كبيرة في فهم تطوره الثقافي والسياسي .**

يقول بول باران عن هذه الفترة انها كانت فترة الانشقاق الكبير بين جناحي ستالين وتروتسكي في الحركة الشيوعية ، وان المناقشات والمجادلات بين الجناحين قد طغت على الحياة الثقافية بجامعة موسكو . وكان عدد من أساتذته في جناح تروتسكي ، وكان هو أكثر ميلا الى جانبهم ، وبخاصة فيما كانوا يطالبون به من مزيد من «**الحرية والديمقراطية**» بالبلاد ، بيد أنه كان من صغر السن وضعف الارتباط بالحياة الروسية بحيث لم يكن يسمح له ذلك بالقيام بدور نشط في هذا الجدل السياسي . وبدأت « **عقيدته الشيوعية** » تهتز بصورة خطيرة ، وأخذ يحن بشدة الى «**المناخ الثقافي الطليق**» الذي كان يسود ألمانيا في تلك الفترة . وفي الوقت نفسه كان قد أصبح باحثا مساعدا للأستاذ **س . م .** دوبروفسكي ، مدير المعهد الزراعي الدولي بموسكو . وفي عام ١٩٢٨ عرض عليه أستاذه الذهاب الى برلين،والعمل هناك لمدة عام كمساعد باحث في داسة يجريها المعهد بالاشتراك مع الاكاديمية الزراعية في برلين ، فرحب على الفور ، اذ كانت هذه هي فرصته للعودة الى ألمانيا ، والاقامة في الغرب بصورة دائمة .

حياته في ألمانيا

وفي برلين التحق بول بالجامعة ، على حين كان يعمل بالأكاديمية الزراعية . ومن الناحية السياسية أصبح بعده عن الشيوعية «**المنظمة**» أكثر وضوحا . وكانت الوجهة التي اتخذها الحزب الشيوعي الألماني ، بعد المؤتمر السادس للكومنترون في صيف عام ١٩٢٨ بمثابة انذار له . فقد أعلن هذا المؤتمر بدء ما يسمى « **الفترة الثالثة** » التي قال عنها انها تتميز بانهيار الرأسمالية والاطاحة بها عن طريق النضال الثوري ، وكان الحزب يرى الخطر الرئيسي على الثورة متجسدا في اصلاحية الاشتراكية الاشتراكية الديمقراطيين ، على حين كان باران ،

الديمقراطيين . على حين كان باران ، على العكس من ذلك ، يعتقد أن الخطر الرئيسى هو الثورة المضادة التى كانت النازية تعد رأس حربتها . وكان من رأيه أن السياسة المناسبة للحزب الشيوعى الالمانى تكوين جبهة متحدة مع الاشتراكيين الديمقراطيين وكل القوى المعادية للفاشية · وكانت هذه بلاشك خلافات أساسية استحال اقامة جسر بينها · وبناء عليه انفصل باران عن الحزب الشيوعى الألمانى فى شتاء ٢٩ — ١٩٣٠ ، **وانضم بعد ذلك بعام الى الحزب الاشتراكى الديمقراطى الالمانى باعتباره الحلبة الاكثر آملا التى يمكن فيها مقاومة المد النازى المتصاعد ·**

وعندما انتهت مدة الدراسة المخصصة للبحث؛ قرر باران ألا يعود الى الاتحاد السوفييتى ، وان يقبل منصب مساعد باحث فى معهد البحوث الاجتماعية فى فرانكفورت ، حيث أمكنه مواصلة دراساته · وكان هذا المعهد هو مركز جمهورية فيمار للتفكير الماركسى الخلاق ، ولا ريب ان تطور باران الثقافى قد تأثر بعمق ، وبصورة دائمة ، بخبراته وارتباطاته فى فرانكفورت ·

وتنقل باران بعد ذلك بين برسلاو وبرلين، وكان فى الوقت نفسه يعد رسالته للدكتوراة ، تحت اشراف الأستاذ **اميل ليدرر** ، عالم الاقتصاد الاشتراكى البارز ، الذى أسس فيما بعد « **الجامعة فى المنفى** » الشهيرة ، تحت اشراف « المدرسة الجديدة **للبحوث الاجتماعية فى نيويورك** وأكمل باران رسالته ، وحصل على لقب الدكتوراة بيد أن أحدا من زملائه لسوء الحظ لم يستطع بعد وفاته الحصول على نسخة من هذا البحث ·

وفى برلين تعرف باران على **رودلف هيلفردنج** مؤلف الكتاب الشهير ، « **رأس المال المالى** » ، والمنظر الاقتصادى البارز فى الحزب الاشتراكى الديمقراطى الألمانى ، والوزير فى احدى حكومات جمهورية فيمار · واشترك باران فى تحرير **دى جيزيلشافت** ، الجريدة الرسمية للحزب الاشتراكى ، والتى كان هيلفردنج يرأس تحريرها ·

وبعد وصول هتلر الى السلطة اضطر باران الى مغادرة المانيا ووصل الى باريس فى مايو ١٩٣٣ حيث تعذر عليه كأجنبى مواصلة حياته الأكاديمية وهناك كان يعتمد فى معاشه على الأموال التى يرسلها له أقاربه من بولندا · وفى عام ١٩٣٤ حصل على تصريح (فيزا) لزيارة والديه فى موسكو ، وقام بالزيارة فعلا · ويقول باران أن والديه كانا يريدان منه البقاء معهما،ولكنهما كانا يدركان فى الوقت نفسه **المخاطر التى يمكن أن تحيط به** » لو أنه أقام هناك ، ذلك ان عددا من أصدقائه وزملائه السابقين كانوا يعدونه بطريقة أو بأخرى ضمن أنصار **تروتسكى أو بوخارين ،** كما تعرضوا للنفى ، أو وضعوا تحت المراقبة وبينما كان يجرى التفكير فى مصيره ، حسمت الأمور عندما أخطرته السلطات السوفييتية أنها لن تجدد اقامته بعد ١٩ يناير ١٩٣٥ ، فغادر الاتحاد السوفييتى فى ذلك التاريخ ·

انتقاله الى الولايات المتحدة

كانت فيلنا ، مقر اقاربه فى بولندا ، هى المكان الوحيد الذى استطاع الذهاب اليه · وكان اقاربه يعملون فى قطع وتصدير اخشاب فيلنا ذات الشهرة العالمية ، فرتبوا له عملا فى وارسو لحسابهم ، ولحساب غرفة فيلنا للتجارة · واقتضى منه عمله الجديد التنقل خارج بولندا ، وتمكن خلال اسفاره من ان يقيم علاقات سرية مع جموعات معادية للنازية فى المانيا ، وعهد اليه بمهمة محفوفة بالمخاطر ، هى الاتصال بالمجموعات الالمانية الموجودة فى المنفى · والى جانب ذلك اكتسب باران من عمله التجارى خبرة كبيرة فى مجال ادارة الاعمال · وفى عام ١٦٢٨ ارسل الى لندن، اكبر مشتر لاخشاب فيلنا ، وخلال اقامته فى لندن أخذ يتعلم الانجليزية لأول مرة فى حياته · وعلى الرغم مما حققه باران فى دائرة الأعمال من نجاح ، ومن أن دخله منها كان أعلى من أى دخل يأمل فيه من الحياة الاكاديمية ، كان غير راض عن عمله ، ويتوق الى العودة الى حياته الثقافية · وفشلت جهوده فى الحصول على عمل أكاديمى فى انجلترا ، على حين كان شبح الحرب يزداد وضوحا · لذا قرر فى عام ١٩٣٩ الاستفادة من مدخراته والرحيل الى الولايات المتحدة ، بغية استئناف دراسته للاقتصاد فى جامعة أمريكية ، وبخاصة أن « **الثورة** » الكينزية قد حدثت بأسرها خلال مدة اعتزاله للحياة الاكاديمية وأمكنه الرحيل الى الولايات المتحدة ، فى أكتوبر ١٩٣٩ ، حيث قبلته جامعة هارفارد طالبا بالدراسات العليا ، مع وضع دراسته السابقة فى ألمانيا فى الاعتبار · **وعلى أية حال فقد اجتاز باران الاختبارات العامة لدرجة الدكتوراة فى فبراير ١٩٤١ ، وحصل على درجة ماجستير فى الآداب ·**

وعندما أوشكت مدخراته على النفاد ، سعى الى عمل يرتزق منه ، فحصل على منحة دراسية بمعهد

بروكنجز في واشنطن للعام الجامعي ١ ــ ١٩٤٢ ، حيث أجرى بحوثا على مشـــــكلات الرقابة على الأثمان . ولذلك كان طبيعيا عندما انتهت المنحة أن يحصل على عمل كباحث اقتصـادى فى مكتب ادارة الأثمان OPA حيث قام بدراسات خاصة لخبرات الرقابة على الأثمان فى البلاد الأخرى .

ولم يطــل به الوقت حتى قدم الأســتاذ **ا . س . ماســون** ، الذى اســتمع باران الى محاضراته فى هارفارد ، الى واشنطن ليرأس أعمال البحوث الاقتصادية فى مكتب الخدمات الاستراتيجية OSS وتمكن من اقناع باران بالانضمام الى هذا المكتب باعتباره متخصصــا فى الشــئون السوفيتية والبولندية والألمانية .

وانتقل باران بعد ذلك الى مكتب الاســتقصاء الامريكى للغارات الاستراتيجية USSBS حيث كان ج . ك . جالبرايث يرأس هناك قسم الآثار **الاقتصادية الشاملة** » . وقد ســبق لباران أن عمل مع جالبريث فى كــل من جامعة هارفارد ومكتب ادارة الأثمان . وفى مارس ١٩٤٥ ارسل الى ألمانيا ، حيث استطاع بفضل معرفته بالألمانية وبتاريخ ألمانيا الاقتصادى ، أن يسهم بدور كبير فى أعمال البحوث . وقد كوفىء على عمله هنـاك بنيشان الاســتحقاق ، وطلب اليــه أن يرأس **قسم الآثار الاقتصـادية الشـاملة** » الذى يقوم ببحوث مماثلة فى اليابان . ولكن باران فضـل الاكتفاء بمنصب رئيس القسم حتى لا يشــغل نفسه بمنصب مثقل بالمسئوليات الادارية . وظل باران فى اليابان ، بعد أن انتهت مهمتـه ، حتى ربيع عام ١٩٤٦ .

ولا شك أن باران يتحمـل قدرا ليس بالهين من المسئولية عن مزاعم القوات الجوية الأمريكية ، فى أثناء الحرب العـالمية الثانية ، بأن الغـــارات الاستراتيجية كانت عاملا هاما فى كسب الحرب . لقد قتلت هــذه الغارات مئات الألوف ، وشردت الملايين ، بيد أن آثارها على الانتاج الحربى ، وعلى القدرة القتالية للجيوش ، فى كــل من ألمانيــا واليــابان ، كانت ضـئيلة بدرجة تبعث على الدهشة .

فترة المتاعب

انتهت أعمال باران فى ال USSBS وقبل بعدها منصب مستشـــار لبعثة الأونرا التابعة للأمم المتحدة U.N.R.R.A الى بولندا ، وهو منصب كان من الواضح أنه مؤهل له تماما .

ولكن وزارة الخارجية الأمريكية رفضــت اعطاءه تأشيرة السفر ، بســـبب اتجاهاته وجنســيته الأصلية . وتوالت ضده الاتهامات فى الصحف وغيرها ، مما يعد الآن تذكرة حية بســخافات الماكارثية . ثم لاحقته بعد ذلك المضايقات والمتاعب المتعلقة بتصــاريح الاقامة وتأشيرات الســفر ، وكانت مضايقات ومتاعب لا نهاية لهـــا . وقد استطاع فى عام ١٩٤٧ الحصول على تصريح لمدة ستة أشهر ، مكنه من السفر الى انجلترا والقاء محاضرات فى جامعة أكسـفورد فى عام ١٩٥٣ ،



من اليسار الى اليمين بول سويزى
ــ بول باران ــ فيدل كاسترو ــ ليو هوبرمان

وهى المحاضرات التى شــكلت بصورة أولية موضوعات كتاب « **الاقتصاد السياسي والتنمية** » يقول باران عن ذلك ، فى مقدمة الطبعة الأولى من هذا الكتاب :

« وقد قدمت موضوعات هذا الكتاب فى أبسط صورة خلال سلسلة من المحاضرات ألقيتهــا فى جامعة أكســفورد فى أثنـــاء دورة الخريف عام ١٩٥٣ » .

ومرة أخرى رفضت وزارة الخارجية الأمريكية تجديد مدة التصريح ، وتجددت المتــاعب ، حتى حصل فى نهاية الأمر ، فى ٧ سبتمبر ١٩٥٥ ، بعد انتهاء أسوأ أيام ما كارثى ، على خطاب من وزارة الخارجية ، بألا اعتراض لديهــا على منحه تسهيلات الاقامة فى حدود القيــود العــادية . **وكان باران يعد ذلك أجمل انتصــار حققه فى حياته** . ولكن الأمر لم يقف عند هذا الحد ، اذ كان يستدعى من حين لآخر لاستجوابه أمام مكتب

التحقيقات الفيدرالى ، وبخاصة فيما يتعلق بصلاته مع محررى **منثلى ريفيو. وكانت السلطات** الجامعية ترغب بدورها ان يكون لها دورها فى الاستفسارات ، كما ظل التهديد باستدعائه أمام لجنة النشاط المعادى لأمريكا مسلطا فوق رأسه كسيف دموقليس .

وبعد أن انتهت أعمال الأونرا فى عام ١٩٤٦ حصل باران على عمل فى وزارة التجارة الأمريكية وظل يعمل بها ويحاضر فى الوقت نفسه فى جامعة جورج واشنطن ، حتى قبل منصبا فى مجلس الاحتياطى الاتحادى (البنك المركزى الأمريكى) بنيويورك ، كان مسئولا فيه عن القسم البريطانى مع مسئولية جانبية هى اعداد تقارير عن التطورات الاقتصادية الهامة فى الاتحاد السوفيتى .

باران والتحليل النفسى

وفى فترة الثلاث سنوات التى قضاها باران فى نيويورك ، درس التحليل النفسى أيضا ، كما ركز على استيعاب القيمة التشخيصية لنظرية فرويد . وكان يقول عن نفسه دائما انه كان يمكن أن يكون طبيبا نفسيا ممتازا . بيد أنه كان يتشكك بعمق فى امكانية شفاء الناس ما دامت ظروفهم الواقعية تظل على حالها ، كما كان يعتقد أن الجوانب المتعلقة بالواقع ، التى تعكس النظام الاجتماعى ـ الاقتصادى بأسره وتضرب بجذورها فيه ، انما هى خارج نطاق العلاج النفسى . ولباران فى هذا الصدد بحث هام هو : **الماركسية والتحليل النفسى** (نيويورك ، ١٩٦٠) . ويقول باران فى هذا البحث **ان رغبات الناس فى الحقيقة انما هى ظواهر تاريخية معقدة تعكس التفاعل الديالكتيكى بين متطلباتهم الفسيولوجية من ناحية ، وبين النظام الاجتماعى والاقتصادى السائد من ناحية أخرى .**

وقد اهتم باران بوجه خاص بدراسة الجوانب السلبية فى نظريات فرويد ، ويقول عن الفكرة التى رددها فرويد ، وهى ان العقل قوة مظلمة لا يمكن ادراكها تحيل هباء بالضرورة كل الجهود الرامية الى تدعيم قضية العقل ، وفى الوقت نفسه تعزو الهيكل الذى لا يمكن ملاحظته للشعور الى قوى حيوية دائمة بدلا من أن تعزوه الى مظاهر الكبت والقلق التى تنتج بصورة مستمرة بوساطة مجتمع منظم بطريقة غير انسانية ، يقول عن هذه الفكرة **انها تشكل الضعف الرئيسى لدى فرويد . والذى أدى به ، وبخاصة فى أعماله الأخيرة ، الى اقتراب خطر من التصوف .**

باران المعلم

وخلال عام ١٩٤٨ دعاه معهد هوفر ، وقسم الاقتصاد بجامعة ستانفورد ، لتقديم حلقة دراسية للخريجين عن التخطيط السوفييتى . وقوبل تدريسه هناك بترحيب شديد ، وكان محل تقدير كبير من صديقه القديم ، وأستاذ قسم الاقتصاد عندئذ ، **تيبورسيتوفسكى** . فقد كان باران معلما عظيما حقا ، وكان يتقن حيل المهنة كما لو كانت قد أودعت فيه بالغريزة . وهو لم يستخدم مهاراته هذه لكسب الشهرة لنفسه ، وانما ليعلم فقط . وكانت محاضراته شاقة ، ولم يكن يطيق الطلبة الأواسط أو الكسالى . وكان التدريس بالنسبة له عملا سهلا فذاكرته كانت رحبة فسيحة ، ومن ثم كانت المعرفة التى اكتسبها من قراءاته الواسعة المنوعة ، أمرا متاحا فى يسر . وكانت لديه قدرة على تنظيم مايريد أن يقوله ، فى أثناء قوله له . ونادرا ما كان يكتب ملاحظات لمحاضرته . وكان من عادته أن يقول انه كان يكتب محاضراته فى رأسه ، فى أثناء انتقاله من بيته الى قاعة المحاضرة . **لذلك كانت محاضراته دائما طازجة ورائعة .**

لقد كانت غزوة باران للعالم الأكاديمى فى صيف عام ١٩٤٨ نجاحا قاطعا . وأحب الطلبة تدريسه ، وأخذ زملاؤه بذكائه وتألقه فى المناقشات . وعندما كانت الحرب الباردة والملاحقات ماتزال فى مراحلها الأولى ، ولم تلق بعد بظلالها المشئومة على قاعات المحاضرات بالولايات المتحدة ، لم يكن هناك من تضايقه كثيرا ماركسيته الصريحة : فكثير من الليبراليين ، بل وبعض المحافظين ، كانوا على استعداد للترحيب بشخص فى استطاعته أن يدافع عن آراء تختلف جذريا عن آرائهم . وكانت النتيجة أن عرض عليه قسم الدراسات الاقتصادية بجامعة ستانفورد ، مع بداية الفصل الدراسى فى خريف عام ١٩٤٩ ، منصب أستاذ مساعد . ثم طلب منه الانضمام بعد ذلك الى مركز البحوث الروسية فى جامعة هارفارد ، ورقى فى عام ١٩٥١ الى منصب أستاذ .

باران والاتحاد السوفييتى

حاول باران فى هذه الأثناء الحصول على تأشيرة سوفييتية لزيارة والديه ، وعندما رفضت السفارة السوفييتية فى واشنطن طلبه ، قبل اقتراح **أوسكارلانج** ، الذى كان يشغل وقتئذ

منصبا فى الحكومة البولندية والذى كانت تربطه بباران صداقة وثيقة منذ سنوات ما قبل الحرب ، بأن يحضر الى وارسو ويحاول من هناك الحصول على التأشيرة المطلوبة .

وبذا يتضح مدى ما كان عليه موقفه من الاتحاد السوفييتى من تعقيد . فالحقائق تقول انه كان منفيا فى عام ١٩٣٥ ، وأنه لم يسمح له بالدخول فى عام ١٩٤٩ ، وبأنه كان شخصا غير مرغوب فيه فى عهد ستالين ، وبأنه لم يسمح له بزيارة الاتحاد السوفييتى الا بعد وفاة ستالين . الى جانب ذلك كان باران فى جلساته الخاصة ينقد صراحة كثيرا من جوانب النظام ، بل وصل به الأمر الى ادانة سلوك وسياسة قوات الاحتلال الروسية فى ألمانيا ، فى صيف عام ١٩٤٥ . ولكنه برغم كل ذلك كان يرفض فى ثبات ورسوخ ووفاء أن يوجه نقدا علنيا الى الاتحاد السوفييتى أو الى زعمائه ، بل يمكن القول ان موقفه فى مجموعه كان متعاطفا وايجابيا . وكان بعض الناس يرون فى ذلك دليلا على أنه ستالينى حقا ، وآخرون كان يرون أن فى داخله روسيا شديد الوطنية .

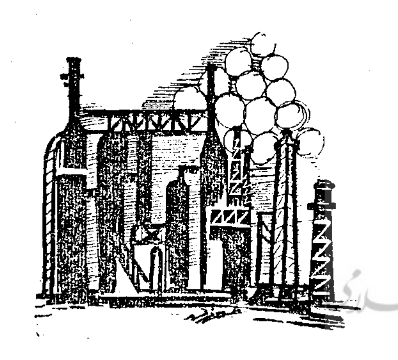
ولا ريب أن هناك شيئا من الحقيقة فى كلا التفسيرين : فعلى الرغم من أنه كان يرثى لتجاوز الستالينية الحدود ، كان على اقتناع حازم بصواب وحتمية سياسات ستالين فى التصنيع وتحويل الزراعة الى الجماعية . ولنأخذ عن باران نفسه بضع فقرات .

فمبدأ انضمام الفلاحين الاختيارى الى المزارع الجماعية كان محل سخرية مستمرة . اذ بينما كانت التصريحات الرسمية تؤكد الطبيعة الاختيارية لحركة التحول الى الجماعية ، محاولة بذلك التوصل الى النتيجة المرغوب فيها ، كان الارهاب والارغام عاملين حاسمين فى انجاز هذا الانقلاب الثورى العميق .

وحقيقة أن التحول الى الزراعة الجماعية فى روسيا ـ على الرغم من كل المعاناة التى صاحبت مرحلته الأولى ـ كان هو الموقف الوحيد الممكن المفضى الى طريق فسيح للتقدم الاقتصادى والاجتماعى والثقافى . قد اكدها ماثلا ذلك من نجاح » . (الاقتصاد السياسى والتنمية ، والترجمة العربية ، ص ٤١٤) .

والى جانب ذلك لاريب أنه كان فخورا بهذا الدور الهام الذى يلعبه وطنه على مسرح التاريخ العالمى . ولكن ما كان أكثر أهمية بالنسبة له هو مشاعره نحو الصراع الطبقى والدور السوفييتى فيه . لقد كان يرى فى هذا الصراع مجابهة جبارة على نطاق العالم ، ولم يكن يخالجه أدنى شك فى أن الثورة الروسية كانت أعظم انتصار للجانب الذى يقف فيه ، ولم يكن من شأن النقد العلنى للنظام الذى انبثق عنها الا أن يجلب العون والراحة لأعداء النظام ، الذين كانوا أعداء له فى الوقت نفسه ، ومن ثم كان حريصا على ألا يفعل . وبذا ظل حتى آخر يوم فى حياته ، **ماركسيا يكرس اخلاصه الأول لقضية الاشتراكية التى كان يرى فيها الأمل الوحيد لمستقبل البشريه .**

ومن المؤكد أن سلوكه السياسى كان متسقا مع هذا الموقف . فبعد أن غادر ألمانيا فى مايو ١٩٣٣



ظل تماما بمعزل عن أى شكل من الأشكال الحزبية ولم يكن ذلك بالنسبة له مسألة مبدأ ، وانما كان ببساطة نتيجة تقدير مدروس من جانبه بأنه يستطيع أن يفعل خارج اطار القواعد الحزبية أفضل كثيرا مما يستطيع أن يفعله بداخلها . كما أن الاشتراكية الديمقراطية التى أنضم اليها فى عام ١٩٣٠ ، كوسيلة لمحاربة الفاشية ، قد أفلست ، ولم تعد لديه أية أوهام بأنها يمكن أن تصبح مرة أخرى على الاطلاق قوة تقدمية . وعلى الرغم من أنه كان يكن بعض التقدير لتروتسكي كمفكر ، لم يكن فى تفكيره شيىء من التروتسكية المنظمة . والى جانب ذلك لم يكن يعتقد **أن بامكانه أن يفعل شيئا ذا دلالة داخل اطار قيود الأرثوذوكسية الستالينية** » . كما يرى فى نفسه مثقفا ينبغى أن يعيش حياته بطريقة تتمشى مع ما كان يعتبره مسئوليات المثقف . وكان هذا يعنى بالنسبة له ، فى الظروف التى سادت

العالم الغربى خلال السنوات الثلاثين الأخيرة من حياته ، « **الاحتفاظ باستقلاله السياسى** » ٠

« التزام المثقف »

كان باران قبل كل شىء مشبوبا بالعاطفة ، وبخاصة فى بحثه عن الحقيقة ، وعن الأوجه التى ينبغى أن تستخدم فيها ٠ ولم يكن ما يريده هو الحقيقة فى حد ذاتها ، وانما المعرفة والفهم اللذان يمكن أن يساعدا فى القضاء على الفقر ، وعلى غيره من الشرور الاجتماعية وقد استطاع باران أن يوضح معتقداته الأساسية فى بحثه القيم « **التزام المثقف** » ، الذى نشر بمجلة **منثلى ريفيو،** عدد مايو ١٩٦١ ولنأخذ عن هذا البحث بضع فقرات يمكن أن تلقى ضوءا على بعض هذه المعتقدات :

« ان الرغبة فى قول الحقيقة لا تعد لذلك سوى شرط **واحد لكى يصبح** الانسان مثقفا ٠ أما الشرط الآخر فهو الشجاعة والاستعداد للمضى فى التحقق الرشيد مهما تكن النتائج ، ولتوجيه نقد لا يرحم لكل ما هو قائم ، لا يرحم بمعنى ألا يفزع النقد سواء من نتائجه الخاصة ، أو من النزاع مع أية قوى موجودة (ماركس) ٠ وهكذا يكون المثقف فى جوهره **ناقدا اجتماعيا،**وشخصا معنيا بالمطابقة ، وبالتحليل ، وبأن يساعد بهذه الطريقة فى التغلب على العقبات التى تعترض الطريق الموصل الى نظام اجتماعى أفضل ، وأكثر انسانية ، وأكثر ترشيدا » ٠

وهذا البحث يعد فى الحقيقة تصويرا لالتزام باران٠وهو لم يكن مقالا أعد بناء على طلب محررى المجلة التى نشرته ، أو أعد بقصد زيادة المكانة المهنية ٠ بل لقد أحس باران بأن عليه أن يكتبه بقدر ما أحس بأن عليه أن يصرخ عاليا ضد غزو كوبا ، وضد كل شرور الامبريالية : **لقد كان ذلك مسئوليته كباحث وكمواطن** ٠ وكان باران يقبل من كل قلبه حكمة **جوته** المأثورة ، وهى أن **« المرء ينبغى عليه من حين لآخر أن يردد ما يعتقد أنه صحيح ، وأن يعلن ما يوافق عليه وما يدينه »** كذلك كان يؤمن بقول ماركس : « ان الفلاسفة قد **فسروا** العالم فقط بطرق مختلفة ؛ ومع ذلك فان النقطة الأساسية هى أن **يغيروه** « ٠ ولذا كان يؤكد دائما أن العلماء الاجتماعيين بالولايات المتحدة ، باغفالهم الحاجة الى التغيير ، قد أصبحوا مجرد مفسرين زائفين عاجزين ٠

منجزات ماركس فى كتابات باران

كان بول باران عالما اجتماعيا وماركسيا ٠ وبينما كان الاقتصاد هو المجال الرئيسى لدراسته، كان اهتمامه بالاقتصاد ومنهجه فى دراسة التطورات الاقتصادية جزءا لا يتجزأ من سعيه المستمر نحو فهم أفضل للمجتمع البشرى ، يمكنه من اكتشاف كيفية سيره ، وكيفية تغييره لصالح الانسان ٠ **وقد وجد باران فى كتابات ماركس التفسير الأكثر ملاءمة وارضاء لكيفية تغير المجتمعات ، وأسباب هذا التغير ولأصل المجتمع الرأسمالى وتطوره ، ولتحوله الى مجتمع اشتراكى٠**

ومن المؤكد أن باران كان يعرف من أعمال ماركس ما يجعله على مستوى أعظم المتخصصين فى الماركسية ٠ بيد أنه لم يكن يستخدم هذه المعرفة ليصبح مجرد معلق على هذه الأعمال ، أو مجرد شارح لها ٠ كما لم يكن فى دراساته للمجتمع المعاصر يسعى الى تكييف الحقائق مع قوالب « **ماركسية جامدة متصورة سلفا** » ٠ وهو لم يكن يستوعب التحاليل الماركسية فقط ، ولكنه تعلم من ماركس أيضا كيف يوجه الأسئلة الهامة وكيف يسعى الى ادراك العلاقات ذات الدلالة بين الظواهر الاقتصادية والاجتماعية التى لا نهاية لها وعندما يكون بصدد معالجة التغييرات فى الرأسمالية الاحتكارية ، وفى الامبريالية ، وفى هيكل الاشتراكية ، لم يكن يعمد الى تصيد الاقتباسات المناسبة والركون اليها ، بل كان بدلا من ذلك يسأل نفسه: كيف كان لماركس أن يحيط بهذه المشكلة ؟ وكان ذلك من جانبه يعنى تشبثا مستمرا بالحقائق الجديدة ، والنظريات الجديدة ، وصراعا عنيدا معها ، وكيف يكتشف ما هو ذو دلالة ووثيق الصلة بها ، كما كان يعنى اعادة دراسة مستمرة لفروض ماركس على ضوء الحقائق والتطورات الجديدة ٠

ونحن لم نسمع حتى الآن ، وبخاصة فى الدوائر الماركسية ، من ينكر اسهام باران فى مجالات الدراسات الماركسية ٠ وتنبع حيوية ودلالة أهم أعماله ــ **الاقتصاد السياسى والتنمية** ــ من أنه يضرب بجذوره بعمق فى طريقة الفكر الماركسية٠فالهيكل الماركسى للتحاليل الاقتصادية والاجتماعية ، الذى اعتمد عليه باران فى كتابه ، يوفر أكثر الأجهزة فعالية لفهم مشكلات التنمية الاقتصادية ٠ ولقد كان فكر ماركس موجها على وجه التحديد الى مشكلات النمو ، والتنازع الطبقى ، والتغيير الاجتماعى ، وتحول المجتمعات؛ وتلك هى المشكلات العاجلة الملحة التى تواجه العالم المتخلف اليوم ٠ وعلاوة على ذلك فان أسلوب التحليل الذى استخدمه فى دراسة

المجتمع ، باعتباره كائنا حيا ناميا ، وفى الفروق التى تنجم عن التغييرات التاريخية ، يزود عالم الاقتصاد بأدوات صممت خصيصا للنفاذ الى تعقيد المجتمعات المتخلفة ، وهو ما يتضح فى التعبير الذى اختاره باران عنوانا للفصلين السادس والسابع من « **الاقتصاد السياسى والتنمية** » ، وهو « **علم الدراسة صور التاخر** » ٠

وبينما وفرت أعمال ماركس مفاهيم وطرقا للفكر نمت فيما بعد فى المحيط الماركسى ، كان باران فى مقدمة من أسهموا فى ازالة ما قد يكون عالقا بها من غشاوة ٠ ولقد كان من العقبات الرئيسية أمام التحليل البناء فى هذا المجال ، **القبول الصريح أو الضمنى لاطار جامد للمراحل** الاقتصادية للتطور الاجتماعى ٠ فما دامت أوربا الغربية قد مرت خلال مرحلة الاقطاع قبل الوصول الى مرحلة الرأسمالية ، وما دامت مرحلة الرأسمالية كانت سلفا للاشتراكية ، افترض كثيرون من اتباع ماركس أن هذا التعاقب كان قانونا ضروريا للتطور الاجتماعى ٠ ومن نافلة القول أن هذا المفهوم غريب على العلم وعلى التفكير الماركسى ٠ لقد كان الانجاز العظيم لماركس هو اكتشافه لحقائق عامة تتعلق بالتغيرات النوعية التى حدثت فى المناطق الجغرافية والأزمنة التاريخية التى درسها استنادا الى ما كان متاحا له من أدلة ٠

وقد تأثر باران بهذه التعميمات والتصورات المسبقة ، واعتبرها المرشد الاكثر جدوى لارتياد المسائل المتعلقة بالتاريخ والعلوم الاجتماعية ، ولكنه لم يقطع شوطا ملموسا فى تطويرها ٠ بيد أن ذلك لم يكن يعنى قبوله لتصميم تاريخى علوى لكل الشعوب ، بصرف النظر عن التطورات التاريخية النوعية ٠ كما أن استقلاله فى الفكر ، وتعمقه فى الدراسة ، وموهبته الفذة فى التاليف والتركيب والتخليق ، قد مكنته من أن يقدم اضافة بالغة القيمة ، وأكثر التصاقا بالواقع ، الى تحليل الامبريالية ٠

باران والثورة الكوبية

أخذت المضايقات والملاحقات تزداد فى ستانفورد ، وفى غيرها من الجامعات الأمريكية ، وأتى ذلك بنتائجه المطلوبة بالنسبة لزملائه فى الجامعة ، بيد أنه أتى بنتائج عكسية تماما بالنسبة لبول باران : فكلما كانت الضغوط تزداد ، كان يزداد نضالية وصلابة وصراحة ، مما أسفر عن فتور العلاقات بينه وبين زملائه ، بل وعن قطيعة صريحة فى نهاية الأمر ٠ وكانت القشة التى قصمت ظهر البعير هى تمجيده المزهو الفخور الجرى لفيدل كاسترو والثورة الكوبية ٠

ودفعه هذا الاحساس بالوحدة ، وبخاصة بعد انتصاره فى معركة جواز السفر ، فى عام ١٩٥٥ ، الى السفر خارج البلاد كلما أتيحت له الفرصة ٠ فأمضى بضعة شهور من صيف ذلك العام بالهند ، ضيفا على « **المعهد الهندى للاحصاء** » ، خرج منها بايمان عظيم بالامكانيات الهائلة المتاحة لتلك البلاد ٠ ثم عاد الى الغرب عن طريق موسكو ، حيث زار والده بعد عشرين عاما من الفراق ٠ كما زار عددا من عواصم دول أوربا الشرقية ٠ وقد لعبت الانطباعات التى خرج بها من زياراته لبلاد المعسكر الاشتراكى دورا هاما فى **تحديد** ردود فعله تجاه الثورة الكوبية ٠

وقد رافق باران وزميليه فى تحرير مجلة **فشلى ريفيو** ، ليوهر برمان وبول سويزى ، فى زيارة لكوبا فى مارس ١٩٦٠ ٠ وقد دفعهم الى هذه الزيارة احساسهم بالعجز ، بوضعهم محررين فى مجلة اشتراكية ، عن تحديد موقفهم من الثورة الكوبية على أساس المعلومات المتاحة لهم فى الولايات المتحدة من خلال وسائل الاعلام الأمريكية والغربية ٠ **وقد اخذ الثلاثة تماما بسحر هذه الثورة الجديدة الفتية ، وبمنجزاتها وآفاقها ، وكادوا آن يقتنعوا على الفور بأن منطق التطور الداخلى والدولى لهذه الثورة لابد أن يدفعها بالضرورة فى الاتجاه الاشتراكى** ٠

وبعد الأحداث العاصفة بالجزيرة ، فى صيف عام ١٩٦٠ ، كان الثلاثة تواقين للعودة الى كوبا ٠ وبرغم ما صادفوه هذه المرة من عوامل قد تكون مخيبة لآمال البعض ، وكذلك من أخطار داخلية ، ظل الثلاثة حتى النهاية ، وفى مقدمتهم باران ، على ايمانهم الواثق المتفائل بمستقبل هذه الثورة العظيمة ٠

وقد قدم باران اسهاما جليلا للثورة الكوبية ، بالكتيب الهام الذى أصدره عنها فى ١٧ نوفمبر ١٩٦١ ، ضمن « **سلسلة كتيبات فشلى ريفو** » ، تحت عنوان : « **تاملات فى الثورة الكوبية** » ٠ كما أن كتابه الهام «**رأس المال الاحتكارى** » ، الذى صدر بعد وفاته بالتعاون مع **بول سويزى** ، قد تصدره اهداء الى الثائر الكوبى ، وشهيد حركة التحرير بأمريكا اللاتينية ، **ارنستو جيفارا** ٠

أعمال باران

يمكن تقسيم أعمال باران الى عدة فئات :

الفئة الأولى وتتضمن كتابين ، هما **الاقتصاد السياسى والتنمية ، ورأس المال الاحتكارى ،** وسنتناول هذين الكتابين فيما سيأتى بشيىء من التفصيل .

ثم هناك مجموعة مقالاته الهامة ، ولباران فى هذا الصدد ما يقرب من خمسة وعشرين بحثا هاما ، أشرنا الى بعضها فيما سبق . وقد نشر بعض هذه المقالات فى مجلات متخصصة ، ونشر البعض الآخر فى مجلتى **نيشن ، وفشلى ريفيو .** كما صدرت له مجموعة أخرى من المقالات ضمن سلسلة سميت Historicus ، كان من أهمها : « الفاشية فى أمريكا » ، و «دبلوماسية الدولار» ، وقد نشرت جميعا بمجلة **فشلى ريفيو** . وصدر له أيضا كتيبان سبق أن أشرنا اليهما : « **الماركسية والتحليل النفسى** » ، **وتأملات فى الثورة الكوبية** .

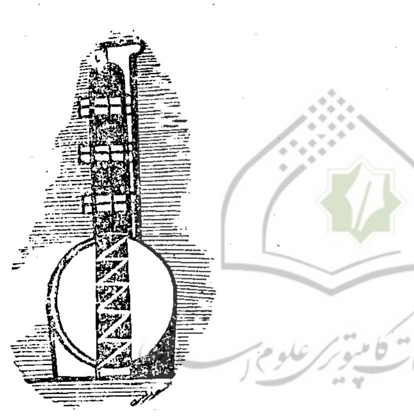
وقد أسهم باران فى ستة أعمال جماعية هامة ، ونذكرهنا أسماء أبحاثه مع ذكر أسماء الأعمال الجماعية التى وردت فيها حسب تواريخ صدورها : (١) « المحاسبة القومية وتحديد الثمن فى الاتحاد السوفيتى » ، فى **سلوك التكاليف وسياسة الثمن** ، ١٩٤٣ ؛ (٢) فصول فى **آثار الغارات الاستراتيجية على اقتصاد الحرب الألمانى،** ١٩٤٥ ، (٣) فصول فى **آثار الغارات الاستراتيجية على اقتصاد الحرب اليابانى** ، ١٩٤٦ ؛ (٤) « الاتحاد السوفييتى العالمى » ، فى **السياسة الاقتصادية الخارجية للولايات المتحدة ،** ١٩٤٨ ، (٥) « التخطيط الاقتصادى القومى » ، فى . **استقصاء للاقتصاديات المعاصرة،**١٩٥٢ (٦) «تأملات فى القصور النسبى للطلب الاستهلاكى» فى **تخصيص الموارد الاقتصادية** ، ١٩٥٩ ، وقد نشر هذا البحث أيضا فى عمل جماعى آخر صدر فى اليابان ، فى عام ١٩٦٠ ، تحت اسم **هل تغيرت الرأسمالية ؟**

وقام باران بعرض عدد كبير من الكتب المتخصصة فى المجلات ذات الصلة ، وذلك الى جانب كبير من الموضوعات المتنوعة .

« الاقتصاد السياسى والتنمية »

يمثل هذا السفر العظيم الفضل الأساسى لبول باران فى ميدان البحوث الاقتصادية . وقد أحدث الكتاب فور صدوره ضجة كبيرة فى الأوساط العلمية ، وتناولته بحوث كثيرة بالدراسة والتعليق . وقد أتيح لى شرف نقل هذا الكتاب الى العربية ضمن « **مشروع الألف كتاب** » ، وصدر الكتاب عن **دار الكاتب العربى** ، فى مايو ١٩٦٧ . ولا شك أن هذا الكتاب هو وكتاب «**الاقتصاد السياسى**» ، المجلد الأول لأوسكار لانج (دار المعارف بمصر ، ١٩٦٨ ، ترجمة **الدكتور راشد البراوى** ، ومراجعة وتقديم **الدكتور اسماعيل صبرى عبد الله**) ، يعدان من أهم الدراسات الاقتصادية الموجودة الآن بالمكتبة العربية .

وقد سبق لى تقديم عرضين مفصلين للكتاب : الأول حسب تاريخ النشر فى مجلة **الفكر المعاصر،** عدد سبتمبر ١٩٦٧ ؛ والثانى فى مجلة **مصر المعاصرة** ، التى تصدرها « **الجمعية المصرية للاقتصاد السياسى والاحصاء والتشريع** » ، عدد أكتوبر ١٩٦٧ . ولذا لا أجدنى هنا بحاجة الى



اطالة الحديث عن مضمونه ، وانما سأكتفى بعرض الفكرة الرئيسية فيه . فقد قدم الكتاب لأول مرة نظرية متكاملة لظاهرة التخلف قوامها مفهوم باران عن الفائض الاقتصادى . وتصدر تحليلات باران للفائض الاقتصادى فى هذا الكتاب الأساسى الذى وفرته تحليلات ماركس . ويفرق باران بين ثلاثة أشكال لهذا الفائض :

١ ـ الفائض الاقتصادى **الفعلى** ، ويعرفه بأنه الزيادة فى الانتاج **الفعلى** على الاستهلاك **الفعلى** الجارى ، ويتخذ شكل مختلف الأموال أو التراكم الجارى ، ويتخذ شكل مختلف الاموال التى تزداد بها الثروة الاجتماعية خلال فترة معينة . ويفرق باران بين كل من سلع الاستهلاك وسلع الانتاج، لا على أساس الصفات المادية للأصول ، وانما على أساس وظيفتها الاقتصادية .

٢ ـ الفائض الاقتصادى **الاحتمالى** ، ويعرفه بأنه الفرق بين الانتاج الذى يمكن تحقيقه فى ظروف طبيعية وتكنولوجية معينة ، عن طريق ما

يتاح استخدامه من موارد انتاجية وبين ما يمكن اعتباره الاستهلاك الأساسى . ويختلف مفهوم الفائض الاقتصادى الاحتمالى عند باران عن مفهوم **فائض القيمة** عند ماركس ، لأنه وان كان يتضمن عناصر فائض القيمة التى تسمى « **الاستهلاك الضرورى للرأسماليين** » ، يتضمن أمورا أخرى لا يغطيها فائض القيمة ، مثل الناتج المهدر بسبب نقص العمالة، أو سوء استخدام الموارد الانتاجية .

٣ ـ الفائض الاقتصادى **المخطط** ، وهو لا يتوافر الا فى تخطيط اقتصادى شامل فى ظل الاشتراكية ، كما يمثل الفرق بين ناتج أمثل لا يتحقق الا فى ظل استخدام مخطط أمثل لكل الموارد الانتاجية المتاحة ، وبين حجم مخطط **أمثل** للاستهلاك . ويختلف معنى ومحتوى عبارة « **الأمثل** » عند باران اختلافا أساسيا عما يرتبط بهذه الفكرة فى الاقتصاد البورجوازى ، حيث الانتاج والاستهلاك كلاهما اعتبارات الربح ، كما تتحكم فيهما الأذواق والضغوط الاجتماعية وطريقة توزيع الدخول .

ولا بأس من أن نورد هنا تعليقات بعض كبار الاقتصاديين الاشتراكيين على **الاقتصاد السياسى والتنمية** .

قال شارل بتلهيم :

« مما لا شك فيه أنه ليس من المتيسر بعد تقويم كل مساهماته للعلم الاقتصادى . ومع ذلك أعتقد أن تحليله للفائض الاقتصادى ، ولمضمون هذا الفائض ، وأشكاله المتنوعة ، وللتناقضات الناشئة عن وجوده ونموه ، كان من أكثر الأعمال حيوية » **منثلى ريفيو** ، عدد مارس ١٩٦٥ ، ص ٨٨ .

« واننى أعتبر أن تحليلات بول باران تمثل مساهمة أساسية فى تقدم الفكر الاقتصادى . وفى تقديرى أن مفهومى الفائض الاقتصادى الاحتمالى والفائض الاقتصادى المخطط يجب التمسك بهما وتعميقهما . « شارل بتلهيم ، (التخطيط والتنمية ، ترجمة الدكتور اسماعيل صبرى عبد الله ، دار المعارف بمصر ، ١٩٦٦ ، ص ١٠٨ .)

وقال **موريس دب :**

« وربما يان من أكثر أعماله شهرة ، عمله المثير الرائع ، الاقتصاد السياسى والتنمية ، الذى حبب مؤلفه بصفة خاصة الى أولئك الساعين الى الاستقلال ، والى تحسين الأوضاع الاقتصادية فى البلاد المتخلفة ، والعاكفين على انقاذ بلادهم من شراك الاستعمار الجديد» (منثلى ريفيو، عدد مارس ١٩٦٥ ، ص ٦ ـ ٨٧) .

وقال أوسكار لانج :

« هذه المحاولات الرامية الى اظهار استحالة أو عدم أفضلية تصنيع البلاد المتأخرة ، يصفها بول ا . باران فى كتابه **الاقتصاد السياسى والتنمية** ، (نيويورك ١٩٥٧ ص ٥ـ١٨) . ان كتاب باران يعتبر حتى الآن العرض الماركسى المنتظم الوحيد لمشكلات نظرية النمو الاقتصادى» **الاقتصاد السياسى** ، المرجع السابق ، ص ٣٣٣ حاشية . (الصفحات ٥ـ١٨ من الطبعة الانجليزية التى أشار اليها أوسكار لانج تقع فى الصفحات ٤ ـ ٧٨ من الترجمة العربية .)

رأس المال الاحتكارى

بحث فى النظام الاقتصادى والاجتماعى الأمريكى

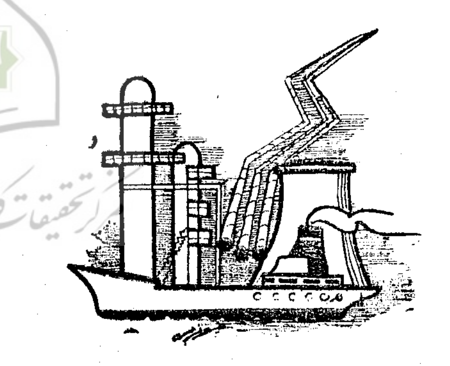
أصدر بول ا . باران هذا الكتاب ، بالاشتراك مع بول م سويزى . وقد بدأ الاثنان فى اعداد الكتاب قبل عشر سنوات على صدوره (عام ١٩٦٦) وسبق لهما أن نشرا أجزاء منه فى مجلة منثلى ريفيو عددى يوليه وأغسطس ١٩٦٢ . وقد اشترك الاثنان معا فى مناقشة كل فكرة وردت فيه ، ثم اقتسما صياغته الأخيرة فيما بينهما . بيد أن باران توفى فى مارس ١٩٦٤ ، قبل أن ينتهى من صياغة الجزء الخاص به ، فأخذ سويزى على عاتقه بقية المهمة ، ، وصدر الكتاب فى عام ١٩٦٦ .

وليست هذه المرة الأولى التى يتعاون فيها باران وسويزى فى عمل فكرى ، بل كان التعاون بينهما ، فيما صدر عن كل منهما من أعمال ، طابعا لصداقتهما التى استمرت ما يزيد على عشرين عاما . ولنأخذ بضع عبارات من مقدمة باران لكتابه « **الاقتصاد السياسى والتنمية** » :

أما الدين الاكبر فهو لبول م . سويزى الذى ظفرت بصداقته الكريمة لمدة تقرب من عشرين عاما ، فالشجاعة والوضوح ، والايمان الذى لا يتزعزع بقضية العقل ، كل ذلك جعل من أعماله الفكرية بقعة نور فى تاريخ أمريكا الثقافى فيما بعد الحرب ، وكان بالنسبة لى فى كل وقت معينا لا ينضب من الانعاش والتشجيع ، ويندر أن تجد فى هذا الكتاب قضية عولجت دون أن تكون مناقشاتنا قد تناولتها فى مناسبة أو فى أخرى . ومن المستحيل على أن أحدد ما يخصه من

من الأفكار التى وردت فيه وما يخصنى منهـا ، ولكننى أسارع فأقول انه لامسـتر سويزى ولا أى صديق آخر غيره يمكن أن يعد مسئولا عن أية أخطاء او أى خلط يشـوب استدلالى ، بل انهـا ترجع جميعا لتقصيرى وأحيانا لعنادى» (الاقتصاد **السياسى والتنمية** ، الطبعة العربيـة ، المرجع السابق ، ص ٨ ـ ٩ ٠)

ورأس المال الاحتكارى ليس كتابا عاديا ، بل هو بلا جدال مساهمةأساسية فىالفكر الماركسى، واضافة هامة الى ماتضمنته الكتابات الماركسـية عن هذا الموضوع ، وبخاصة « **رأس المال المالى** » **لرودلف هيلفردنج (١٩١٠)** ، و « **الامبريالية : أعلى مراحل الرأسمالية** » **لفلاديمير لينين (١٩١٧)** وككل جديد فى عالم الفكر ، أثار الكتاب موجة من النقد والتعليقات ٠ ففى الندوة التى عقدتها مجلة**السلم والاشتراكية** بمدينة براج ، فى نهاية عام ١٩٦٧ ، بمناسبة مرور مائة عام على صدور **رأس المال** لكارل ماركس ، وخمسـين عاما على



صدور « **الامبريالية : أعلى مراحل الرأسمالية** » لفلاديمير لينـين ، والتى دارت حول موضـوع **رأسمالية الدولة الاحتكارية** ، واشترك فيها علماء الماركسـية من مختلف البـلدان ، وجه بعض المشتركين فى الندوة النقد لبعض أفكار الكتاب ، وبخاصة تلك المتعلقة بدور رأسـمالية الدولة الاحتكارية ٠ (أنظر : الرأسمالية الحديثة ؟ **السلم والاشتراكية** ، براج ، ١٩٦٨ ، ص ٢٩ ٠) ٠ كذلك نقد شارل بتلهيم بعض أفكار الكتاب فى تقديمه للترجمة الفرنسية (فرانسو ماسبيرو ، باريس ، ١٩٦٨ ٠)

والكتاب يبدأ بتسجيل فشل المشتغلين بالعلوم الاجتماعية فى تفسـير الواقع الاجتماعى ٠ ثم يتحدث عن ركود الماركسية فى مجـال العلوم الاجتماعية (الطبعـة الانجليزية ، ص ١٧) ٠

ويعترض بتلهيم على ذلك قائلا انه اذا صـح أن النظرية الماركسية لم تتطور فى مجـال معرفة الرأسمالية المعاصرة ، فانه لا يمكن القول بركود الماركسية على حين نجد فى مؤلفات ماوتسى تونج تعميقا لقضـايا المادية الجدلية ، وبخاصـة عند تحليله للتناقضات الموجودة فى تكوينات مرحلة الانتقال الى الاشتراكية ٠

***

ويمضى الكتاب قائلا ان ركود الماركسية لايمكن تفسيره بسبب واحد ، بيد أن هناك عاملا هاما لعب دوره فى ذلك ، وهو أن التحليـل الماركسى للرأسمالية مازال يقوم فى المرجع الأخـير على فرضية المجتمع التنافسى ٠ ويقف بتلهيم عند هذه الفكرة لأن لهـا فى تقديره نتائج بعيدة المدى ، ويرد عليها بقوله ان الفكر الماركسى كفكر علمى متبلور لا يقوم على أساس افتراضى ، أو على فكرة « **النماذج** » ، وهى فكرة تجريبيـة ، ذلك أن ماركس لم ينشىء « **نماذج** » اقتصـاد تنافسى ، ولم يتصد لوصف ما أسماه « **وهم المنافسة** » ٠ بل وضع ماركس نظرية أسلوب الانتاج الرأسمالى باعتباره مركبا من قوى الانتاج وعلاقات الانتاج وهذا المركب هو الخاصـية الغالبة لكل تكوين رأسمالى أيا كانت المرحلة التى يجتازها أسلوب الانتاج الرأسمالى ٠

وقد أغفل الكتاب (ص ٧٥) فكرة المراحل ، وتحدث عن نموذجين : نموذج تنافسى ، ونموذج احتكارى ٠ ولذا رفض الكتـاب صراحة فكرة « **رأسمالية الدولة الاحتكارية** » ، وهو ما نقده المشتركون فى ندوة السلم والاشتراكية ٠

ويقول الكتـاب انه قد يبدو غريبـا للملمين بكتابات لينين أن نقول ان التحليـل الماركسى للرأسمالية ما زال يرتكز على فرضـية المجتمع التنافسى ٠ اذ أن لينين ، عند تحليله للسياسة الدولية فى الفترة السابقة للحرب العالمية الأولى ، أخذ فى اعتباره تماما سيطرة الاحتكار فى البلدان الرأسمالية المتقدمة ٠ وهـذا التقدم الحاسم فى الماركسية يفسر الى حد كبير صحة الماركسية فى صورتها اللينينية والمادية ٠ ولكن يبقى صحيحا أنه لا لينين ، ولا أى أحـد من تلامذته ، حاول استجلاء نتائج سيطرة وغلبة الاحتكار على قوانين حركة الاقتصاد الرأسمالى ٠

ان ماركس كان يدرك وجود الاحتـكاز فى بريطانيا ، ولكنه كان يعتبره من جهـة من بقايا

الماضى الاقطاعى والتجارى ، ومن جهة أخرى تبين الاتجاه القوى نحو تركز ومركزة رأس المال . ولكنه لم يحاول البحث فيما كان يعتبر آنذاك نظاما افتراضيا لم يخلق بعد ، يسوده الاحتكار. ويعتبر لينين أول من أدخل الاحتكار فى صلب النظرية الماركسية ، لكنه لم يعتبره عنصرا كيفيا جديدا فى الاقتصاد الرأسمالى ، بل يدخل تعديلات قوية فى الجوهر على القوانين الماركسية الأساسية للرأسمالية . وقد بنى لينين نظريته على سيادة الاحتكار فى البلدان الرأسمالية المتطورة ، ولكنه لم يتابع ، هو أو تلامذته، المسألة على أسس النظرية الاقتصادية الماركسية . ويقول الكتاب ان الوقت قد حان للقيام بهذه المهمة بصراحة ، وبصورة جذرية .

ويقول الكتاب ان هدفه هو بدء عملية التحليل المنظم للرأسمالية الاحتكارية على أساس تجربة أكثر المجتمعات الرأسمالية تقدما . والكتاب لا يدعى الشمول ، بل يركز حول تولد وامتصاص الفائض فىظروفالرأسمالية الاحتكارية . ويحيل فى موضوع «الفائض الاقتصادى» ، الى **الاقتصاد السياسى والتنمية** ، أما عن استخدام الفائض فيقول ان الذى يلعب دورا حاسما فى تحديده — ومن ثم فى تحديد طابع المجتمع برمته — انما هو متطلبات الصراع الطبقى الدولى . كما يقول ان المبادرة الثورية ضد الرأسمالية قد انتقلت من يد البروليتاريا فى البلدان التى كانت متقدمة أيام ماركس ، الى الجماهير الغفيرة فى البلدان المتخلفة اليوم ، وذلك فى نضالها من أجل التحرر من سيطرة الامبريالية واستغلالها .

***

وفيما يتعلق بمقدار الفائض يرى الكتاب أنه يميل بقوة ، وباستمرار ، الى الازدياد نتيجة لكفاح رأس المال الاحتكارى الدءوب من أجل خفض التكاليف ، ومن ثم تزداد الأرباح . كما يرى أن الفائض يزداد بصورة مطلقة ونسبية ، وهو ما يتعارض مع قانون ميل معدل الربح الى الانخفاض ، ذلك القانون يسرى فى الرأسمالية التنافسية . ويعترض بتلهيم على ذلك ، وينفى وجود أى ارتباط بين قانون ميل معدل الربح الى الانخفاض وبين المنافسة ، ويقول انه يتفق مع ماركسى فى أن هذا القانون ينبع من « **جوهر أسلوب الانتاج الرأسمالى** » ، ولا يمكن أن يختفى الا بزواله .

***

١ — والى جانب ذلك قدم الكتاب بحثا هاما عن **الشركة العملاقة** « Giant Corporation » وأوضح أن لها عددا من القسمات المميزة أهمها : —

١ — ان الاشراف عليها يكون فى أيدى الادارة التى يمثلها مجلس المديرين وكبار الموظفين . أما المصالح الخارجية (صغار أصحاب الأسهم ، بل ومتوسطوهم) فليس لها سلطة فعلية .

٢ — الادارة مجموعة متوارثة ، بمعنى أن كل جيل منها يجنده الجيل الذى سبقه .

٣ — أن الشركة تستهدف ، وهى تحقق عادة ، استقلالا عن طريق التمويل الذاتى . وقد أبرز الكتاب حقيقة هامة هى اختفاء نظرة « **مجموعة المصالح** » وهى مجموعة الشركات التى تكون خاضعة لنفوذ وسيطرة تمويل خارجى يتمثل فى ثروة احدى الأسر ، أو فى بنك ضخم من بنوك التمويل ، مثل بنك مورجان أو بنك روكفلر ، وتلك نتيجة مترتبة على القسمة الثالثة .

***

بهذا العرض نكون قد قدمنا لمحة سريعة عن حياة ومنجزات عالم اقتصادى واجتماعى عملاق . ولا ريب أنه يوجد كثيرون ، وأنا واحد منهم ، ممن لا يرون فى هذا العالم النمط المثالى للمفكرين بل ويفضلون عليه المفكر الأكثر التزاما ، والأكثر تقبلا للقيود . بيد أنه نمط وجد ، وما زال يوجد ، وسيظل موجودا لفترة من الزمان . وقد تكون هناك ظروف موضوعية تسمح بوجوده ، كالعصر الستالينى بالاتحاد السوفييتى على سبيل المثال ، أو الحرب الباردة ومؤامرات الامبريالية ، أو النزاع السوفييتى الصينى وغيره من صور النزاع داخل المعسكر الاشتراكى نفسه .

ومع ذلك لا ينبغى أن يحملنا ذلك بأية حال على أن نغمط مثل هذا الطراز من المفكرين حقهم وفضلهم على المعرفة البشرية والتراث الفكرى . وبرغم كل شىء نجد لزاما علينا أن نضع **بول الكسندر باران** فى مصاف كبار علماء الاقتصاد الماركسيين فى القرن العشرين ، — جنبا الى جنب مع موريس دب ، وشارل بتلهيم ، وأسكار لانج ، وبول م سويزى .

احمد فؤاد بلبع

لم تكن ثورة ١٩١٩ وليدة سعد ولا وليدة الوفد ، بل كان كلاهما وليد الثورة .



عاطف الغمرى

هناك ظاهرة بارزة فى سطور التاريخ المصرى الحديث تسجل للأرض دورا هاما فى الحركة الوطنية فى مصر . **هذا الدور نابع من ذلك الصراع الطويل بين طبقة كبار الملاك التى عملت بمختلف الاساليب على توسيع ملكيتها على حساب الفلاح وتسخيره فى خدمتها ، وبين سعى الفلاح لتعديل نظم تملك الارض ، والتخلص من الاستغلال الزراعى** . وكان الفلاح يواجه فى هذا الصراع تحالف الانجليز مع كبار ملاك الارض .

ويتجسد دور الارض بكل جلاء خلال مراحل **الحركة الوطنية المصرية** وبالأخص أثناء أحداث **الثورة العرابية ، وثورة ١٩** .

البداية مع محمد على

غرس **محمد على** بذور الصراع على الارض الزراعية فقد فتح أبواب مصر للأجانب وجعل منهم الطبقة الأولى فى البلاد ، وبدأ فى توزيع

الارض على أفراد أسرته ، وعلى الموظفين الاتراك والجراكســة ، والأوربيين ، الذين تكونت منهم جميعا طبقة ملاك الارض ؛ التى ارتبطت مصالحها بمصالحه وبقاء حكمه واستمراره ٠

ولقد واصل خلفـــاء محمد على من بعده نفس سياسته ٠٠ وفى عهد **الخديو توفيق** انضمت الى دائرة ملاك الارض طبقة من المصريين حين راعى الانجليز بيع أملاك الدائرة السنية (**دائرة الخديو اسماعيل**) عند تصـفيتها الى من لم يتنـاولهم الاتهـام بالاشتراك فى الثـورة العرابية أو مناصرتها ٠

هذه الطبقة وصفها اللورد **الننبى** بقوله « **انه من الممكن أن يجلو الانجليز عن مصر وهم مطمئنون الى أنهم خلقوا طبقة من الكبراء تستطيع انجلترا أن تستأمنهم على سياستها فى هذه البلاد ٠ وهم فى نظر انجلترا درع يدافع عن سياستها كمـا يدافع عنها الاسطول البريطانى** ٠٠ » ٠

تركزت الثروة الزراعيـــة فى يد أفراد هذه الطبقة وبقيت الغـــالبية العظمى من أهل الريف سواء كان هؤلاء من صغار الملاك أو المستأجرين أو العمال الزراعيين فى حـالة من التبعية الكاملة **اقتصاديا وسياسيا واجتماعيا** لطبقة كبار الملاك ٠ وتحـالف النظام الملكى الحـاكم والاحتـلال الانجليزى ؛ وكبار الملاك على ابقاء هذا الوضع لأنه يخدم مصالحهم جميعا ٠

الثورة العرابية

تلك هى الخطوط العامة للحياة فى ريف مصر فى السنوات التى بدأت منذ خلق محمد على طبقة كبار ملاك الارض وحتى الايام التى سبقت **ثورة عرابى عام ١٨٨٢** ٠ أما تفصيلاتها الدقيقة والتى كانت السبب المباشر لقيام الفلاح المصرى بدوره الرئيسى فى أحـداث الثـورة العرابية ، فلقد صورها عـدد كبـير ٠٠ من الشخصيات التى عاصرت أحـداث تلك الفترة ، ومن الكتـاب والمؤرخين ٠٠ مثل **لورد كرومر** فى كتـابه Modern Egypt ، وماكنزى والاس فى كتابه Egypt and the Egyptien Question، وكلوت بك « **فى كتابه** لمحة الى مصر » ، **وعبـد الرحمن الرافعى** فى كتابيه « الثورة العرابية والاحتلال الانجليزى » ، و « ثورة عرابى » ، وغيرهم ٠

وبصفة عامة فان الاحداث التى عاشها الريف المصرى فى عهـد اسـماعيل قد عجلت بتهيئة النفوس للالتفاف حول عرابى ٠ فقد تضاعفت أعباء الحياة على الفلاح المصرى فى عهد اسماعيل ، حيث ألقت الديون التى اقترضها عبئا قاسيا على البـلاد ، وخصصت الحـكومة نصف موارد الميزانية لسداد فوائد الدين ٠ **وكانت الضرائب التى فرضتها الحكومة فادحة ، بعيدة عن العدل فى توزيعها ، تلقى بالثقل الاكبر على الفلاح ، وتجبى بوسائل القهر** ٠

نظرة على مصر

ولقد رسم **ماكنزى والاس** فى كتـابه « مصر والمسألة المصرية » صورة دقيقة محددة المعالم لتلك الايام تعكس ماكان يجرى فى ريف مصر كله منخلال رحلة قام بها الى **قرية كفر سليمان**٠

يقول **والاس** ان الفلاحين كانوا قد كونوا ثروة صغيرة متواضعة خـلال السنوات القليلة التى ارتفع فيها سعر القطن عن معدله العادى ٠٠ ثم حدثت نكبة حلت بقرية كفر سليمان بأكملها ، ساهمت فيها الحـكومة بمصادرة ثلاثة أرباع أرض القرية ٠



وتمثلت أسباب النكبة فى هبوط أسعار القطن ، وارتفاع الضرائب عما كانت عليه من قبل ، وتراكم متأخرات الضرائب على الأهالى .

.. وذات يوم وصل الى القرية مسئولون من القاهرة ليتشاوروا مع العمدة والمشايخ فيما يجب عمله .

وقدم المسئولون الحل .. **قالوا ان الخديو اسماعيل سيتحمل عبء الفلاح نظير نسبة من الارض** . ولم يفهم الفلاح هذه المعادلة التى وصفها المسئولون بأنها نفحة من كرم أخلاق الخديو وفضله . ولكن المعادلة كانت تعنى ببساطة **انتزاع ثلاثة أرباع أرض القرية من الفلاحين وضمها الى دائرة الخديو** .

ويستطرد والاس محددا أبعاد الصورة .. يقول ان الفلاحين كانوا يضربون بالكرباج لاظهار مالديهم من نقود مدخرة لسداد الضرائب المستحقة عليهم . وحين يرى مدير المديرية الذى يحضر مشهد جلد الفلاح ، ان الضرب العنيف لم يؤد بالفلاح الى الاعتراف بأن لديه نقودا مدخرة ، فانه يلجأ الى حيلة أخرى .. فيقول للفلاح .. **مادمت لا تملك مالا فلتقترض** . ويرد الفلاح يائسا من يقرضنى . يجيب المدير .. ذلك يمكن تدبيره . وبعد لحظات يظهر المرابى اليونانى الذى يسرع لرهن أرض الفلاح . ويحدد بنفسه شروطه لاقراض الفلاح . ولا يجد الفلاح مجالا للتفكير أو الخيار .. ويقبل . ويضع ختمه على العقد . وينسحب . **ويجلس المدير مع المرابى يقتسمان الغنيمة** . ومن آن لآخر يحضر المدير والمرابى الى القرية لتكرار نفس المأساة كلما احتاج الأمر الضغط على الفلاحين .

وتتوالى فصول النكبة .. فقد هبط ثمن القطن الى أقل من النصف ، وبعد عدة أشهر طالبت الحكومة بمزيد من الضرائب ، **والمرابى يصر على تحصيل الدين والفائدة معا** .

وليس لدى الاسرة مال . فيضرب أفرادها بالكرباج . ويعرض المرابى شراء المحصول وبثلثى القيمة الحقيقية . ويسدد الفلاح بالثمن ضرائب الحكومة . ولكنه لم يستطع سداد الدين كله لجسامته ، ولأن جابى الضرائب لا يكف عن المرور على القرية بين حين وآخر طالبا ضرائب جديدة . **وتبدأ المصاعب دورة أخرى . ويأتى دور الكرباج . وتعجز القدم عن السير . ويبيع الفلاح حماره ، وماشيته ، ودجاجه** .

وتهدأ الامور قليلا .. ولكنه هدوء تتراكم تحت سطحه المتاعب المقبلة . فالحكومة تطلب مرة أخرى الضرائب . ويعقب طلبها دور الكرباج . والاسرة هذه المرة لا تملك مليما ، وشبح الجوع يهددها . فتغادر بلدها وأرضها وتهرب بحثا عن لقمة العيش فى مكان آخر ، وتترك أرضها وبيتها للدائنين .

عرابى يلغى الديون

يصف والاس هذه الفترة بأنها أسود فترة فى تاريخ الفلاح المصرى . ويقول ان الفلاحين كانوا يشعرون أن حدثا كبيرا لصالحهم على وشك أن يقع وعندما اشتعلت ثورة عرابى كانت الألسنة فى كفر سليمان تتناقل تلك الكلمات .. « **عرابى يعتزم الغاء ديون الفلاحين للمرابين ، والخديو يحاول منعه** » . وعندما أصبح معروفا أن عرابى ينوى مقاتلة الاجانب الذين ربط الخديو نفسه بهم ، التهبت مشاعر الفلاحين تأييدا لعرابى ، ومعارضة للخديو .

هذا التصوير الدقيق لبشاعة الظلم الذى تعرض له الفلاح المصرى ، والذى كان سببا وراء مشاركة الفلاح بدور مباشر فى ثورة عرابى يؤكده الرافعى بقوله ان الأهلين انضموا الى الثورة وشايعوها آملين أن تخفف عنهم عبء الضرائب . ويضيف الرافعى أن استفحال نفوذ الاجانب عامة واستحواذهم على مرافق البلاد الاقتصادية قد دعا الأهلين الى التبرم بنظام الحكم . فان الامتيازات الأجنبية التى كانوا يتمتعون بها والمزايا التى نالها التجار والمرابون قد أكسبتهم الأموال الطائلة ــ فأثروا على حساب الخزانة المصرية وعلى حساب الأهلين . **ولم يكن فى البلاد قانون ولا عدل ، ولا ضمانات تكفل للناس حقوقهم وحرياتهم** وكان الضرب بالكرباج شائعا يتخذه الحكام وسيلة لتحصيل الأموال ، وأداة للقسوة والتعذيب ، وكانت السخرة مضروبة على البلاد . ولم تكن مقصورة على المنافع والاعمال العامة بل كانت تستخدم لاستصلاح أطيان ذوى السلطة والجاه من الحكام والامراء » .

مقدمات ثورة ١٩

اذا كان الظلم الذى تراكمت طبقاته السميكة بعضها فوق بعض قبل الثورة العرابية ، قد ربط الارض بالثورة ، وخلق شحنات دافعة من الانقضاض على الظلم فى نفوس الفلاحين دفعت بهم الى المشاركة بدور أساسى فى الثورة العرابية ، **فان السنوات التى سبقت ثورة ١٩١٩ قد غرست**

فى ريف مصر بذور الثورة التى اشتعلت غاية فى العنف والقوة عام ١٩١٩ .

كانت حالة مصر منذ عام ١٩٠٠ وخاصة خلال سنوات الحرب العالمية الأولى **(١٩١٤ - ١٩١٨)** من أهم أسباب تلك الثورة . ولم تكف الثورة (كما يذكر الرافعى فى كتابه ثورة ١٩) **وليدة الوفد ولا وليدة سعد ، بل كان كلاهما وليد الثورة .**

ويمكن تلخيص أسباب الثورة فى الريف فى عدة مظاهرة هامة منها .

أولا .. .موقف الحكومة من هبوط أسعار القطن بدرجة حادة فى موسم ١٩١٤ فور نشوب الحرب .

فقد هبط سعره تدريجيا من أربعة جنيهات الى عشرة ريالات ، مما خلق حالة من الكساد لم تتخذ الحكومة ازاءها أى اجراء بتأثير المستشار المالى البريطانى وأسهم فى زيادة حدتها امتناع البنوك عن التسليف على القطن ، فى حين أخذت البنوك العقارية تتشدد فى المطالبة بأقساطها .. أكثر من ذلك أن الحكومة تمسكت بتحصيل الضرائب فى مواعيدها . واضطر كثير من المزارعين الى بيع أقطانهم بأقل من الحد الذى هبطت اليه الأسعار، وارغمت الحكومة معظم الزراع على بيع مصاغهم وحليهم .

واضطر الكثيرون الى الاستدانة من المرابين حتى حلقت فوائد الدين الى آفاق خيالية بلغت ٥ فى المائة شهريا اى ٦٠ فى المائة سنويا . واذا لم لم يرد الفلاح التعامل مع المرابى فأمامه بنوك الرهن العقارية التى اتسعت أعمالها وقتئذ **(الرافعى - ثورة ١٩) .**

وقد عجز الفلاح عن السداد وبلغت متأخرات الفلاحين لدى البنك الزراعى وحده ٤١٦٫٨٨٧ جنيها فى يناير ١٩١٠ ، ويباشر هذا البنك وحده إجراءات التقاضى لنزع ملكية الارض من ٢٥٤٤ مدينا .

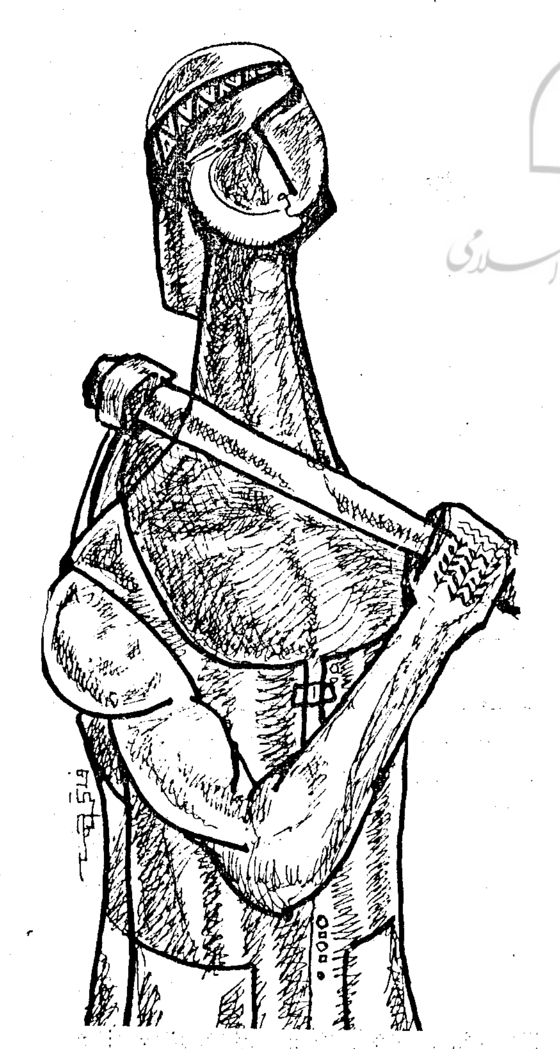
فى السنين التالية بدأت أسعار القطن ترتفع تدريجيا ولكن الحكومة قررت عام ١٩١٧ - وبتوجيه من المستشار المالى البريطانى - وقف هذا التصاعد وحددت سعرا أعلى للقطن بثلاثة وعشرين ريالا وهو أقل من السعر الحقيقى . وقد رافق ذلك اشتداد الغلاء فى أنحاء البلاد خاصة بين الفلاحين الفقراء .

المظهر الثانى .. ان السلطة العسكرية بدأت مع نشوب الحرب فى جمع العمال والفلاحين قسرا وارسالهم الى الخارج للعمل مع الجيوش الانجليزية . وقد مات كثيرون من هؤلاء بتأثير ظروف العمل والمعيشة السيئة التى وضعوا فيها. واستولت السلطة العسكرية على الدواب اللازمة لها ، وكذلك الحبوب والمؤن . **اكثر من ذلك طلبت بريطانيا الرديف من الجيش المصرى لاستخدامه فى الاعمال الحربية .**

الارض والثورة

كان التخلص من هذه الاوضاع يمثل الأسباب المباشرة للثورة فى الريف عام ١٩١٩ الى جانب الأسباب العامة الأخرى ، **مثل التحرر من الاستعمار الأجنبى المستند الى الحكم الملكى وطبقة كبار الملاك الزراعيين ، والتخلص من الامتيازات الأجنبية لاتاحة الفرص أمام المصريين لتقلد الوظائف الكبرى ، ومزاولة النشاط التجارى والصناعى ، واقامة حكم دستورى فى البلاد يحد من السلطات الاستبدادية المطلقة للحكام .**

وفى اطار الثورة كان هناك اتجاهان متناقضان الأول يضم كبار الملاك الزراعيين وكبار الموظفين.



وقد سارع هؤلاء بانضمام الى الثورة فور نشوبها ليكونوا قوة ضبط لمسارها توجهها فى طريق لا يهدد المصالح الزراعية الكبيرة • وكان هدف الموظفين الكبار قيام حكومة وطنية تفتح أمامهم فرص الثراء والوصول الى اعلى المناصب •

ويقول الرافعى ان أعيان البلاد كانوا لا يميلون من قبل الى معارضة الحكومة حرصا على مصالحهم• ثم جرفهم التيار فانضموا للحركة عام ١٩١٩ ، وبعضهم منذ١٩٢١•ومهما قيل عن ان انضمامهم اليها لم يخل من قصد الانتفاع الشخصى ورعاية مصالحهم عن طريق مسايرة التطور السياسى الجديد فان انضمامهم للحركة على اية حال مظهر من مظاهر التقدم الاجتماعى للأمة » •

واتجاه ثان يمثله الفلاحون فى الريف •• كان دافعه ازالة الظلم السائد فى الريف على يد كبار الملاك الزراعيين ، والانجليز • وقد تحدث كثيرون عن هذا الاتجاه منهم ••

● **راشد البراوى** فى كتابه حقيقة الانقلاب الأخير فى مصر (ص ٤٤) بقوله ان الفلاحين فى الريف تحدثوا فيما بينهم عن سوء أحوالهم وخيل الى فريق منهم أن الاستقلال معناه توزيع أراضى كبار الملاك مما أقلق الأخيرين الى حد بعيد •

● **الرافعى** •• وأشار الى ان العدل والخبز والاستقلال التام كانت من أهداف ثورة ١٩ • ويقول ان الفلاحين كانوا يصيحون ••**يحيا العدل** • ولم يكن أحد يتوقع من الفلاح البعيد بفطرته عن السياسة وعواصفها أن يندمج فيها الى درجة الثورة وخلع قضبان السكك الحديديه وقطع المواصلات وبذل الروح والفداء • ويقرر ان الفلاحين قدموا ضحايا بلغ عددهم ٣٠٠٠ شخص •

● **فكرى أباظه** •• (الضاحك الباكى) ويقول ان البيوت الكبيرة أوصدت أبوابها وأوقف حولها الحراس خوفا من الثورة •• **الثورة ضد الانجليز والثورة ضد الثروة** •• نعم كانت هناك ثورة ضد الانجليز يقودها بعض المتنورين ، وثورة ضد الثورة يقودها الاشرار الفقراء !

● أشار **لورد ملنر** الذى أوفدته الحكومة البريطانيه الى مصر للتحقيق فى أسباب ثورة ١٩١٩ ، الى دور الفلاحين فى الثورة وذلك من خلال قائمة الاسئلة التى طلب الاجابة عليها **(دراسات فى وثائق ثورة ١٩ للدكتور محمد انيس)** ومنها سؤال يقول الى اى حد كان اشتراك الفلاحين فى القلاقل المصرية ناشئا عن استعداد سابق حدث فى نفوسهم من جراء شكوى لهم ؟

ولقد تأكد دور الاتجاه الأول فى ضبط مسار الثورة وتوجيهها فى الطريق الذى يضمن مصالحه هو وليس مصالح الغالبية التى أشعلت الثورة • وذلك فى دستور عام١٩٢٣الذى دعم مظاهر الظلم الاجتماعى القائم فى الريف وشدد من قبضة كبار الملاك ، وجعل من الملكية الزراعية فاصلا بين القوى الاجتماعية فى الريف • فلقد نصت المادة ٩ من هذا الدستور على أن للملكية حرمة فلا ينزع من أحد ملكه الا بسبب المنفعة العامة فى الاحوال المبينة فى القانون • وبالكيفية المنصوص عليها فيه وبشرط تعويضه تعويضا عادلا • وبهذا ضمنت طبقة كبار الملاك الاحتفاظ بممتلكاتها وعدم محاولة نزعها منها لاعادة توزيع الملكية الزراعية بصورة عادلة ، **وأصبحت اية دعوة لاعادة توزيع الملكية جريمة يعاقب عليها القانون •**

ثورات الفلاحين

على ان الصراع بين طبقة كبار الملاك التى حاولت فرض الظلم ، والفلاحين الذين جاهدوا للتخلص من كل صور استغلالهم ، قد استمر • وواصل الفلاح دوره فى الحركة الوطنية ، وبرز هذا الدور خلال سنوات النضال ضد حكم زيوار عام ١٩٢٥ ، وحكم صدقى (١٩٣٠ – ١٩٣٣) ، وفترة الكفاح المسلح ضد الانجليز فى منطقة القناة عام ١٩٥١ • **وبلغ هذا الدور ذروته فى ثورات الفلاحين فى الريف المصرى عام ١٩٥١•**

ففى **بهوت** ثار الفلاحون ضد البدراوى عاشور وحاصروا قصره ، وحطموا سيارته • فاستنجد بالبوليس الذى فشل فى السيطرة على الموقف فحضرت قوات من الجيش لاخماد ثورة الفلاحين ومنعها من الانتشار الى القرى الأخرى •

وفى **كفور نجم** ثار الفلاحون فى دائرة أملاك الأمير محمد على ضد بشاعة الاستغلال لجهودهم •

هكذا لعب شكل الحياة على الارض الزراعية دوره الاساسى فى الحركة الوطنيه فى مصر ، وكان مبعث هذا الدور ذلك الصراع الحاد بين القوى الاجتماعية المختلفة فى الريف ، **فكبار الملاك اهتموا بتثبيت صور الاستغلال الانسانى التى تخدم مصالحهم ، والفلاحون استهدفوا التخلص من كل صور الاستغلال السياسى والاقتصادى والظلم الاجتماعى •**

عاطف الغمرى



« وتسألنى عن طموحى الحقيقى . أقول لك أولاً وأخيراً أريد أن أكتب »

م ح الزيات



لقاء الفكر



مع الدكتور محمد حسن الزيات

إعداد: سامي كريم

نوعان من الرجال •

رجال ترفعهم المناصب ، ورجال يرتفعون بالمناصب الى مستوى الأحداث •

والدكتور محمد حسن الزيات ، الذى عاش ، سياستنا الخارجية ، وعرف أدق تفاصيلها وأسرارها ، أثناء عمله وكيلا للخارجية ، ومتحدثا رسميا ـ شهد بكفاءته الرأى العام العالمى من هؤلاء الذين يرتفعون بالمناصب الى مستوى الأحداث • وقد نتساءل وما سر تفوق هذا الرجل ؟

ـ لعل بعض السر يكمن فى تصريحه بعد أن أصبح رئيسا لوفدنا الدائم فى هيئة الأمم المتحدة حيث يقول :

« وتسألنى عن طموحى الحقيقى

أقول لك أولا وأخيرا أريد أن اكتب » •

واذا أدركنا هذا الجانب ـ الذى يهتم بالفكر قراءة وكتابة ـ من شخصية الدكتور الزيات ، ولا تزال لدينا رغبة فى معرفة الكثير عنه ، وكيف أنه كان أساسا لكفاءة الدكتور الزيات فى العمل الذى يختار له •• فسوف نجعل الحديث عنه ـ عن هذا الجانب الفكرى ـ يأخذ معه ـ مع الدكتور الزيات ـ شكل المناقشة لبعض قضايا فكرنا المعاصر • حتى ندرك عن قرب أثر سنوات القراءة والكتابة فى حياته العملية ، خاصة وان كانت بداية هذه السنوات مع بداية بلوغه الخامسة عشرة من عمره فى الثلاثينات ، وذلك حين انفرد بكتابة القصة العربية القصيرة فى مجلة شهر زاد ، وساهم فى كتابة المقال الأدبى فى مجلة السياسة الاسبوعية ، والمقال السياسى بعد ذلك فى كل من صحيفتى المصرى والأهرام •

●● ضمن تفكير ما بعد (٥) يونيو .. قال الكثيرون ان الصراع بيننا وبين إسرائيل ، صراع حضارى بكل ماتحمل هذه الكلمة من معان ، فما هو رأيكم فى هذا القول ، والى اى حد يمكن ان يكون مفيدا فى الصراع الدائر الآن فى الشرق الاوسط ؟

● لابد أن تحدد أولا معنى الصراع الحضارى ، وهل المقصود انه صراع حضارى بين الشعب العربى وبين مايسمى بالشعب اليهودى ، وهل صاحب هذا الرأى يقر بوجود الشعب اليهودى حتى يقرر أن لهذا الشعب حضارة خاصة به • تصطدم بحضارة الشعب العربى ؟ وهل يحدد الشعب اليهودى انه اليهود المقيمون في فلسطين ؟

ان اليهود الذين يقطنون اسرائيل منهم البولندى وكذلك الروسي ، والمغربى والالمانى والايرانى ، والانجليزى واليمنى

وغيرهم ، وكلهم طارئون بأحمالهم من حضارات المجتمعات التى عاشوا فيها . واذا كان المقصود بكلمة حضارة هو التقدم التكنولوجي ، فهل هذا التقدم التكنولوجي فى اسرائيل يهودى ؟ أم هو جاء نتيجة الممارسة فى مجتمع روسى وبولندى وألمانى أو ايرانى أو أمريكى أو انجليزى .. الى آخر هذه المجتمعات التى جاء منها أولئك الذين يكونون اليوم اسرائيل ؟

ان المواجهة بين العرب ، وبين الصهيونية فى الشرق الاوسط ليست مواجهة بين أمتين ، أو مواجهة بين حضارتين، ولكنها مواجهة بين الامة العربية وبين حركة الصهيونية العالمية، وحركة الصهيونية العالمية موزعة فى العالم . اننا نواجه الحضارة الغربية التى تشرب بها الصهيونيون والتى يستغلونها ويستخدمونها اليوم ، ومواجهة العرب للحضارة الغربية بدأت منذ عهود الاستعمار . والعرب اليوم ، الذين يواجهون استعمارا جديدا فى شكل اسرائيل ، يواجهون الحضارة الغربية فى شكل اسرئيل . اننا منذ أكثر من مائة عام ونحن نواجه الحضارة الغربية بأشكال مختلفة : نواجهها بالتحدى والانكار ، وهذه مدرسة ، نواجهها بالتقبل والاستسلام ، وهذه مدرسة ثانية ، نواجهها بأن نطعم الاصل العربى بما يمكن تطعيمه من الحضارة الغربية ، وهذه مدرسة ثالثة وهى المدرسة التى عاشت بهامصر منذ نهضتها حتى الآن .. **فان كانت المواجهة الحضارية التى تتحدث عنها هى مواجهتنا للحضارة الغربية التى بدات منذ مائة عام ، فاننى أفهم ذلك وأقبله . أما تضخيم قوة العدو والقول بان حضارته الذاتية حضارة غلابة ، فهذا القول مرفوض .**

خلاصة رأيى أنه لاتوجد حضارة اسرائيلية ، وبالتالى لاتوجد حضارة تواجهنا ، وانما يوجد استخدام من جماعة من الوافدين الغربيين لتكنولوجية الغرب ، وعلينا بالاسراع فى خطانا التى بدأناها من قبل أن توجد اسرائيل ، لنقرب الشقة بيننا وبين حركة النهضة التى نشأت فى الغرب منذ الثورة الصناعية دون أن يتطرق الى خلدنا ولو لحظة واحدة أن هناك أمة اسرائيلية فى فلسطين لها تقدم حضارى ذاتى نحس بتخلفنا ازاءه .

●● قبل النكسة كانت هناك نواحى قصور فى تفكيرنا كانت النكسة نفسها نتيجة من نتائجها ، هل هناك نواح لهذا القصور مازالت قائمة فى تفكيرنا حتى الآن ؟ وهل طرا تغيير على تفكيرنا بعد ٥ يونيو ؟

● بعد ٥ يونيو يمكن القول بأن تفكيرنا أصبح واقعيا وأكثر عمقا . لقد كنا أحيانا نعيش بالامانى ونظنها حقائق ، والآن لاشك أننا نقدر الفرق بين مانتمناه ، وبين مانعانيه ، ونعرف أن الوصول الى تحقيق الامانى جهاد طويل صبور ، ولاشك أن هناك تيارات ضعيفة مضادة تتمثل فى تفكير ينتهى بصاحبه الى شىء من اليأس ، أو ينتهى الى شىء من اللامبالاة نقطة أخرى أعتقد أننا صححنا فيها تفكيرنا وهى طبيعة العدو وطبيعة المعركة . **ان العدو ليس حفنة من الناس كنا نسميهم استهتارا بالصهاينة ، انما هى حركة لها فلسفتها ولها أهدافها** ولها طرقها المرسومة لتحقيق هذه الاهداف . ونحن فى تفكرنا نربط بين طبيعة هذه الحركة وهدفها ، وبين طبيعة وأهداف الحركات الاستعمارية التى نشأت بعد العصور الصناعية فى أوربا ، وأعتقد كذلك أن الجيل الحاضر يدرك مسئولياته العظمى عن الأجيال القادمة .

ان وزير حربية اسرائيل قد تحدث الى الشباب الاسرائيلى يوما فقال ان جيله قد خطا خطوة وحقق هدفا من أهداف الصهيونية دون أن يكتفى بها ، ثم خطا الجيل الحاضر خطوة وحقق هدفا آخر على الطريق الطويل والسليم فيما يعتقد ، والذى سيمر بأهداف أخرى يحققها الجيل القادم ، وهكذا الى أن يحققوا غاياتهم ، وفى هذا الحديث اشارة الى وحدة جهاد الأجيال ، وقيام البناء الشاهق محصلة لثمرة أعمال الأجيال المتضامنة ، هذا التفكير هام ولا شك ويشغل جيلنا العربى ، ونتيجة تحقق تضامن الأجيال العربية من جهة ، والتخطيط لمساندة تضامن الشعوب العربية فى الجيل الواحد وتكافلها من جهة أخرى .

●● من جديد .. أثيرت تساؤلات حول الوحدة العربية وفاعليتها فى هذه المرحلة الحاسمة من النضال العربى من بين هذه التساؤلات : ماهو التبرير الفكرى لمفهوم الوحدة العربية بعد ٥ يونيو ١٩٦٧ ؟

● اسرائيل وحدة عضوية بين مجموعات من البشر لغاتها مختلفة ، جنسياتها مختلفة ، حضاراتها مختلفة .. لا يوجد شىء متفق عليه الا العقيدة وحتى هذا الاتفاق فى العقيدة نسبى ، ولكن بالايمان بأحد العناصر المؤلفة لوحدة شعب أستطاع الصهيونيون ايجاد مظهر مجتمع اسرائيلى .

وهناك فى الجانب الآخر مجموعة من البشر لهم لغة واحدة وتاريخ واحد ، وحضارة واحدة ، ومستقبل واحد الى جانب وحدة العقيدة ، ما الذى يمنع من قيام وحدة بينهم تملأ فراغ المنطقة التى يعيشون فيها .. **منطقة الشرق العربى** أن حركة الصهيونية تعيش فى هذه المنطقة نتيجة لما ينتج عن غياب الوحدة العربية من فراغ .. لقد كانت الامبراطورية العثمانية تملأ الفراغ ، ولما اهتزت ودالت ملىء الفراغ بالانجليز والفرنسيين ، وقبل أن تهتز سيادة الانجليز والفرنسيين اتجه

التفكير والتدبير الى ادخال عنصر جديد الى المنطقة بقصد ملء الفراغ ، بقصد منع الأمة العربية عن أن تملأ هذا الفراغ ، بطريقة طبيعية ، وذلك لأن هذا لم يكن فى الماضي ولا هو الآن فى الحاضر فى صالح مجموعات دولية كثيرة ..

●● اذن مقومات الوحدة العربية موجودة .. والسؤال هو هـل امكانياتها قائمة أم لا ؟

فى العشرينات والثلاثينات كنا نسأل هل هناك أمل فى ايجاد أمة عربية ؟ وهل مجموعة الاوطان العربية كل منها صفرا أيضا هذه التساؤلات التى شغلت شبابنا لم يعد لها مكان فى كهولتنا

ان الأوطان العربية ستحيا عزيزة اذا تساندت واتحدت. فاذا لم يحدث ذلك فستعرف استعمارا جديدا هو الاستعمار من داخل المنطقة ، استعمارا شـبيها باستعمار جنوب أفريقياوروديسا » وهما استعماران ما كانا ليوجدا لو أن الأمم من حول كـل منهما قد اتحـدت وتحملت مسئولياتها ونهضت بها فى مواجهة هذا الاحتلال والاستغلال ..

●● بعد النكسة نشطت دعوة مؤداها التعرف على فكر العدو ، وهذه الدعوة تؤكد أن معرفة فكر العدو ان لم تقدنا الى النصر ، فهى على الاقل تعصمنا من الهزيمة .. فما هى الخطوات العملية التى اتخذت حتى الآن فى هذا السبيل ؟

● بطبيعة الحال عندما تعرف أن هناك قسما فى وزارة الخارجية الاسرائيلية لدراسة العالم العربى ، وهناك اقسام للدراسات العربية فى جامعاتهم ، وهناك تراجم مستمرة لما يصدر من عندنا من آثار فكرية ، ومحاولات مستمرة فى كل مكان لدراسة المجتمعات العربية ، وهذه الدراسات تجد مكانتها فى خدمة التحرك الساسي . فان ذلك يحتم علينا مواجهة جديدة للعدو من الناحية الفكرية .

وسـأربط ذلك بالسؤال الخاص بتغيير تفكيرنا بعـد ٥ يونيو . قبل ذلك كنا غير مؤمنين بحق اسرائيل فى الوجود ، وبالتالى غير معترفين بها ، وهذا الاعتراف أو عـدم الاعتراف لم يكن عملا سياسيا وحسب ، وانما كان عملا فكريا .. بمعنى اننا كنا نرى اسرائيل غير موجودة فكيف ندرسها ؟

وبعد النكسة .. بدأت دراسات جادة « أو مشروعات دراسات جادة » عن اسرائيـل وحقيقتهـا ، وعن الحركة **الصهيونية ووجودها ، وكل ما نرجوه أن يتاح لهذه الدراسات من الباحثين ، ومن ادوات البحث ما يجعلها ذات فائدة فى معرفتنا لفكر العدو ، والتحدث عنه .**

ثم ما هو فكر العدو ؟

هل هو الفكر اليهودى أم الفكر الصهيونى ؟

اذا تكلمت عن فكر العدو باعتباره الفكر اليهودى .. فانى اذكرك بأنه كانت هناك رسالة دكتوراة فى مصر عن « اليهودى » موسى بن ولفتون . قدمها « ميمون » الذى شارك فى الجامعة المصرية طالبا ومدرسا والجدير بالذكر أن شـيخ الأزهر الأستاذ مصطفى عبد الرازق هو الذى كتب مقدمة « ولفتون »عن « موسى بن ميمون » .. ولم يكن هناك غضاضة فى أن يدرس شخص يهودى فى الجامعة المصرية ولا أن يدرس موضوعا يتصل بالفكر اليهودى مثل موضوع موسى بن ميمون ، ولا أن يقدم دراسته فى رسالة جامعية تجاز من الجامعة ، ولا أن تصـدر هذه الرسالة بعد ذلك بمقدمة من شيخ الأزهر .. مادام ذلك يعالج أحد موضوعات الفكر الانسانى .

ان الفكر اليهودى من الموضوعات التى لا نستغنى عنها فى **دراستنا ، ونحن لم نهملها فى الماضي**

ولكن اذا تكمت عن فكر العدو باعتباره الفكر الصهيونى ، وامكانية دراسته فخير منهج لذلك هو دراسته المجتمع المسيحى الأوربى فى بلاد مثل فرنسا وروديسا والمانيا ، ودراسة الرفض اليهودى لهذا المجتمع أو عجزهم عن الانصهار فيه » وقد تصل بنا الدراسة الى وضع أيدينا على موطن الضعف الحقيقى فى الفكر الصهيونى . حين ندرك أنه فكر انهزامى ، هوردة بعد محاولات الاندماج الفاشلة فى المجتمعات الأوربية ، هو فكر موزع لم يستر بعد ولم يتبلور فى نفوس اليهود أنفسهم ، ولم يقبلوه جميعا فى اى وقت من الأوقات .

خلاصة القول .. **ان الفكر اليهودى القديم نعرفه ويجب أن نزداد معرفة ، والفكر الصهيونى ينبغى ان نهتم بدراسته اهتماما تتطلبه ظروف مواجهتنا مع العدو في المعركة الفاصلة التى نعيشها وتعيشها أجيالنا القادمة .**

مكتبتنا العربية



●● على مستوى الرأى العام العالى .. هناك ضرورة لوجود مؤيدين لقضيتنا . وعلى هذا الاساس .. ترى كيف نكسب مؤيدين جددا لنا ؟ وكيف نضمن ان لايتكرر موقف مثل موقف سارتر ؟ وهل من الافضل ان نضع سارتر فى قائمة الممنوعين والمحظورين ام نناقش موقفه ، والمواقف المماثلة لغيره .. مناقشة هادئة ونبحث عن اسباب عدم تفهم وجهه نظرنا ؟

● الحقيقة أننى لا أؤمن اطلاقا بمنع أى شخص ، ولا أؤمن بوجود قوائم للممنوعين ..الا اذا كانوا جواسيس متآمرين او مهربين ، اما اذا كان هناك من أخطأ التفكير أو حتى من أضمر سوء التفكير ، فان وضعه فى قائمة للممنوعين والمحظورين لن يأتى الا بنتيجة عكسية .

وفيما يخص موقف سارتر ، ومواقف الكثيرين ممن ترددت مواقفهم بين الاستنكار للصهيونية ، وبين العطف عليها ، فهذا موقف له أسبابه ، منذ أن رأى كثير من المفكرين « مندلسون » أنه لا يمكن أن يعيشوا فى أوربا الا اذا ارتفعت القوميات عن التضييق على « أذهان الناس » وأصبحت النظرة العالمية هى النظرة الصحيحه والمقبولة . ولذلك دعوا الى عدم التفرقة بسبب العنصر أو الأصل أو الدين ، ولكن ابتداء من « هرتزل » وقضية « درايفوس » فى فرنسا أخذ بعضهم يرى أن تحقق هذه الدعوة أمر ميئوس منه ، وانه لايمكن ان يندمجوا في المجتمع الذى يعيشون فيه سواء كان هذا المجتمع فى فرنسا أو انجلترا أو أسبانيا أو غيرها ، وهنا بدأت حركة ردة عصبية متطرفة متحديه ، فهم وقد عجزوا عن أن يكونوا أجزاء من هذه المجتمعات ، وانسحبوا منها على أمل ان يكون لهم مجتمع خاص بهم .

ان الليبراليين أو « الحريين » كما كان يقول لطفى السيد آمنوا بحق اليهود فى ان يكونوا أعضاء فى المجتمع يتساوون مع بقية أعضائه ، وعندما وجدوهم أو وجدوا بعضهم يطالبون بحق آخر راحو أيضا يطالبون بهذا الحق ، حق الوجود فى فلسطين غير مدركين مدى التضارب الحقيقى فى الموقفين .. بين المدافعين عن اليهود كمواطنين فرنسيين أو انجليز أو أسبان ، وبين العطف عليهم كجماعة أو كأفراد يرفضون الوطنية الفرنسية أو الانجليزية أو الاسبانية أو غيرها .

ومشكلة سارتر تتركز فى أنه بينما كان يعطف على اليهود عندما كانوا فرنسيين ، وكانوا عالمين ، فانه لايزال يعطف عليهم بعد أن رفضوا الواقع الفرنسى ، فرفضوا التحرر والعالمية .. ووصلوا الى منتهى الضيق فى العنصرية ، العنصرية القبلية فى أقبح صورها لاتصالها بالدين والعقيدة وقيامها على هذا الأساس . **وسيظل سارتر موزع النفس بين العاطفة واليقين ، بين القلب والعقل ، بين صداقات الجيل الذى كان يعيش فيه وبين اليقين العقلى الذى يقول صراحة ان صديقة الذى تريد ان تكون معه هجرك .** واليهود الذين يؤمنون الآن بالاسرائيلية وبالصهيونية هم الذين قرروا ترك مراكزهم الفكرية يأسا منها او خيانة لها .. تركوها وتركوا سارتر . وبالتالى فانه يجب أن ينتهى النزاع بين العقل والقلب فى نفس سارتر .

على انى اقرر فى نفس الوقت بأننا أعطينا أهمية كبرى لموقف سارتر نفسه ، واهتمامنا به ينبغى أن يكون نتيجة لاهتمامنا بمواقف الليبراليين الاوربيين ، واليسار الاوربى «القديم» من الحركة الصهيونية بشكل عام .

وهنا نلاحظ ان اليسار الجديد غير المقيد بالصداقة والزمالة ـ مثل سارتر ـ فى معركة الليبرالية يجد نفسه حرا من القيود التى تربط القديم بالحركة الصهيونية ويفهمها على حقيقتها ويقف منها الموقف المنطقى الوحيد وهو معاداتها ومحاربتها .

وأما كيف نكسب مؤيدين جددا لقضيتنا .؟ لن يكون ذلك **الا باتباع الحقيقة** ، اننى من المؤمنين بسحر الحقيقة ، بالبتنا ندع الناس تعرفنا كما نحن بالضبط بغير زيادة أو نقصان .

مثلا لو ان احدهم جاء يسألنى عن حالة اليهود في مصر اقول له : حتى عام ١٩٤٨ كان اليهود على أحسن حال ، ولكن بعد عام ١٩٤٨ اقول لقد خانوا أنفسهم ، وخانتهم الحركة الصهيونية بايجاد ولاء آخر متنازع مع ولائهم لمصر .

ان أى عمل سياسى او اعلامى ناجح . ينبغى أن يبرز حقيقتنا بغير زيادة او نقصان .

كيف نكسب مؤيدين جددا لقضيتنا ؟ اننا نكسبهم بمواقفنا وبأعمالنا اذا كانت مواقفنا نتيجة لمبادىء يجلها الجنس البشرى ولا يملك الا أن يقدرها ، واذا كانت أعمالنا من أعمال النضال التى يحترمها فلابد أن يحترمنا . واذا ظل خصومنا فى نشوة النصر المادى ، وعزة التسلح المجلوب يتطاولون على الرأى العام العالمى ، الذى كانوا يستجدون عطفه ، فلاشك ان وجه الحقيقة سيبرز بين الغيوم الكثيرة ، وسيرانا الناس على حقيقتنا ، وهى حقيقة لاتنفر ولاتستنكر .

بالتأكيد سوف نكسب بذلك مؤيدين جددا .

●● حول الاعلام .. هناك آراء كثيرة تنادى بانه فى المرحلة الراهنة من تاريخ الامة العربية ، لابد للاعلام العربى من جهاز عصرى تتوفر فيه القدرة على العمل ، والمبادرة والحركة السريعة ، ويستقطب الطاقات الفكرية والمتخصصة والملتزمة ، ويدعم بالامكانيات المادية والوسائل الاعلامية الكافية ، ويعكس سياسة عربية موحدة تجاه القضايا العربية .. ترى كيف نحقق هذه الاهداف ؟

● فى القول المأثور واحسبه من تراث الساسانيين : لا ملك الا بالرجال ، ولا رجال الا بالمال ، ولا مال الا بالعمارة... فلا اعلام الا بالرجال ، ولا رجال الا بالمال . فى رأيى ..

مرات كثيرة نفكر فى الاعــلام العربى ، ثم ننتهى الى أن الاعلام كله .. هو رجل امتلك الوسيلة . فمن أين نأتى برجال الاعلام ؟ رجال الاعلام ليس مطلوبا منهم أن يكونوا معلنين ، فهناك فرق كبير بين الاعلام ، والاعلان ، كما أنه ليس مطلوبا منهم أن يزيفوا الحقائق ، وانما المطلوب أن يعرفوا الحقائق ثم يجلوها. للناس وفى ذلك أقول فى صدد الاعلام هناك عمليتان .

١ ـ عملية استيعاب الحقيقة .

٢ ـ وعملية عرض لهذه الحقيقة .

ان الاعلام يحتاج لباحث يكمل الحقيقة ، ولعارض يعرض هذه الحقيقة . وهناك محاولات جــادة للرقى بالاعلام ليكون جهازا عصريا مبنيا على العلم والدراسة هناك مثلا مركز جديد لدراسة المنطقة العربية ويسمى **« مركز الشرق الاوسط »** فى جامعة عين شمس ، وآخر ستنشئه جامعة القاهرة ، كذلك هناك تفكير في أن يوجد مركز تدريب اعلامى لمن سيشتغلون فى هيئة الاستعلامات والجامعة العربية .

لكى يكون جهاز اعلامنا .. جهازا عصريا مؤثرا لايجــوز اطلاقا أن نبالغ فى واقعنا ، ولا في نوايانا ، فكل ما أصبحنا أقرب الى الصدق مع أنفسنا ومع الآخرين ، كنا أقرب الى أن نحصل على ما يسمى بالتصديق الذى هو النتيجة المنطقية من وجــود الاعلام .

●● بهذه المناسبة هل يمكن أن تحدد لنا الاعلام الخارجى كفلسفة وفكر ، وذلك من حيث مدارسه واتجاهاته ؟

● من البديهى أننا اذا أردنا أن نحدث شخصا فلابد أن نتحدث بلغة وبطريقة يفهمها ويتقبلها ، وعنــدما اتحــدث عن اللغة لا أقصد الالفاظ فقط ، بل اقصــد ماتحمله الكلمــات والعبارات من معان الى ذهن السامع .. فلو قلت لشخص فى أوربا اننى اريد أن أضع **« حــلا نهائيا للمشكلة اليهودية »** فقد استدعى ـ بحسن نية منى ـ الى ذهنه عبارة من العبارات الهتلرية ، ويصبح حديثى مرفوضا أو على الاقل غير مستساغ.. لما يرتبط به من ذكريات ، وليس لما تحمله الالفاظ المجردة من معان مباشرة .

وعندما نتحدث عن الاعلام الخارجى لابد أن نحدد **أولا** عن أى بلد وعن **أى شعب نتحــدث ؟ وثانيا** أى **فئــة** من النــاس نخاطب ، وماهو الهدف ؟

مثلا الولايات المتحدة الامريكية تعدادها ٢٠٠ مليون نسمة منهم ١٥٠ مليون نسمة على الاقل قد لايعرفون بالدقة اين توجد سيناء فى خريطة العالم ؟

لابد فى هذه الحالة من تحديد الجمهور الذى يخاطبه الاعلام وتحديد الهدف الذى يستهدف منه .

هناك هدف مشترك من أى عمل اعلامى وهو الاقناع .. والاقناع ينبنى على المسلمات التى يســلم بهــا الجمهور الذى نخاطبه ، وليس على المسلمات التى نسلم نحن بها . ان هدفنا هو **الاقناع** وليس المزيد من **الاقتناع** . اذا القيت خطبة فى مجتمع دولى ونحن نفكر فى صحافة القــاهرة ، وطـريقة اســتقبال القاهريين لما قلت في هذه الخطبة ، فهذا خطأ . لان صــاحب مثل هذا الخطاب يحاول أن يكسب سمعة طيبة **عند بنى وطنه،** ولايحاول أن يكسب سمعة طيبة **لبنى وطنه** أو أن يحقق لهم هدفا .

العمل الاعــلامى اذن لابد له من باحث ودارس للمــادة الاعلامية ، ثم لابد من منتج ينتج الوسائل الاعلامية ، ولابد من عارض يعرض هذه المادة ، وأخيرا لابد ممن يتابع كل ذلك حتى يصحح كل خطأ ويقسم كل عمــل ، والكل لابــد وأن يعملوا لتوصيل الحقيقة كما هى غير مزيفة أو غير مزوقة ، **لاننا اذا كنا نقول ان العمل الاعلامى الخارجى هو اقناع وليس اقتناعا، فاننا نقول فى نفس الوقت اننا اذا لم يكن لدينا الاقتناع بمــا نقول فلايمكن أن نصل الى الاقناع به ، واذا كان لدينا الاقتناع بحقيقة قضيتنا فهذه الحقيقة غنية اذن عن كل استزادة أو تزويق .**

مكتبتنا العربية

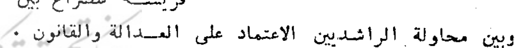
●● لعل الحديث عن الاعلام يطرح سؤالا هاما عن الصحافة وهو : ترى هل طرأت على الصحافة فى بلادنا تغيرات جذرية بعد ٥ يونيو ، وماهى هذه التغيرات ؟ وهل تعتقد انها على مستوى حادث ضخم فى تاريخ الامة مثل ٥ يونيو ؟

● أستطيع القول .. بأن الصحافة فى مصر ، مثلها فى الخارج ، يغلب عليها طابع العصر وهو الرغبة فى نقل الخبر بأسرع الطرق وابرزها . على انه لاشك أن ازمة ٥ يونيو كان من شأنها أن تدفع الصحافة الى تجنب أساليب الاثارة المنتشرة فى غيرنا من بلاد العالم ، وتجعل له بديلا هو التزام الحقائق ماأمكن ، والتعرف على قضايا الجماهير ، وتلمس حلول لمشاكلهم ، وفى نفس الوقت فعليها واجب المشاركة فى مهام التثقيف والتوجية .

والى جانب الصحافة تنشط المجلات المتخصصة وهى فى تقديرى تحاول أن ترقى الى مستوى الاهداف التى من أجلها صدرت ، ولدينا العديد من المجلات المتخصصة بعضها يستطيع الوفاء بحاجة القارىء العادى والمثقف ، وبعضها يخاطب الاوساط المثقفة والمتخصصة مثل مجلتكم . **مجلة الفكر المعاصر** .. التى أتابعها فيؤكد لى منهجها واسلوبها أن هناك تغيرا فى تفكيرنا ، وفى تناولنا للقضايا المعاصرة .

●● مع بداية هذا الشهر ، تبدأ هيئة الامم المتحدة ، وتتسلمون منصبكم الجديد رئيسا لوفدنا الدائم فيها .. ترى ماهى دور هذه الهيئة فى حل مشكلتنا مع اسرائيل . خاصة وانه تأكد فى الايام الاخيرة أن السيادة تنبع من فوهات المدافع ، وان منطق القوة له دور حاسم فى مواجهتنا لعدو جعل من القوة سندا لوجوده وأطماعه ؟

● هذا سؤال هام جدا .. فى العصر الحجرى كان الانسان اذا خالف خصما ضربه فيرد عليه هذا الخصم بالمثل ، وفى العصور التالية حاول أن ينشىء لنفسه عالما يقوم على القواعد والمبادىء التى تنهى كل نزاع ، وتستهدف السلام والعدل . ولهذه الغاية عمل الفلاسفة والمفكرون الاجتماعيون ، وعمل من بعدهم سياسيون ارادوا أن ينشئوا نظاما دوليا . هذه المبادىء ، وهذه الرغبة فى التنظيم الدولى كانت تظهر فى أعقاب فوضى الحروب العالمية ، فانشئت عصبة الامم ، ثم هيئة الأمم المتحدة ، ولكن هذه التنظيمات كانت فريسة للصراع بين واقع الانسان وبين حلمه ، بين رغبة الاعتماد على القوة ، وبين محاولة الراشدين الاعتماد على العدالة والقانون .



بعد عشرين سنة من انشاء هيئة الأمم المتحدة ، نسى الانسان فيما يبدو ثورته على العنف والقوة ، وبدات الامم المتحدة تقل قيمتها وتتضاءل هيبتها ، واصبح القوى القادر ينفذ من قراراتها ما يشاء ، فقد حرص الاقوياء القادرون على الا تملك هذه الهيئة وسائل الارغام فى التنفيذ .

فكيف ينطبق هذا التصور على اسرائيل ؟

منذ أن بدأت اسرائيل حركتها الصهيونية ، حاولت دائما أن تتسلح بالقوة لكى تصل الى الاخضاع .

فهذا **بن جوريون** يروى فى عدد يونيو ١٩٦٠ من مجلة « **الشرق الأوسط الجديد** » التى تصدر فى لندن .. أنه بينما كان اليهود ومؤيدوهم يفكرون فى كيفية جعل وضع اسرائيل مقبولا من الأمم المتحدة ، كان هو يفكر فى الذهاب لشراء اسلحة من الدول التى خرجت من الحرب العالمية الثانية وعندها مزيد من الاسلحة . وقال بن جوريون بالحرف الواحد : «اننى قابلت وكيل الخارجية البريطانية عام ١٩٤٦ ، وعلمت منه أن الانجليز سينسحبون من فلسطين فذهبت الى امريكا وطلبت خمسة ملايين دولار فأعطونى ثلاثة ملايين دولار فى جلسة واحدة ، وذهبت لاشترى بها أسلحة من أوربا الشرقية والغربية معا ..

ويؤكد بن جوريون فى حديثه هذا قائلا : ان اسرائيل ستوجد ان وجدت لها قوة السلاح ، وستبقى طالما ضمن لها التفوق فى السلاح والسيطرة بالسلاح .

هذا هو رأى واحد من قادة اسرائيل منذ انشائها ، والآن انت تحدثنى بعد أن قرر مجلس الأمن فى الايام الماضية باجماع الآراء قرارا خاصا بالقدس ، بعد مناقشات اشتركت فيها سبعة عشر دولة ، اصدرت قرارا بالاجماع فلم ينقضى على صدوره دقائق حتى تحدته اسرائيل ، واعلنت بصراحة انها لن تنصاع له ولن تلقى بالا اليه .

هذا تصرف ناشىء ولا شك عن اقتناع اسرائيل بأن القوة لها ، أو أن القوة معها ، أو عن اقتناعها بالأمرين معا .

ان المجتمع الدولى يجب أن يقرر هل يريد بقاء النظام الدولى ام لا ؟ فاذا كان يريد بقاء النظام الدولى فعليه أن يستعمل ما أمكن الاتفاق عليه من العقوبات الموجودة فى الباب السابع من ميثاق الأمم المتحدة ، وهذه العقوبات تمنع مثلا طائرات الدول المعتدية من الطيران الى أراضى الدول الأعضاء وفى سمائها ، وقد تمنع ارسال الاسلحة الى الدول المعتدية ،

وقد تمنع ارسال التبرعات التى تشترى بها الاسلحة .

ولكن هل هناك رغبة جديدة وعامة فى احترام ميثاق الامم المتحدة والقانون الدولى أم أن هناك رغبة أكيدة عند الاقوياء فى استخلاص كل ما يمكن استخلاصه سواء اتم ذلك مع احترام الامم المتحدة او اضطر الامر الى تحديها ؟

ونحن كأمة ليست من الامم القزمية التى تتناطح فى كل مجال ، ندرك أن صالحنا الخاص يتلاءم مع الصالح العالمى ، ونرى أنه لابد من احترام الامم المتحدة وابقائها جهازا عالميا فعالا ، ولكن لن ينسينا ذلك واجبنا نحو انفسنا ، ونحو أولادنا ، ونحو الاجيال القادمة . الذى يستتبع أن لا تنقاد للاوهام والاحلام ، وانما نعرف اننا بينما نريد أن نعيش فى عالم أفضل حتى من عالم الامم المتحدة ، فاننا مضطرون أن نعيش فى الواقع .. لابد أن نعيش فى المجتمع الدولى المثالى كأن هذا المجتمع مجتمعا فعالا وقائما ، وأن نعمل في المحيط الواقعى على بصيرة من انه قد ينهار هذا المجتمع اليوم قبل الغد تحت وطأة المطامع ، وبالتالى يكون الاستعداد للدفاع عن حياتنا نهوضا بواجبنا ازاء انفسنا ، وازاء الاجيال القادمة من أبنائنا .

●● كانت حرب ٥ يونيو وسيلة للصدام المسلح بين القوة العربية وبين اسرائيل وماوراءها من قوى عالمية ، وبداية لتحرك سياسى غير عادى. ترى هل هناك دروس مستفادة من هذه الحرب يمكن ان نتجنبها فى مواجهتنا الراهنة مع اسرائيل ، والاخرى تفيدنا فى تحركنا السياسى فى أروقه وقاعات الامم المتحدة فى دورتها القادمة ؟

● في كل من المستويين الحربى والديبلوماسى بدأنا نفهم ماهى التحديات التى امامنا ، وماهى أهدافنا ، وماهى اهداف أعدائنا .

– مثلا هل من أهدافنا ايذاء اليهود أم ان هدفنا هو الحياة الطيبة والتقدم والوصول الى المساهمة من جديد فى ركب الحضارة الانسانية ؟

واضح جدا أن هدفنا هو الثانى ، فاذا كانت الوسيلة للوصول الى غرضنا تتضمن التخلص من الصهيونيين الذين يعملون على حرماننا من تحقيق هذا الهدف ، فيجب أن لاننسى أن هذا التخلص هو وسيلة ليس الا ، ولايجب فى اى حال من الاحوال أن تعطلنا الوسيلة عن بلوغ الهدف ، والا انقلبت علينا . فنحن لابد أن نمضى فى معركة البناء فى نفس الوقت الذى نستمر فيه فى معركة حماية مابنيناه ، وتطهير الطريق أمام مزيد من البناء .

اننا ندرك أن عدونا ليس دولة أو أمة موجودة فىفلسطين وتعيش على مواردها . بل يجب أن ندرك أن عدونا امتداد واستمرار للاعداء الذين عطلوا – قصدا – تقدمنا .

اننا نعرف الآن وبشكل أفضل طبيعة المعركة وتاريخها ، اننا لم نخض مايسميه الصهيونيون بحرب الايام الستة ، نحن نخوض معركة السنوات السبعين على الحركة الصهيونية ، التى بدأت عام ١٨٩٧ مع المؤتمر الصهيونى في «بازل» بل بدأت قبل ذلك .

اننا ندرك أن الصهيونية كانت لها خطة مستمرة مدروسة بعناية وتنفذ بدقة ، يدخل فيها حساب النكسات، وحساب النهوض بعدها والاستمرار ، ولايمكن ازاء ذلك أن نكتفى بمواقف وقتية .

اننا ندرك أن الحرب التى نخوضها حاليا لم تبدأ فى ٥ يونيو ، ولا فى عهد الجمهورية العربية المتحدة او الجمهورية المصرية ، أو مع ثورة ٢٣ يوليو ولا مع المملكة المصرية .. **بل انها بدأت قبل انشاء المملكة المصرية نفسها بفترة .**

ان الذى يدرس حرب الايام الستة وحدها مثله كمثل من يحاول أن يدرس فرعا من فروع الشجرة غير متنبه ولامبال بأصولها وجذورها . لابد من تحليل مواجهتنا مع اسرائيل منذ أن بدأت الصهيونية فى البحث عن وطن لها ، منذ أن بدأ هرتزل يبحث عن مكان فى الارض ، ويطالب بقبرص وغيرها وطنا قوميا لليهود .. الى أن تحدد لهذا الوطن أرض فلسطين وسنرى عندئذ أن الذى أغرى القوى العالمية بتحديد هذه الارض كان ملء مايسمى بالفراغ الذى تتصور اسرائيل ويتصور أصدقاؤها أنه موجود فى منطقتنا .

أتصور أن هناك ضرورة لهذا الفهم بالنسبة للذى يواجه العدو على حافة القناة أو الذى يواجهه العدو فى قاعات وأروقة الامم المتحدة .

●● فى الآونة الاخيرة ، ترددت كلمة السلام كحل دائم لهذا الصراع الدائر بين العرب واسرائيل ، على الرغم من أن احتمالات الصدام المسلح تتصاعد كل يوم . فى تقديرك ماهو السلام الذى تلوح به اسرائيل وماهو السلام الذى يريده العرب ؟

● مفكرونا السياسيون يقولون – أحيانا – ان اسرائيل لم تحقق أهدافها ، ويقولون أيضا أنها كانت تهدف الى اسقاط حكومات معينة ، وتظن أحيانا أنها **تهدف الى الحصول** على معاهدة صلح تفرضها على العرب قسرا أو اختيارا .. اريد أن افكر قليلا أبعد من ذلك واطرح سؤالا هو : **وهل تريد اسرائيل حقا الصلح ؟** وهل تريد اسرائيل معنا حدودا آمنة **؟ وهل تريد اسرائيل حقا السلام ؟** بل أعيد صياغة السؤال من جديد : **هل تطيق اسرائيل السلام ؟**

وردى على هذا كله ان اسرائيل لاتريد الصلح ، ولاتريد حدودا آمنة ، ولاتريد السلام أو تطيقه .

بل هناك سؤال آخر ابعد من ذلك : **هل ترضي الصهيونية بتحقيق اهدافها المعلنة من دعوة كل اليهود الى ارض الميعاد ؟**

وردى أيضا أنه اذا جاء جميع اليهود الى أرض الميعاد كما تطلب الحركة الصهيونية تكون النتيجة انتحار الحركة الصهيونية ذاتها . فمن لها عندئذ بالمساندة السياسية في أمريكا ، وبالاموال من المانيا . وبالتأييد من انجلترا ؟

ان طلب السلام الغرض منه استعماله وليس تحقيقه ، كما ان طلب العودة الى ارض الميعاد الغرض منه استعماله وليس تحقيقه .

ان الاستعمار عبارة عن أفراد مستعمرين ، يذهبون الى مكان معين لاستغلاله ، معتمدين على عاصمة بعيدة تمدهم بالمال والرجال والهيبة والاخضاع في مقابل مايبعيدونه هم اليها من ثمرات .

خذ الجزائر ، مجموعة من الناس الفرنسيين موجودين في الجزائر ، يعرفون انهم في أي وقت يمكنهم استدعاء الجيش الفرنسي أو المال أو الخبرة الفرنسية ، وكل هذا يعطى لهم – ليس لرفع العلم الفرنسي فوق الجزائر – ولكن على سبيل ماسيرد اليه كعائد من اعمال هؤلاء الناس من أموال من شأنها ان تغنى فرنسا وتجعلها امبراطورية عظيمة ..

وهذه هى الحالة التى يمكن أن تبقى فيها اسرائيل قوة فعالة فى منطقة استعمار عالمنا العربى . وهذه الحالة تتعارض مع تحقيق حلم الصهيونية أو فلسفتها تحقيقا كاملا ، كما تتعارض مع اقامة أى سلام عادل فى المنطقة .

لنجاح حركة الاستعمار الصهيوني واستمرارها لابد من استبعاد السلام واستمرار الصدام والتوسع تبعا له من جهة ، ولابد من استمرار الجماعات اليهودية خارج فلسطين من جهة أخرى .

أمامنا حركة استعمارية القصد منها استغلال مايسمى بالشرق الأوسط ، واستعمال العائد فى تقوية الحركات الصهيونية خارج فلسطين . ولو انتبه العالم لعرف انه يواجه أضعاف الخطر الذى يواجهه العرب . ولكن العالم غير منتبه . وهذا هو سر نجاح الحركة الصهيونية .. انها تستعمل غفلة بعض الامم وغفلة بعض الافراد ، وتعتقد أن هناك من المنافع العاجلة مايغرى الناس بالتفاهم معها ولو نسوا الضرر الآجلة .

اسرائيل لاتريد أن تحد ، لانها تريد أن تمتد ، ونحن عندما نعرض على العالم الشروط الشريفة التى نقبلها نمارس نوعا من انواع التحدى بالسلام .

لقد كان قبولنا لقرارات مجلس الامن فى نوفمبر ١٩٦٧ هزيمة لاسرائيل .. لقد قدرت اننا سنرفض ، وانها هى التى ستقبل أو تتظاهر بالقبول فتضعنا فى موقف تستفيد منه امام العالم ، ولكن الذى حدث أننا قبلنا وبذلك أصبح عليها أن تقف حيث هى بل ترتد ، ومعنى ذلك أيضا أن تتوقف الحركة الصهيونية فى خطواتها التوسعية نحو تحقيق الحلم الاستعمارى فى منطقتنا ، وحلم السيطرة فى العالم خارج منطقتنا . ولكننا قد وعينا درسا ولذلك تحدينا بالسلام .. نقول اننا قبلنا قرارات مجلس الأمن فى نوفمبر ١٩٦٧ فاقبلوها أنتم .. وهم لايستطيعون القبول لان قبولهم معناه انتهاء الحلم الصهيوني والحركة الصهيونية .

اذا تحدينا بالسلام ونجح السلام كان بها ، واذا تحدينا بالسلام وفشل السلام فلتظهر للعالم حقيقتنا ، وتتضح رغبتنا فى السلام الحقيقى ، فلتتضح أهدافنا فى التنمية والترقى والبناء ، وليتضح أن مقاومتنا للصهيونية ليست الا وسيلة ، وسيلة نرفع بها من سبيلنا العناصر التى تريد أن تمنعنا من بلوغ الاهداف الشريفة والنبيلة معا .

السلام الذى نريده نابع من احكام ديننا الاسلامى .. ان المسلمين فى أرجاء الارض كل يوم يدعون لليهود بالسلام والبركة في صلواتهم الخمس حين يقولون اللهم صل وسلم على سيدنا محمد وعلى آل سيدنا محمد كما صليت على سيدنا ابراهيم وآل سيدنا ابراهيم .. نحن ندعو ونسلم على اليهود بينما كانت الازمة فى العالم المسيحى انه يلعن اليهود فى كل صلاة ، وامام الكعبة نقول اللهم أنت السلام ومنك السلام .. اللهم انك أنت السلام .. **هذا هو حلمنا الحقيقى للسلام الذى نريده .**

اننا تحدينا بالسلام حين قبلنا السلام الذى فرضته الامم المتحدة ، وتمنينا السلام الذى يفرضه الله سبحانه وتعالى وتفرضه المثل العليا فى كل مكان .

اتجاهات النقد الحديث

بابلو نيرودا .. واحد من شعراء المقاومة

تأليف : روبرت بلاى
ترجمة : ابراهيم الصيرفى

> لم يعد ردا يدعوننى ثيوكريتوس ، وانتهى بهم الأمر الى إهانتى واطلاق الشرطة كلها فى أثرى ، لأننى لم أعد أهتم بالأمور الميتافيزيقية. ب . نيرودا

الشعراء من أمثال **خوان رامون خمينز** والقديس **يوحنا الصليبى** لا يصفون غير الضـــوء الأوحد المشرق فى قلب الأشياء ، بيد أن نيرودا لا يصف مثل هذا الضوء ولعله لا يراه . **انما هو ، يصف بدلا من ذلك الكواكب الكثيفة التى تدور حوله** . ونحن حين نفتح ديوانا لنيرودا ، تتبدى فجأة لعياننا جميع أنواع الكائنات : شرفات ، صخور ثلجية ، أراغن ، أظافر ، سباع البوما ، موثقى عقـــود ، ألسنة جياد وأحذية موتى ؛ كل هـــذا يدور من حولنا ، فى حلقات ، كقطعان جاموس جامح أو جياد ضالة . ويضـــم ديوانه الأول « **الحياة على الأرض** » Residencia en Tierra مجموعة متنوعة من الأشياء الأرضية التى تدعو الى الدهشة ، وتسبح فى نوع من الماء المعتم الكثيف . وقد كتب نيرودا القصـــائد الست والخمسين التى اشتمل عليها جزءا هـــذا الديوان ــ فى فترة تربو على عشرة أعوام منذ أن كان فى الواحدة والعشرين حتى ناهز الواحدة والثلاثين من عمره . **وتعد هذه القصائد من أجمل ماكتب من القصائد السيريالية فى لغة أوربية حتى يومنا هـــذا** . فالقصائد الســـيريالية الفرنسية تبدو الى جانبها مملة ، فاترة ، قبيحة الجرس ، ذلك لأن الشـــعراء الفرنســـيين قد زجوا بأنفسهم فى عالم اللا شعور لمجـــرد أنهم كرهوا مافى الثقـــافة الأوربية من العقلانية والأكاديمية العتيقة الراسخة ، لكن نيرودا يملك موهبة أشبه بموهبة عراف يعيش مؤقتا فى المستقبل ، حياة وجيزة فيما قد نسميه بالحاضر اللا شعورى ، ان **أراجون** و **بيرتون** شاعران عقلانيان ، يقذفان بذواتهما من حين لآخر

عائدين الى أعماق اللا شعور . ولكن نيرودا ، كسرطان البحور العميقة ، كله مخالب وأصداف - يملك من القدرة مايمكنه لأن يتنفس فى الأعماق السحيقة التى تقع تحت ضوء الشعور . **انه يظل فى الأعماق لعدة ساعات ، ويدور داخلها دونما قلق هستيرى .**

الحياة على الأرض

وتنتظم الصور السيريالية فى « الحياة على الأرض » كى تجسد معان مراوغة . ففى قصيدة La Calla Destruida على سبيل المثال ، يستدعى الشاعر الظلم ، والانفجار المعمارى ، والعمارات المكدسة التى تثقلنا ، والأديان المستنفدة ، وجياد الجيوش الأوربية الواهنة الكليلة - ليقول ان كل هذه الأشياء جميعا انما تعمل على التهام حياتنا ، على تقويضها ، حتى تكرهنا على اطراح الحياة بعيدا كما نلقى بملابسنا البالية . ان القصائد لتبعث فينا احساسا بما فى الحياة الحديثة من شراسة وثقل .

وأستاذ نيرودا فى هذا الديوان « الحياة على الأرض » ليس شاعرا أوروبيا وانما شاعر أمريكى .. **وهو والت ويتمان** . لقد سبر أغوار ويتمان . كتب ويتمان :

انى لأرى آثار المعركة ، الطاعونا والطغيانا ، ارى شهداء واسرى
انى لأرقب مجاعة بالبحر ، ارقب النوتية يقترعون عمن يحل به الردى ابقاء لحياة الآخرين .
انى لأرى السفاسف والخسائس يلقيها المتعجرفون
على الكادحين والزنوج ومن هم على شاكلتهم
انى لأسمع مناجاة الأطيار ، وصوت خشخشة السنابل ابان نموها ، وطقطقة اعواد الحطب تطهو طعامى ؛
انى لأسمع الصوت الذى احب ، الصوت البشرى
انى لأسمع الأصوات جميعـــا تجرى معا ، متمـازجة ومنصهرة او متتابعة ...

ويكتب نيرودا :

انى لأنظر الى السفن
أنظر الى الدماء ، الى الخناجر ، وجوارب النساء
انظر الى الأسرة ، أنظر الى الردهات ، حيث تنشج عذراء ،
أنظر الى الدثر والاراغن والفنادق .
انظر الى الأحلام الكتومة
ادع الأيام الشاردة أن تدخل ،
وكذلك البداية والذكريات ،
مازلت ارقب
كجفن مفتوح فى بشاعة
واذا بذلك الصوت يأتى :
صخب أحمر لعظام ،
تلتصق معا من لحم بشرى
وارجل صفراء مثلما تلتقى سنابل القمح .
انى لأصغى وسط انفجار القبل
اصغى مرتعدا بين الزفرات والنشيج
انى هنا ، ارقب ، اصغى
بنصف روحى على البحر ونصف روحى على الأرض
وبكلا نصفى روحى ارقب العالم .
ولو اغمضت عينى واخفيت قلبى
لرايت الماء الوتير يسقط
فى قطرات وتيرة .
انه لأشبه باعصار من هلام ،
كشلال من منى وبحر من شقائق النعمان .
لرايت قوس قزح تجلله الغيوم يولى مسرعا
ارى ماءه ينسرب فوق عظامى .

مريض بكونه انسانا

انه يكشف لنا عما يجعله أشبه بكائن حى ، لا بشاعر. وعلى كل فان قصـائد هذا الديوان لتختلف عن قصـيدة « أغنية لنفس » فى جانب من جوانبها الأساسية . فقصائد الحياة على الأرض ، ترزح تحت عبء الخشـونة واليأس ، والوحـدة والموت الدائم والضـياع . ولقد كتب ويتمـان كذلك ، عن المشاعر السوداء بدقة بالغة ، الا أن نيرودا فى « الحياة على الأرض » اذ ينظر الى عمليات الانتحـار ، وغرق البحارة ، وشعر الفتاة القتيلة الملطخ بالدم ، لاتضفى على مثل هـــذه المشاهد أى احساس بالأخـوة . بل على النقيض من ذلك نجد أن الحيوانات والناس ماتزال تدفعه من كل جانب الى مزيد من العزلة ، تدفعه الى داخل جسده حيث يقاوم وكأنه غارق فى الأمعاء والمعدة .

وهكذا يحدث انى مريض بكونى انسانا .
لا اريد ان امضى فى الوجود جذرا فى الظلام .
مليئا بالمخاوف التى تزداد عتوا ، مرتعدا فى نومى ،
موغلا فى الهبوط داخل امعاء الأرض الرطبة ،
اتمشى وافكر وآكل كل يوم ..
لا اريد ان أبقى جذرا ومقبرة ،
وحيدا تحت الأرض ، مخزنا مليئا بالجثث .

اصـــدقاء الطريق

ولد بابلو نيرودا فى الثانى عشر من يوليو عام ١٩٠٤ بمدينة صغيرة على الحدود ، جنوبى شيلى ؛ وهو ابن أحد عمال السكك الحديدية . وقد قتل أبوه أثر سقوطه من القطار الذى كان يعمل به ، ونيرودا مايزال صبيا . قال عنه : « **ابى مدفون فى مقبرة من اكثر المقابر مطرا فى الدنيا** » . وقد وصف طفولته فى تيموكو فى مقالة بعنوان « الطفولة والشعر » طبقت كمقدمة لديوانه « مجمـــوعة قصائد » واسمه الحقيقى هو « **نفثالى بيلتران** » أما اسمه الشائع فقد تسمى به وهو مايزال فى مقتبل الشباب ، اعجابا منه بكاتب تشيكى من كتاب القرن التاسع عشر .

وفى عام ١٩٢٠ ذهب نيرودا ، وكان فى السادسة عشرة من عمره ، الى المدرســـة العليا بسانتياجو . وقد كتبت قصيدته « **اصدقاء على الطريق** » فى تلك الأيام تقريبا ،

وكان قبل ذلك ينظم بعض القصائد من ذلك اللون من الشعر الملىء بالحماس ، وعنفوان الشباب . ونشر وهو فى التاسعة عشرة من عمره ديوانا بعنوان « **عشرون قصيدة فى الحب والغنية فى اليأس** » الذى مايزال متمتعا بشعبية فائقة فى جميع أنحاء أمريكا الجنوبية .

انى لأذكرك كما لو كنت فى ذلك الخريف النهائى
كنت القبة الرمادية والوجود الهادىء برمته .
كانت نيران غسق المساء تحتدم بعينيك ،
وكانت أوراق الأشجار تتساقط فى بحار روحك

وقد قال فيما بعد « أن قصائد الحب كانت تفجر جسدى جميعه » .

جسد امرأة ، منحدرات بيضاء والأفخاذ بيضاء .
انك تشبهين العالم فى موقف استسلامك .
جسدى ذلك الوحشى
وينجب ابنا يحبو فى قاع الأرض .

لدى حكومات أمريكا الجنوبية تقليد هو تشجيع الشعراء والشباب عن طريق الحاقهم بوظائف فى قنصلياتها ، وحين بلغ نيرودا الثالثة والعشرين من عمره ، اعترف به شاعرا والحقته حكومة شيلى بأحد الوظائف بقنصلياتها بالشرق الاقصى . وعقب السنوات الخمس التالية ، عاش فى بورما وسيام والصين واليابان والهند . وقد قال نيرودا عن تلك السنوات انها كانت سنوات الغربة والعزلة . وقد كتبت كثير من قصائد الجزئين الأول من « الحياة على الأرض » خلال تلك السنوات .

وعاد نيرودا الى أمريكا الجنوبية عام ١٩٣٢ حيث كان قد بلغ الثامنة والعشرين من عمره . واشتغل لفترة قنصلا ببيونس ايرس ؛ وهناك قابل **لوركا** ، حين جاء لالقاء بعض المحاضرات بالأرجنتين فى جولة من جولاته وقد نشر المجلد الأول من « الحياة على الأرض » عام ١٩٣٣ . وفى عام ١٩٣٤ نقل الى أسبانيا .

جواد الشعر الأخضر

وكان شعراء أسبانيا قد عرفوا قصائده الوحشية لسنوات عديدة قبل مجيئه ، فقابلوه بالاعجاب والحماس . وسرعان ما امتلأ بيتـه الذى أقام به هو وزوجتـه ديليا فى مدريد بالشعراء ـ وخاصة لوركا و**ميجيل هرنانديز** اذ كانا يحبان زيارته . وفى عام ١٩٣٥ نشر المجلد الثانى من « الحياة على الأرض » . وقد نشر لوركا وهرنانديز وغيرهما من الشعراء قصائدهم السيريالية فى مجلته « **جواد الشعر الأخضر** » . وقد ظلت أسبانيا لمدة خمسة عشر عاما فى فترة من فترات الشعر العظيمة ، هى أخصب مراحل الشعر الأسبانى منذ القرن الخامس عشر . وقد قدر على تلك الفترة أن تنتهى بقيام الحرب الأهلية .

وفى التاسع عشر من يوليو عـام ١٩٣٦ قام فرانكو بالهجوم من شمال أفريقيا . وسرعان ما أعلن نيرودا ، متخطيا سلطته كقنصل ، وقوف شيلى الى جانب أسبانيا الجمهـورية . وبعـد أن اعتزل منصبه كقنصل ذهب الى باريس ، حيث جمع المال من أجل اللاجئين الأسبان ، وكان يسـاعده فى ذلك **بريتون** وغيره من الشـعراء الفرنسـيين **وفاليجو** . وفى تلك المرحلة يصبح شعر نيرودا ذا صبغة سياسية لأول مرة . ذلك أن نيرودا كان قد تعشق أسبانيا، اذ عاش بها ، وشارك صدمة الشعراء الأسبان ، التى كانت متمثلة أساسا فى ضياع بلدهم بقبضة الجناح اليمينى . بيد ان نمو طاقته السياسية فى شعره لم يكن مقدرا لهـا الوجود بأية صورة . فالعالم الخارجى فى المجلدين الأول والثانى من « الحياة على الأرض » يرى بذلك الوضوح وبذلك الاحساس بمعاناته ، حتى أن التطور الأخير للشعر السياسى لم يأت كشىء مفاجىء . وعاد الى أمريكا عـام ١٩٤٠ واشتغل قنصلا لشيلى فى المكسيك عام ١٩٤١ و ١٩٤٢ . وقد ضمت القصائد التى كتبها عن الحرب المحلية الأسبانية الى مجلد ثالث من ديوان « الحياة على الأرض » .

وفى عام ١٩٤٤ طلب عمال « **انتوفوجاستا** » وهى منطقة مناجم النيترات بشيلى ، من نيرودا أن يرشح نفسه عضوا لمجلس الشـيـوخ عن دائرتهم . فاستجـاب لهم ، وفاز بالانتخاب . وقد وجد نفسه فى تلك الأثناء « عضوا » فى مجلس شيوخ بلده كما كان « ييتس » . واستغرقته اهتمامات شيلى السياسية . وبعد عدة سنوات من تلك المرحلة وصف فى قصيدة طويلة كتبها للشاعر الفنزويلى **ميجيل أوتيرو وسيلفا** ، كيف كان أعضاء مجلس الشيوخ سيكونون سعداء اذا ما كان هو قد ظل شاعر الحب .

حين كنت اكتب قصائدى فى الحب ، تلك التى كانت تنبثق منى
فى كل مكان ، وكنت أموت من القهر ،
جواب كل آفاق ، مقصى ، اقرض الأبجدية ،
قالوا لى : « رجل عظيم انت ، ثيوكريتوس !
وانا لست ثيوكريتوس ، فقد تشبثت بالحياة ،
وواجهتها ، وقبلتها حتى اخضعتها ،
ثم انطلقت باعماق انفاق المناجم
لأرى كيف يحيا غيرى من الناس .
وحين خرجت منهـا ، كانت يداى ملطختين بالقهر واللعاب ،
ورفعت يدى ، وعرضتهما على الجنرالات ،
وقلت : « لا مسئولية لى عن تلك الجريمة » .
وبدأوا يتنحنحون ، وانقلبوا مشمئزين ، وكفـوا عن الاصغاء ،
ولم يعودوا يدعوننى ثيوكريتوس ، وانتهى بهم الأمر الى اهانتى ،
واطلاق الشرطة كلها فى اثرى ،
لأننى لم اعد مستمرا فى الانشغال بالأمور الميتافيزيقية وحـدها .

سنوات النضال والمرارة

وانتهت تجربة نيرودا كعضو فى مجلس الشيوخ ، كما يذكر ، بمطاردة الشرطة له . وقد حدث ذلك لان جونزيليز

فيديلا ، وهى شخصية قوية يمينية تدعمها مصالح الولايات المتحدة ، اصبح دكتاتورا فى عام ١٩٤٨ . وقام نيرودا ، بوصفه عضو مجلس شيوخ ، بمهاجمته عقب توليه السلطة بستة أشهر متهما اياه بخرق دستور شيلى . وكان رد فيديلا على ذلك اتهام نيرودا بالخيانة العظمى . ولم يذهب نيرودا ، كما كان يتوقع ، الى المنفى مختارا ، ولكنه تمادى فى مهاجمة فيديلا الذى أمر بالقاء القبض عليه . ورأى أكثر الناس أن نيرودا كان ملاقيا حتفه اذا كان قد قبض عليه . ولذلك اختفى ؛ وقام العمال وعمال المناجم بنقله ليلا من منزل لآخر ، لكى يحافظوا على حياته ، وكان ذلك فى شيلى أول الأمر ، ثم فى غيرها من دول أمريكا الجنوبية . وظل نيرودا متخفيا عدة أشهر . وأخيرا عبر جبال الانديز فوق ظهر جواد ، حتى وصل الى المكسيك ؛ ومن هناك اخذ طائرة الى باريس مغادرا القارة . وكان طوال تلك الفترة منهمكا فى كتابة ديوانه الجديد ، الذى سماه « قصيدة عامة » ؛ وقد انتهى منه فى فبراير من عام ١٩٤٩ .

ويوحى عنوان الديوان بشعر يرفض أن يحدد ذاته بموضوع معين أو نوع خاص من القصيدة وقد ظل نيرودا يكتب هذا الديوان لمدة أربعة عشر عاما . وهو أعظم قصيدة طويلة فى القارة الأمريكية منذ ديوان « أوراق الكلا » . وهو يصور امريكا الجنوبية من جوانبها السياسية والبيولوجية والجيولوجية . ويضم الديوان ٣٤٠ قصيدة مرتبة فى خمسة عشر قسما . وخصوبة الخيال فى الديوان مذهلة . وليست القصائد جميعا ، بالطبع ، ذات خاصية واحدة متساوية . ففى بعضها ، وخاصة تلك التى كتبت حين كان نيرودا فارا من مطاردة البوليس السرى بشيلى ، يحطم الغضب وعاء القصيدة .

والديوان يعطى صورة كئيبة للعلاقات بين الولايات المتحدة وحكومات أمريكا الجنوبية . وهذا الديوان لا يعد عملا ذا خطورة لدى العناصر المثقفة فى أمريكا الشمالية التى تحرص على اقامة علاقات الوحدة الأمريكية . فالأمريكيون الشماليون سواء فى الجامعات أو فى غيرها ، ممن يعرفون ديوان نيرودا غالبا ما يرددون بتعقل تام أن نيرودا منذ أن اهتم بالمسائل السياسية ، لم يكتب قصيدة ذات قيمة .

وذهب نيرودا من باريس الى روسيا لحضور الاحتفال بمرور مائة وخمسين عاما على ميلاد بوشكين ، ثم عاد من هناك الى المكسيك ، حيث نشرت الطبعة الأولى من ديوان « قصيدة عامة » عام ١٩٥٠ .

وحين أسقطت حكومة جونزاليز فيديلا ، عاد نيرودا الى شيلى . وقد ظل يقيم بازلا نيجرا منذ عام ١٩٥٣ ؛ وهى جزيرة صغيرة نائية تقع قريبا من ساحل سانتياجو ؛ كما أمضى وقتا من السنوات الأخيرة فى فالباريسو .

هذه القصيدة العامة

وقد طرأ تغيير داخلى هام على الأسلوب عنده ، فالقصائد السيريالية فى ديوان « الحياة على الأرض » فى مجلديه الأول والثانى الى القصائد التاريخية السردية فى ديوان « قصيدة عامة » . ومن ثم فقد تغير أسلوبه الشعرى مرات عديدة جدا منذ تلك المرحلة . فقد استخدمت قصائد ديوانية « الحياة على الأرض » و « قصيدة عامة » ، فى أغلبها ، البيت المتئد الطويل الذى كان يوسع الشاعر أن يفرغ فيه مزيدا من القوة . وفى منتصف الخمسينات بدأ الشاعر فى كتابة القصائد الغنائية من نوع «الأود» مستخدما الابيات المتعرجة التى لاتزيد عن كلمتين أو ثلاث كلمات . وقد كانت هذه القصائد « قصائد أولية » ، أو « قصائد فى الأشياء البسيطة » . فقد كتب قصيدة عن ساعة يد ، قام جيروم روذنبرج بترجمتها على خير وجه ، وكتب قصيدة عن الهواء وقصيدة عن جوربه وقصيدة عن النار وأخرى عن البطيخ وواحدة عن الرسم وغيرها عن الملح . وتدافع الديوان فى اثر الديوان من مثل هذه القصائد ، حتى لقد نشر حوالى مائة قصيدة من هذا النوع فى ثلاثة أو أربعة أعوام وفى السنوات الأخيرة عكف على كتابة ديوان من عدة قصائد عن سيرته الذاتية باسم « فى ذكرى جزيرة نيجرا » .

واليوم يهيمن نيرودا كلية على الشعر فى أمريكا الجنوبية . ولقد سمعت شاعرا شابا من أمريكا اللاتينية يشكو من وفرة شعر نيرودا . وقد قال لى أنه حينما تظهر فى الأفق فكرة جديدة ، ويحدث أن يكتب عنها شاعر شاب قصيدة ، حتى ينشر نيرودا فجأة ثلاثة مجلدات ! ثم أضاف الى ذلك قوله : « **ولكن كيف يغلب بابلو لبنا ؟ لأن قصائده ما تزال جيدة ـ وهذا أسوأ ما فى الأمر !** » .

الطفولة والشعر

يكتب نيرودا فى كتابه « الطفولة والشعر » متأملا فى جوهر شعره فيقول :

« ذات يوم وأنا أفتش فى ساحة منزلنا بمدينة تيموكو عن الأشياء الدقيقة والكائنات الصغيرة فى عالمى ، عثرت بثقب فى أحد ألواح السياج . ونظرت من خلال الثقب فاذا بى أبصر منظرا طبيعيا أشبه بالمنظر الواقع خلف منزلنا ، برى لم تعن به يد . وتراجعت الى الخلف خطوات قليلة ، لانى أحسست احساسا غامضا أن شيئا ما على وشك أن يحدث . وفجأة أطلت يد ... يد دقيقة لصبى يقارب عمرى . وفى تلك اللحظة اقتربت من الثقب اقترابا لصيقا مرة أخرى ، فاختفت اليد ، وفى مكانها وجدت دمية عجيبة لحمل أبيض .

« كان صوف الحمل ناحلا . واختفت العجلات التى يجرى فوقها . ولم يزده ذلك الا أصالة . فما كنت قد رأيت قط حملا مدهشا كهذا . ونظرت من خلال الثقب ، ولكن الصبى كان قد اختفى . ورجعت الى البيت ثم عدت حاملا كنزا مما أملك : كوزا من الصنوبر ، مفتوحا ، مليئا بالعطر والراتنج ، كنت أحبه حبا شديدا . ووضعته فى نفس المكان ومضيت بالحمل .

« ولم أر اليد ولا الصبى بعد ذلك أبدا . وما رأيت

حملا كهذا الحمل أبدا . وقد فقدت هذا الحمل فى حريق . ولكنى حتى الان ، فى عام ١٩٥٤ ، وقد كدت أبلغ الخمسين من عمرى ، ما أن أمر بمحل لبيع اللعب ، حتى أتطلع مشوقا الى فترينة العرض ، ولكن دون جدوى . انهم لن يصنعوا دمية حمل كهذه بعد ذلك أبدا .

« **لقد كنت انسانا محظوظا . ان الشعور بصلة الأخوة لشيء رائع فى الحيـاة . ان الشعور بحب أولئك الذين يحبوننا لهو الوقود الذى يغذى حياتنا . اما أن نشعر بالود الذى ياتى من الذين لانعرفهم ، من أولئك المجهولين لدينا ، الذين يسهرون على حلمنا ووحدتنا ، يعنون بالمخاطر التى تحف بنا والضعف الذى يلم بنا ـ فهذا شيء يظل أعظم وأكثر جمالا لانه يفسـح من حدود وجودنا ، ويوحد بين الأحياء جميعا .**

« لقـد جعلنى هـذا البذل ، لأول مرة ، آنس لفكرة سامية : هى أن الناس جميعا معا بطريقة ما . وقد عادتنى تلك التجربة مرة ثانية فى فترة متأخرة ؛ وفى تلك المرة وقفت باصرار ضد أرض المضايقات والاضطهاد .

« ولست أريد أن أفاجئك انى حاولت أن أقدم بدورى شيئا عطرا ، يشبه الأرض ، لاخوتى فى الانسانية . وكما فعلت حين تركت كوز الصنوبر عند السياج ، تركت منذ ذلك الحين كلماتى عند باب العـديد من النـاس الذين لا أعرفهم ، سواء كانوا فى السجن ، أو مطاردين أو يحيون الوحـدة .

« هذا هو الدرس العظيم الذى تعلمته فى طفولتى ، فى ساحة بيت منعزل وحيد .

ولعل هذا لم يكن أكثر من مجرد لعبة لعبها صبيان لم يكن يعرف أحدهما الآخر أراد كل منهما أن يقدم لصاحبه شيئا من طيبات الحياة . ومع ذلك فان هذا التبادل الخفى الصغير لهديتين لعله قد ظل بداخل أعماقى ، كالوديعـة الراسخة ، باعثا بقصائدى الى الحياة » .

هذه القصة الجميلة الطريفة ، التى يربطها نيرودا بحذق بأصول شعره ، هى رفض واع للعلاقة بين الشعر والمرض، تلك العلاقة التى غالبا مايصر الأوربيون عليها . وأهم أمر يثيرنا ازاء نيرودا ، فيما أرى ، حين نقارنه باليوت أو دين توماس أو ازراباوند ، هو ذلك الحب العظيم الذى يصاحب خياله . لقد قرأ نيرودا شعره لأول مرة فى الولايات المتحـدة فى يونيو من عـام ١٩٦٦ فى « ركن الشـعر » بنيويورك ، وقد كان واضحا من هذا ان شعره قد أعتبر موهبـة . وحين قام اليوت بقراءة شـعره ، خامر الانسـان شعور بان تلك القراءة تجربة ثقافية ، ان اليوت قد شك كثيرا فيما اذا كنت تستحق عناءه ، ولكنه قد حاوله على أى حال ، وحين قرأ ديلان توماس ، خامر الانسان شعور بانه موشك أن يقـدم عرضا تمثيليا ساحرا وقائما على الفانتازيا ، ربما يشبه رسم العذراء وهى راكبة فوق ثلاث جياد بيضـاء ، ولعلك قد تفيد من هـذا التمثيل ، وقد لا تفيد منه شيئا . واعتاد باولد أن يؤنب المستمعين على عدم فهمهم لما قال . اما حين يقرأ نيرودا فان جو القساوة يغدو حبا بينه وبين مستمعيه .

عالم ماتحت الوعى

اننا نميل الى ربط الخيال الحديث بالخيال المهتز ، الذى يتحرك بدايه الى الأمام ، ثم يتوقف ، ليدور حول نفسه، ليتحول من موضوع الى موضوع . اما فى شعر نيرودا فان الخيال يتحرك الى الأمام ، ضاما القصيدة كلها فى تدفق متصاعد من طاقة الخيال . وفى عالم ماتحت الوعى ، فى تلك الادغال حيث أشار فرويد ، وهو واقف على مقربة منها ، الى غابات الاتصال بالمحرمات والى الهياكل البدائية النصف المدفونة والى الأجسام غير المدفونة ، فى هذا العالم يتحرك خيال نيرودا بثقة مطلقة ، من نقطة الى أخرى بأسلوب ساحر أخاذ . فهو يربط حياة موثقى المقود الناضبة من العواطف ببياض أرضية الحجرات ، ويربط الرغبة الجنسية بأشكال الأحذية ، ويربط الموت بصوت النباح حيث لايوجد كلب. ان خياله ليرى العلاقات الخفية بين أمور الوعى واللا وعى بتلك الثقة التى قلما أثقلها بالاستعارات ـ انه ليربط بينها من ذيولها الخفية . انه لنوع جديد من المخلوقات يتحرك حول وتحت سطح كل شيء . وهو فى تحركه تحت الأرض ، يعرف كل شيء من قاعها حتى سطحها العلوى (وتلك هى الطريقة الصحيحة لمعرفة طبيعة شيء ما) ومن ثم لا يضل الطريق الى اسمه أبدا . ان أغلب الشعراء الامريكيين ، اذا ما قورنوا به ، ليشبهون جماعة من المكفوفين يتحركون فى حـذر من شـجرة الى شـجرة ، ومن بيت الى بيت ، يتحسسون كل شيء لفترة طويلة ، ثم يصـيحون عاليـا « بيت ! » على حين اننا نعرف من قبل انه بيت .

وهو ينتهك قواعد السلوك التى أقرها الحكماء . والحكمة التقليدية تؤكد لنـا أن العالم الخـارجى لا حقيقة له لدى السيريالى ـ والشيء الحقيقى الوحيد عنده هو التدفق الداخلى لصوره الباطنية . وأعمال نيرودا تهدم ذلك القول الشائع المألوف . ذلك ان شعر نيرودا عميق فى سيرياليته ، ومع ذلك فان للاشياء من العالم الخارجى ، مثل شركة الفواكه المتحدة ، تأثيرا فى قصائده يفوق مانجده لدى أى شـاعر مباشر مستقيم من الأحياء . ويؤكد لنا الحكماء انه ما أن يأخذ الشاعر موقفا سياسيا حتى يتوقف عن كتابة الشعر الجيد . وقد أصبح نيرودا شيوعيا فى منتصف حياته ومع ذلك ظل شاعرا عظيما : لقد أنتج ، على الأقل وهذا مايجب أن يعترف به الانسان ، نصف أعماله العظمى بعد تلك الفترة . لقد استمر يكتب شعرا عظيما طوال حياته .

وأخيرا ، يصر كثير من نقاد الأدب فى الولايات المتحدة على ضرورة أن تكون القصيدة غير يسيرة التناول ، وأن تكون عقلية وغير شخصية والا أعوزتها البراعة الفنية. ان نيرودا رومانسى الى حد بعيـد ، أبعد مما يحلم به هيـوم أو ازراباوند . وهو لا يملك من النظريات الأدبية الا القليل الا انه يتمنى ، مثل فاليجو ، أن يقدم العون للانسانية ، وأن يقول الحق من أجل ذلك الهدف .

حول مقال .. أزمة الشعر الجديد

تعقيب للشاعر بدر توفيق

فى العدد ٥٣ (يوليو ٦٩) من مجلة «الفكر المعاصر» نشر الاستاذ جلال العشرى مقالا عن ديوان « البكاء بين يدى الزرقاء اليمامة » .

وقد اراد الاستاذ جلال قبل مقالته عن الديوان ان يكتب مقدمة جادة عن شعرنا الجديد كنوع من «ملخص مانشر» فى المسلسلات الروائية الذى يقيم جسرا يصل السابق باللاحق . وكان من الممكن للاستاذ جلال أن ينجح فى هذا ، ولكنه للأسف فصل اكثر مما وصل .. فكيف حدث هذا ؟

اوهمنا الاستاذ جلال بعنوان مقالته «ازمة الشعر الجديد» والتى وضع أسفلها خطين أسودين عريضين وبالكلمات الاولى فى مقالته «الظاهرة التى لا يخطئها الباحث الادبى بعامة والمتتبع لحركة الشعر بوجه خاص » أنه باحث ادبى بوجه عام ومتتبع لحركة الشعر بوجه خاص ، وانه سيفاجئنا بفض اختام العالم المغلق بماله من تخصص فى تتبع حركة الشعر بالذات .

وانا هنا لا اقصد تحليلا وتعليقا على المقال باكمله ولكنى اكتفى بتصحيح ثلاث نقاط هامة :

١ - عن الشاعر صلاح عبد الصبور : يقول انه «استطاع من خلال ديوانه الثالث ان يدخل مرحلة النضوج الفكرى ! وأن يقيم بناء هيكله الشعرى ! وأن تعقد له الاماره على شعراء العربية المحدثين !! - ولم يقتصر الدور الذى قام به صلاح عبد الصبور على هذا وحده ، بل تعدى ذلك الى نقل حركة الشعر الجديد من مجرد حركة تجديد نائية هناك على جناح النسر العربى ! الى حركة ثورية هنا فى قلب الوطن العربى كله !! » .

يا استاذ جلال : لم يعقد أحد لصلاح عبد الصبور الاماره على شعراء العربية المحدثين كما تدعى لاننا لانستطيع ان نرتد الى عصر القصور الخديوية . وامتياز صلاح كشاعر يكمن فى ابداعه الشعرى ودماثة خلقه واخلاصه الانسانى للفن وللحياة . اما الذى ذكرته فى مقالك عنه فانه يشوه صورته الفنية والانسانية فى قلوب محبيه .

٢ - بخصوص جيل ما بعد صلاح عبد الصبور : اكتفى فى هذا المجال بتعليق مقتضب فى سؤال وجواب عما يخصنى : كيف - يا استاذ جلال - وانت الباحث الأدبى بعامه والمتتبع لحركة الشعر بوجه خاص كما قررت فى بداية مقالك - تدعى باننى فى ديوانى «قيامة الزمن المفقود» تاثرت بالشاعر صلاح عبد الصبور فى جانبه الفلسفى والميتافيزيقا .... ما احب أن تعرفه عن «صلاح انه شاعر تنضج اشجانه واحزانه على نيران تاملاته الهادئة .. وان حزن صلاح العميق والمستمر وشجاعة احتماله لآلامه اليومية هما الوجه الحقيقى الذى يميزه كشاعر وانسان وليست الفلسفة والميتافيزيقا .

اما عن « بدر توفيق » و « قيامة الوطن المفقود » فاكتفى بذكر بعض ما قاله «صلاح عبد الصبور» عند مناقشته « مع النقاد » باذاعة البرنامج الثانى :

(له ضمير فنى يقظ - صاحب صوت أصيل فى شعرنا الحديث نجد عنده الغنائية وافرة متدفقة - حقق قدرا كبيرا من الموسيقية بالوانها المختلفة بالتفعيلة الداخلية واختيار الألفاظ - ادخل الفاظا جديدة فى القاموس الشعرى الحديث - وفق فى كثير من الوان التعبيرات بحيث نجد فيه جدة ونضارة نتوقف عندها ونغبط الشاعر عليها - طريق فنى جديد يكفيه شرفا انه جسر على اجتيازه) .

ثالثا : نصائحك لأمل دنقل فى نهاية المقال والتى تقصد بها تغيير رؤية الشاعر الفنية نردها اليك مع هذه البطاقة من شعر محمود درويش) ياصديقى .... لن يصب النيل فى الفولجا

ولا الكونغو ولا الأردن فى نهر الفرات

كل نهر وله منبع ... ومجرى ... وحياة)

اما اروع الافعال واعظمها فليست تلك التى انجبها ثائر مثل جيفارا لأن رجلا واحدا من جنودنا الذين يستشهدون يوميا فى صمت ، ابلغ واعمق واهم من استعراض واستعارة مقتل جيفارا .

●●

تعقيب على التعقيب

بقلم جلال العشرى

يبدو أن الأزمة هى أزمة الشاعر نفسه وليست أزمة الشعر الجديد ، فهل هذا كله لأننى قلت عنه أنه تأثر فى ديوانه «قيامة الزمن المفقود» بصلاح عبد الصبور فى جانبه الفلسفى أو الميتافيزيقى ، وهل كان يرضى الشاعر أن أقول عنه أنه لم يتأثر بصلاح عبد الصبور على الاطلاق ، أليس تعقيبه من أوله الى آخره استغراقا فى صلاح عبد الصبور فى الوقت الذى أراد فيه أن يدفع عن نفسه تهمة التأثر بهذا الشاعر ؟ ألم يبلغ به الاستغراق حد استظهار كلمات الشاعر رغم انها قيلت فى الهواء ولم تدون على الورق ؟ وعلى كل فلأكتفى هنا بتصحيح النقاط الثلاث التى ظن الشاعر انه قام بتصحيحها :

(١) أما عن قوله ان أحدا لم يعقد لصلاح عبد الصبور الامارة على شعراء العربية المحدثين ، فلم أكن أنا صاحب الفضل فى هذا « الادعاء » ، وانما سبقنى اليه الناقد الدكتور لويس عوض ، ولو أن الشاعر كان متتبعا لحركة النقد الأدبى بعامة وحركة النقد الشعرى بوجه خاص ، لتذكر أن الدكتور لويس عوض كان قد كتب فى أهرام الجمعة فى ٧ أغسطس ١٩٦٤ ، مانصه : « بعد ديوانه الأول « الناس فى بلادى » وبعد ديوانه الثانى « أقول لكم » أثبت صلاح عبد الصبور من ديوانه الثالث «أحلام الفارس القديم» نهائيا وبما لا يدع مجالا للشك انه دخل مرحلة النضوج ، وأثبت صلاح عبد الصبور نهائيا وبما لا يدع مجالا للشك أن عمود الشعر الجديد قد اقيم وان انقاض ذلك المعبد الأثيل الذى انهار بموت شوقى قد أزيلت وارتفع مكانها البناء الجديد ، وهو بناء لم يبلغ بعد فخامة المعبد القديم ولكن الأساس يوحى بأن ما سيكون شيء سنفاخر به الأقدمين . وما على صلاح عبد الصبور الا أن يتم بناء هيكله على هذا الغرار لنضع فى يده لواء الشعر العربى وننصبه عميد شعراء العربية المحدثين فى كل الأمصار » .

ولو قارن الشاعر بين كلمات الدكتور لويس عوض وبين كلماتى ، لوجد أننى تعمدت استخدام بعض كلماته ، لا لشيء الا لأننى لم أكن أول من عقد لصلاح عبد الصبور الامارة على شعراء العربية المحدثين ، وانما سبقنى اليها الدكتور لويس عوض ومنذ ثلاث سنوات ، ولم يقل أحد انه شوه صورة صلاح عبد الصبور الفنية والانسانية فى قلوب محبيه ، أو أنه ارتد بذلك الى عصر القصور الخديوية .

ياأستاذ بدر ، ان مراجعة ولو عابرة لتاريخ الشعر والشعراء تطلعك على أن مبايعة الشاعر ، أى شاعر بالامارة مسالة لاعلاقة لها بالقصور الخديوية ، وانما هو تقليد شعرى له ما يقابله فى الكثير من لغات العالم ، والا أين كانت القصور الخديوية عندما بايع طه حسين العقاد بامارة الشعر ، أو عندما عقدت هذه الامارة للشاعر الانجليزى تنيسون ، والشاعر الروسى بوشكين ، والشاعر الفرنسى المعاصر جان كوكتو ؟

(٢) واما عن تعريفه لصلاح عبد الصبور بأنه «شاعر تنضج أشجانه

واحزانه على نيران تاملاته الهادئة » فكلام عام يقال على صلاح عبد الصبور كما يقال على غيره الشعراء ، والا فما المانع من ان يكون عبد الوهاب البياتى او عبد المعطى حجازى او حتى بدر توفيق .. شاعر تنضج اشجانه واحزانه على نيران تاملاته الهادئة ؟ ما احب ان تعرفه يا شاعر هو ان التعريف لكى يكون صحيحا لابد له من ان يكون جامعا مانعا ، اعنى ان يجمع الخصائص التى تميز الشاعر عن غيره من الشعراء ، ويمنع الخصائص التى قد يشترك فيها الشاعر مع غيره من الشعراء. وكلامك عن صلاح عبدالصبور يمكن ان يكون تعريفا لأى صلاح ولكنه ليس بالضرورة تعريفا لصلاح عبد الصبور !

واما ان حزن صلاح العميق والمستمر وشجاعة احتماله لآلامه اليومية هما الوجه الحقيقى الذى يميزه كشاعر وانسان وليست الفلسفة والميتافيزيقا، فراى قد نختلف حوله ، لأنه فى تقديرى الراى الذى يجعل من صلاح شاعرا كغيره من الشعراء الذين يشتركون معه فى نفس الخاصية .. « الحزن العميق والمستمر ، وشجاعة احتمال الآلام اليومية » اما الذى يجعل من صلاح عبد الصبور ، أو من غيره ، شاعرا متميزا عن غيره من الشعراء فهو فلسفته فى الوجود والانسان والحياة وعلاقة كل بالاثنين الآخرين ، وهذا فى تقديرى هو الوجه الحقيقى لصلاح عبد الصبور ، والذى لم يغب عن ناقد مثل الدكتور لويس عوض عندما قال فى كتابه « الثورة والأدب » وتحت عنوان « ميتافيزيقيات » ما نصه : « ان صلاح عبد الصبور انتقل تدريجيا من التجربة الخاصة الى التجربة العامة ومن جزئيات الوجود الى كلياته ، وبعد ان كان يحدثنا عن نفسه وعن استجاباته اصبح يحدثنا عن الانسان فى مجموعه وعن موقف الانسان من الوجود ... بل اضحى يلتمس طريق الانسان الى الخلاص ، والبحث عن الخلاص اول بوادر مواجهة الوجود بفلسفة ايجابية، ومواجهة الوجود بفلسفة ايجابية هى بداية كل شعر عظيم وفن عظيم » .

(٣) ما قلته عن امل دنقل فى نهاية المقال لم يكن من قبيل النصائح ، ولا كان القصد منه تغيير رؤية الشاعر الفنية ، وانما هو تقييم نقدى ومن خلال موقفى الأيديولوجى لرؤية الشاعر ، واظن انه من حقى ومن حق اى ناقد ان يتناول العمل الفنى من خلال منهجه الخاص فى الفن وفى الحياة ، هكذا فعل محمد مندور فى تقييمه لشعر عزيز اباظة . وهكذا فعل لويس عوض فى تقييمه لشعر صلاح عبد الصبور ، وهكذا فعل رجاء النقاش فى تقييمه لشعر محمود درويش .

والغريب حقا ان يرد بدر توفيق نصائحى لأمل دنقل مع بطاقة من شعر محمود درويش وانا الذى لم اهب بالشاعر امل دنقل بعد ان مات العالم فى قلبه ، وتفتت بشرته فى كفه ، ولم يتبق منه سوى جمجمة وعظام ، الا أن يفعل ما فعله محمود درويش ، الم اقل له بالحرف الواحد : « الا يستفزه ما يحدث على الوجه الآخر من عالمنا من بطولة وتضحية واستشهاد هناك فى فيتنام وهنا فى الأرض المحتلة ، الا توقظه صيحات التحرير التى تطلقها كل الشعوب المناضلة التى آمنت بحقها فى الحياة رغم بطش القراصنة وعصف أعداء الحياة » .

ومع هذا فانا ارد للشاعر بدر توفيق تعقيبه على مقالى عن أزمة الشعر الجديد مع هذه البطاقة من شعر محمود درويش نفسه ، عساها تصحح له مفهومه عن الشعر عند هذا الشاعر :

فالشعر دم القلب ..

ملح الخبز ..

ماء العين

يكتب بالأظافر

والمحاجر

والخناجر .

●●

محمود مختار اكتسب حماس وتأييد الجماهير المصرية التى اشعلت ثورة مصر الوطنية

علامات على .. طريق فن النحت المصرى المعاصر





جمال السجينى : كانت تماثيله صرخات احتجاج وتمرد على كل ما عاناه الشعب العامل فى بلادنا قبل الثورة

يعتبر فن التصوير عندنا أكثر الفنون التشكيلية ثراء فهو يتضمن العديد من الاتجاهات بل ويشمل تقريبا كل المدارس والمذاهب الفنية المعروفة حتى الآن ... بالاضافة الى المحاولات المتناثرة والأصيلة التى تهدف الى تحقيق قيمة تشكيلية جديدة تنبع من تراثنا القومى وتستفيد بالخبرة التكنيكية التى حققها الفن الأوربى خاصة فى السنوات الأخيرة ... ولقد شهد فن التصوير منذ نهاية الحرب العالمية الثانية نماذج للمدارس الأوربية حتى تكشفت فيه معظم الاتجاهات التى ظهرت فى أوروبا خلال ١٥٠ عاما .

اما فن النحت فهو اقل ثراء من فن التصوير واكثر تحديدا ، فالنظرة العامة الى منجزات هذا الفن منذ بداية القرن حتى الآن تعطى الانطباع بتخلفه أو على الأقل ، تعثره فى مسيرة التطور الفنى ...

وربما كان السبب فى ذلك هو قلة عدد المثالين اذا قورن بعدد المصورين فمن بين فنانى الرعيل الأول البضعة المعروفين نجد مثالا واحدا هو **محمود مختار** والباقون مصورون، وربما يرجع السبب فى هذا الانطباع الى قلة انتاج هذه القلة من الفنانين عند مقارنتهم بانتاج المصورين .. ثم صعوبة الاحتفاظ بالآثار الفنية المنحوتة وتعذر تخزينها بعد أن انفصلت عن العمارة التى تهب ماء الحياة للنحت وتحقق له البقاء والاستمرار .

لكن المسألة لا تقتصر على الجانب الكمي فى عدد المثالين وعدد اعمال النحت وسهولة اندثارها وانما تتعداه الى الجانب الموضوعى المتعلق بالأعمال الجيدة والأصيلة فى كل من فن التصوير والنحت وزاوية الابداع الخلاق فى الأعمال المجسمة بالنسبة لمثيلاتها المسطحة .. لهذا تبدو الأعمال الجيدة والأصيلة فى تاريخ فن النحت المصرى الحديث وكأنها علامات مضيئة متناثرة على طريق هذا الفن منذ مطلع القرن العشرين حتى الآن ..

وعند التصدى لتقييم هذا الفن نتوقف عند أربع علامات مضيئة بارزة ظهرت حتى الآن تتخللها فترة من الركود الأكاديمى امتدت لعشر سنوات كاملة متتالية ... وان هذه العلامات لتفرض نفسها بقوة على كل متابع لتاريخ النحت المصرى الحديث .

لقد وضع أول هذه العلامات المثال **محمود مختار** (١٨٩١ ـ ١٩٣٤) عندما استطاع أن يبتكر الصيغة الجمالية الملائمة لتزاوج القيم الفنية الأوربية ـ وخاصة الفرنسية ، فى القرن الثامن عشر والتاسع عشر بالقيم الجمالية الفرعونية ، ثم سخروا هذا الابتكار للتعبير عن المرحلة الاجتماعية التى عاشها ، مرحلة النهضة والبحث عن الشخصية المصرية فى أعقاب ثورة ١٩١٩ . **فحظى فنه باحترام وتقدير الأوساط الفنية الفرنسية التقليدية واكتسب فى نفس الوقت حماس وتأييد الجماهير المصرية التى أشعلت ثورة مصر الوطنية .**

بعد وفاة مختار عام ١٩٣٤ وحتى نهاية الحرب العالمية الثانية ساد فن النحت المصرى اتجاه أكاديمى محافظ ، وخلال هذه الفترة لم تتحقق أية اضافة يعتد بها الى هذا الفن .. كان الاتجاه السائد هو النمط الكلاسيكى الغربى ومحاولات تقليد أعمال المثال مختار ، **فقد ألقى فن مختار ظلا كثيفا على تلاميذه ومن عاصروه من المثالين فانطبع الانتاج الفنى ببصماته ولا يزال اتباع هذه المدرسة الأكاديمية ـالطابعـ يعيشون بيننا الى الآن وقد توقف معظمهم عن الانتاج فى حين أصبح انتاج القلة الباقية نادرا ، ولكنه بلا عطاء .**

وفى أواخر الأربعينات وضع المثال **جمال السجينى** العلامة الثانية البارزة فى مسار النحت عندما عاد من أوروبا محملا بالأساليب الحديثة مثل الرمزية فى التعبير والتكعيبية فى معالجة كتلة النحت .. **وراح يدعو الى التجديد والتحرر والتخلص من سيطرة فن مختار ممارسا الرمزية فى النحت وداعيا الى الفن ذى الرسالة الاجتماعية . كما حقق فى مجال النحاس المطروق وفن الميدالية تطورا هاما وأثبت أنه أستاذ هذا المجال بغير منازع كاشفا عن أسرار خامة النحاس المطروق وعن حساسية تشكيلية مرهفة تتجاوب مع هذه الخامة الى غير حدود .**

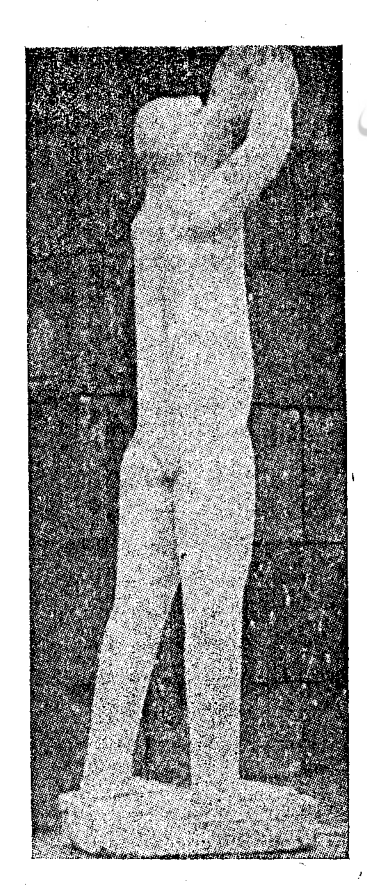
أما العلامة الثالثة فقد تحققت فى أعمال المثال **صموييل هنرى** ـ المعروف حاليا باسم **آدم حسنين** .. ففى الفترة من عام ١٩٥٢ حتى عام ١٩٥٧ حقق فى فن النحت تحولا هاما بابتكاره الصيغة التشكيلية التى تمتزج فيها التعبيرية الموضوعية بالواقعية الاجتماعية .. **وكانت اضافته فى مجال الخامة هو استخراج كل الامكانيات التعبيرية للطين المحروق** .. فكانت أروع أعماله من خامة الفخار على رأسها تمثال « **الحرية** » و « **أم الشهيد** » .

ومع بداية الستينات ظهرت العلامة الرابعة فى تطور النحت المصرى الحديث عندما عرضت أعمال الفنان **صلاح عبد الكريم** المركبة من بقايا الحديد ومهملات المعادن (الخردة) **فأحدثت انقلابا فى مفهومات النحت التقليدية مع التعبير عن قيم فنية عالية ومضمون انسانى عام** .. وذلك من خلال الدلالة الرمزية لخامات الحديد والمعادن التى تشير الى المجتمع الصناعى الوليد ببلادنا ، من ناحية ، والتعبير عن هموم الانسان المعاصر ورعبه واغترابه من الناحية الأخرى ، وتقف على رأس هذه الأعمال تماثيل « **المسيح المصلوب** » و « **صرخة الوحش** » .

هذا لا يعنى أن فن النحت فى بلادنا لم يشهد غير هذه الطفرات الأربع وانما هناك من تفاعلوا مع أعمال الفنانين العالميين المعاصرين أمثال : « **هنرى مور** » و « **البرتو جياكومتى** » و « **مارينو مارينى** » وغيرهم .. وهناك اضافات أصيلة لها قيمتها حققها البعض الآخر من المثالين الشباب وتتمثل فى أعمال الفنان الراحل **كمال خليفة** وتماثيل **صالح رضا** و **عمر النجدى** و **محمد هجرس** و **حسن العجاتى** و **عبد الحميد الدواخلى** .

الا أن أعمال هؤلاء **لم تحقق من الفاعلية المؤثرة حدا يجعلنا نضعها على**

آدم حنين : ابن الكفاح المسلح فى القناة ، والغاء معاهدة ١٩٣٦ ، ثم ثورة يوليو التى جاءت بعد ٦ شهور من حريق القاهرة



مكتبتنا العربية

رأس اتجـاه يحقق منعطفا واضح القسمات أو علامة بارزة يتطلع اليها شباب المثالين ... ولكن مما لا شك فيه أن من بين هذا الشباب ستبرز علامات مضيئة فى تطور فن النحت تثريه وتغنيه وتجعلنا نفخر بتطور هذا الفن الذى يبشر مستقبله بانتاج وفير وأصيل .

محمود مختار بين المحافظة والثورية

لم يحظ أى فنان تشكيلى فى بلادنا بما حظى به المثال محمود مختار من شهرة وتكريم سواء فى حياته أو بعد موته .. وهو صاحب تمثال **نهضة مصر** المقام حاليا أمام جامعة القاهرة وهو الذى صنع تمثالى **سعد زغلول** بالقاهرة والاسكندرية وصمم وأشرف على تنفيذ قاعدتيهما بما تحملانه من تماثيل ونقوش النحت البارز والغائر ذات الدلالات القومية الواضحة .

انه أول من أعاد الحياة لازميل النحات المصرى بعد أن توقف مئات السنين فكان أول مثال فى بلادنا يقيم تماثيله فى الميادين العامة .. والوحيد من مثالينا الذى أقامت له الدولة متحفا خاصا لانتاجه الفنى بحديقة الحرية بالجزيرة .

ولقد حقق فى حياته الفنية القصيرة مكانة كبيرة وشهرة واسعة بين الملايين، واستطاع أن يقيم بناء شامخا فى تاريخ النحت المصرى الحديث بعد أن وضع لبناته الأولى .

كان ميلاد مختار عام ١٨٩١ باحدى قرى الوجه البحرى وقد انتقل فى حياته الى القاهرة ليعيش مع أمه فى أحد الأحياء الشعبية فتعرف على وجه مصر الأصيل فى الريف والمدنية .. وعندما انشئت مدرسة الفنون الجميلة عام ١٩٠٨ أسرع مختار ليلتحق بها . وهناك بدأ دراسته المنتظمة . على أيدى أساتذة أوروبيين يلقنون التلاميذ التعاليم المدرسية الكلاسيكية فى الفن. وكان فكره فى مرحلة الدراسة يتجه الى تصوير البطولات الاسلامية فى تماثيل « **طارق بن زياد** » و « **خوله بنت الأزور** » وأبطال الحركة الوطنية كما فى تمثالى **مصطفى كامل** و **محمد فريد** .

ويخرج مختار وزملاءه فى المظاهرات المطالبة بالدستور والاستقلال عام ١٩١٠ ويعتقل لمدة ١٥ يوما . وبعد عام واحد يسافر الى باريس على نفقة **الأمير يوسف كمال** الذى أنشأ مدرسة الفنون الجميلة ، بناء على تقرير من أستاذه الفرنسى مسيو « لابلانى » .

ان فهمنا لهذه التناقضات وموقع مختارة منها ، يفسر لنا بعض أسباب الانقسام الذى حدث له ، والدوافع التى أدت الى مقاومة أعماله فى بعض الفترات بالأساليب الادارية .

ففى عام ١٩٠٨ أقام **الأمير يوسف كمال** مدرسة الفنون الجميلة ، بدرب الجماميز ، وفى نفس التاريخ أنشأ **الأمير احمد فؤاد** الجامعة المصرية القديمة بميدان الأزهار ، وقاده هذا الطريق الى الفوز بالعرش بعد سنوات قليلة من ذلك التاريخ وتوج باسم الملك فؤاد .. وهذا ماكان يطمع فيه يوسف كمال وعمر طوسون وغيرهما من أمراء الأسرة المالكة فى ذلك التاريخ .

وفى باريس تفتحت عينا الشاب على ما تملكه مصر من تراث عريق فى فن النحت لم ينتبه اليه أحد من قبل ، هذا بالاضافة الى التحرر والانطلاق .. وهو ما لم يحسب حسابه الأمير أو الأساتذة الأوروبيون .

ولما عاد الفنان الى مصر بعد ثلاثة أعوام ، عرضوا عليه ادارة مدرسة الفنون الجميلة وكان عمره ٢٣ سنة ولكنه رفض وفضل العودة الى باريس للاستمرار فى دراسته ، واستغل هذه الزيارة القصيرة الى مصر فى مشاهدة واستيعاب ما تحتويه دار الآثار من أعمال النحت .. ثم عاد الى فرنسا وهو مشغول بالبحث عن مصرينه مجتهدا فى دراسته دون أن يتخلى عن وطنيته .

وعندما قامت ثورة ١٩١٩ فى مصر بدأ يفكر فى تمثال « **نهضة مصر** » وهنا برز التناقض العميق بين ثقافته الفرنسية المحافظة ومصريته وحسه الوطنى الثورى ، فكانت فكرته الأولى تمثال امرأة جميلة تمسك سيفا .. كما لو كانت **جان دارك** التى تمثل البطولة والوطنية عند الفرنسيين .

وجاء يوم عظيم فى حياة هذا الفنان عندما نظر الى تمثاله الذى أعجب به أساتذته الفرنسيون وأعضاء الوفد المصرى عند زيارته لباريس .. وأحس انه تمثال فرنسى الروح والاسلوب وليس فيه من المصرية شيء ... فحطمه ووضع تصميما هو تمثال نهضة مصر ، فلاحة مصرية ترفع الحجاب وترتكز بيمناها على أبى الهول رمز الحضارة العريقة .

وهكذا كان مختار ينتمى من الناحية الفنية الى الاتجاهات المحافظة الفرنسية، لأن الفترة التى عاشها هناك فى أوائل القرن كانت تشهد أخطر الانقلابات الفنية اذ ظهرت خلالها التكعيبية والسيريالية فى فرنسا والتجريدية فى ألمانيا ، وكانت المدارس الجديدة التى تواجه الأساليب التقليدية قد أعلنت العصيان على صالون باريس الرسمى وأقامت صالون المستغلين لتعرض فيه أعمالها بعيدا عن الرقابة المحافظة ذات المقاييس التقليدية الصارمة .. **وكان مختار يحظى بتقدير هؤلاء الذين رفعوا أعماله عاليا فى وقت كانوا يترنحون فيه تحت وطأة الهجمات العنيفة للمجددين .**

ومع هذا كان فن مختار يمثل بالنسبة لمصر ثورة فنية كاملة الأركان .. ثورة على التقاليد التى كانت تستنكر فن التصوير فما بالك بالنحت وثورة على الاستعمار والتخلف والحجاب .. وثورة على الفن الأوربى الذى حاول جاهدا اخفاء تراثنا وعمل على اقامة فنانين يسيرون على النمط الكلاسيكى الغربى ليخدموا الاقطاعيين والأمراء ويجملوا قصورهم ويشبعوا تعلقهم بأوربا وتشبههم بأثريائها وملوكها .

وعاد مختار الى مصر محمولا على أعناق الجماهير واستقبل كما استقبل

زعمــاء الوفد المصرى سعد زغلول ورفاقه .. وكانت الدعـوة لاقامة تمثال النهضة قد بلغت ذروتها فكان رجال الدين يدعـون فى المساجد الى اقامته ويقومون بجمع التبرعات عقب الصلاة حتى بلغت ٦٥٠٠ جنيه .

وهكذا كان محمود مختار أول مثال مصرى يعيد الحياة الى فن النحت بعد مئات السنين من الصمت وكانت عودة جهيدة ... ووفق الى تحقيق الصيغة الجمالية الملائمة فى عصرنا الحديث لتزاوج التراث الكلاسيكى الأوروبى الذى يستمد جذوره من الفن الافريقى القديم ، والتراث المصرى القديم ، فكانت فلاحاته وشخوصه لها نفس مقاييس فينوس الهة الجمال اليونانية القديمة ولها رشاقة وحركات المرأة الباريسية .. **ولكنها ترتدى ثياب الفلاحات المصريات وتتميز بالبساطة فى خطوط راسية معبرة عن الشموخ والشعور بالخلود وهو ما استوحاه من الفن المصرى القديم .**

ولكن مختار أقام تمثال الخماسين قبل وفاته بوقت قصير .. وهو يحمل بذرة طفره جديدة فى فنه تعتبر بداية الخيط الذى التقطه السجينى فيما بعد ليضيف بعدا فنيا جديدا الى فن مختار بعد فترة من السير فى فلكه وتقليده امتدت لعشر سنوات . فى هذا التمثال اتجه الفنان الى الجماليات المجردة مستخدما الملابس وطياتها عندما تمتلىء بالهواء فى اخراج كتلة جمالية ترتكز على أرض واقعية تتمثل فى وجه وأقدام الفلاحة التى لا يظهر غيرها من جسدها وكأنها مجرد ايماءة الى الفلاحة داخل الكتلة المتماسكة البناء .. **ان هذا التمثال يوحى ببداية مرحلة انطلاق فى فن مختار لم تكتمل ، فيها استفادة وهضم للاتجاهات الحديثة الأوربية مرتكزةعلى التراثالمصرى فاتحة الطريق واسعا للابداع والخلق .**

السجينى

فنان الرمزية والنحاس المطروق

تعتبر أعوام الحرب العالمية الثانية بمثابة الفترة التى دخل فيها الفن المعاصر بلادنا وقد بدأ بالتصوير عندما ظهرت فى أواخر الثلاثينات جماعة المحاولون ثم جماعة الفن الحر لتعملا على نقل الفكر الغربى فى الأدب والفن والفلسفة .

وفى عام ١٩٤٢ تكونت جماعة الفن والحرية فى نفس الوقت التى ظهرت فيه بعض الجماعات السياسية اليسارية ولكن كل هذه الجماعات لم تضم مثالين انما اقتصرت على المصورين والرسامين بالاضافةالىالشعراء والأدباء والمفكرين.

وفى أواخر الأربعينات كون الفنان جمال السجينى جماعة صوت الفنان التى مارست نشاطها لمدة عامين ونصف وضمت عددا من المجددين وهكذا بدأ ميلاد العلامة الثانية فى تاريخ النحت المصرى الحديث .

لقد كان السجينى فى البداية يمثل فرعا من الرومانسية والواقعية الاجتماعية ولكنه مالبث أن تحول الى الفن الرمزى وتحقيق الأساليب المعاصرة فى النحت التى تعرف عليها خلال بعثته فى أوروبا . وقد ساعده على استخدام هذه الأساليب ميله منذ البداية الى التعبير العنيف والمسرحى عن القضايا الاجتماعية التى عالجها **وكانت تماثيله فى المرحلة الرومانسية والواقعية الاجتماعية صرخات احتجاج وتمرد على ماعاناه الشعب العامل فى بلادنا قبيل الثورة .**

وقد كان السجينى ابن مرحلة الاضطراب والتململ التى شهدتها مصر طوال الأربعينات ، فقد تبلور ونضج وتلقى دراسته الفنية خلال هذه السنوات التى تعتبر سنوات الشباب والتكوين ، وفيما يتعلق بخامة العمل الفنى فقد توصل السجينى الى كشف خامة النحاس التى اقتصر استخدامها لزمن طويل على منتجات الحرفيين فى خان الخليلى للسياح وأثرياء الريف .. لقد كانت دراسةالسجينى فى أوروبا تتركز على فن الميدالية فانطلق الفنان من هذا التخصص ليحيل رقائق النحاس الىخامة للفنالتشكيلى مستخدما أسلوب الطرقليخرج لوحاتمشغولة كالدانتيلا حتى يحسبها المشاهد وكأنها خرجت من يد صائغ بارع . وفى نفس الوقت نجح الفنان فى استخلاص واستخراج أقصى طاقة تعبيرية لهذه الخامة النبيلة.

والمعروف ان الفن الرمزى يزدهر خلال فترات الكبت والارهاب اذا استخدم لمقاومة هذه الظروف ، ولهذا كانت أعمال السجينى الرمزية فى النحت مثل « **الفجر** » التى يرمز فيها بالديك الى الثورة المنتظرة ثم تمثال « **الفلاح** » الذى نفذه فى خامة الخشب، حيث تكبر الأقدام الى حد المبالغة وتصغر الرأس فتعطى الاحساس بضخامة الجسد رمزا للقوة الكامنة فى الفلاحين والقابلة للانطلاق عند الثورة والقادرة على الاستمرار بها ممثلا فى ابنه الذى يحمله بين يديه .

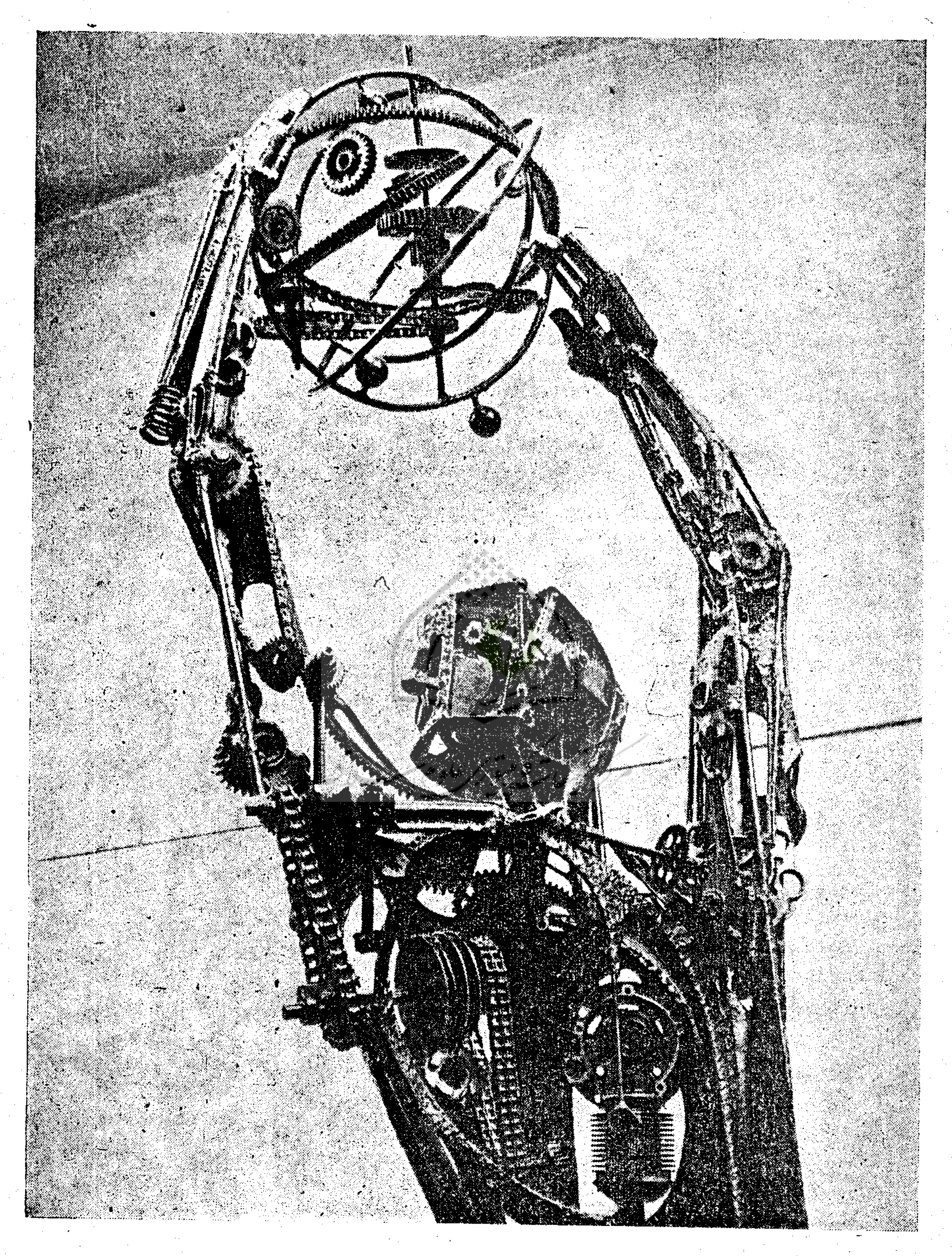
وقد ووجهت أعمال السجينى بمقاومة عنيفة سواء من الفنانين الرسميين أو الجهات الرجعية التى تعودت على مشاهدة الأعمال الاكاديمية والكلاسيكية الطابع.

وبعد قيام الثورة عام ١٩٥٢ أصبح السجينى المثال المعبر عن احداثها والمترجم لانجازاتها ومازال فنه معبرا عن قضايا المجتمع .. فهو بحق فنان الموضوع والمناسبة الذى يستخدم الرمز والتشكيل ليحقق صيغة جمالية تخفف من ثقل الموضوع المباشر وتحقق الامتاع .

ولكن السجينى رغم كل شىء لم يحقق طفرات أخرى فى فنه تحفظ له زعامة الاتجاهات الثورية فى النحت واتجه بدرجة ما نحو الزخرفة حتى ان استخدامه لحروف الكتابة العربية وتسجيله لأجزاء من قصائد الشعراء فى لوحاته النحاسية تفقد اللغة قيمتها التعبيرية وتحولها الى عنصر تشكيلى زخرفى لشغل الفراغ وفى نفس الوقت يشغل المتفرج عن الموضوع وعن الشكل فى محاولته لفك رموزها والتعرف على وسيلة لقراءتها .

آدم حنين .. والتعبيرية الاجتماعية

تخرج **صمويل هنرى** (المعروف حاليا باسم المثال **آدم حنين**) عام ١٩٥٣ فى قسم النحت بكلية الفنون الجميلة وحصل على أعلى التقديرات .. وقد



صـلاح عبد الكريم : أحـدث انقلابا فى مفهوم النحت التقليدى مع التعبير عن قيم فنية عالمية ومضمون انسانى عام

أتاحت له سنوات الدراسة أن يتلقى التعاليم الأكاديمية على أيدى المثالين التقليديين وفى نفس الوقت يلمس ثورة السجينى على تلك التعاليم حيث درس على يديه أيضا .. وبعد تخرجه التحق بمرسم الفنون الجميلة بالأقصر حيث قضى عامين بين آثار المصريين القدماء ومع أهالى الصعيد .. وهناك فى هذا الجو المتكامل الأصالة أنتج أروع تماثيله .. واستمر فى هذه المرحلة الفنية حتى عام ١٩٥٧ عندما حصل على منحة دراسية فى ألمانيا فتغير فنه وتفكيره .

لقد كانت الفترة الأولى من انتاجه الفنى هى التى تمثل علامة بارزة وهامة فى علامات تطور فن النحت بمصر ، لأن أعماله تميزت بالأصالة التى ترتكز على أرض صلبة هى البيئة المحلية والتراث المصرى القديم . أما اضافته لفن النحت فهى قدرته على الجمع بين التعبيرية الاجتماعية والواقعية فى أعماله الفنية ، مع التخلص من التعبير الدارج والساذج عن الأحداث ، وعن المواقف المسرحية والميلودرامية التى يصورها النحت عند السجينى فى كثير من الأحيان ، هذا فى نفس الوقت الذى أكد فيه فن آدم حنين خطوة التحرر من القيود الاكاديمية والمدرسية فى التشكيل ، **فاستطاع أن يحقق التعبير المستتر الذكى عن الأحداث ، وأن يحقق الديناميكية والحيوية من داخل العمل الفنى ومن روحه العام بعيدا عن الاثارة والفوضاء الشكلية .** وكان بهذه المميزات أول من تناول الأحداث الجارية فى فنه من المثالين .. مؤكدا انفعاله الصادق بها وتعبيره عنها فى عمق وصفاء .

ان آدم حنين هو وليد أحداث ١٩٥١ ـ ١٩٥٢ .. **انه ابن الكفاح المسلح فى القناة والغاء معاهدة ١٩٣٦ ثم ثورة يوليو التى جاءت بعد ٦ شهور من حريق القاهرة ..**

لقد شهد الفنان كل هذه الأحداث وانفعل بها وكونت شخصيته الفنية .. الصبغة الجمالية فى فن النحت التى تتلائم مع هذه الأحداث وتعبر عنها متمثلة لكل ما تحقق من تطور فى فن النحت فى مصر .

وهكذا كانت تماثيله « **الحرية** » الموضوع حاليا فى مبنى وزارة التربية والتعليم و « **أم الشهيد** » الذى شارك به فى التعبير عن انتصار بورسعيد عام ١٩٥٦ ، تماثيلا تتناول الأحداث وفى نفس الوقت تخطو بفن النحت خطوة واسعة الى الأمام، لقد كان لها أثر كبير فى أعمال العديد من المثالين المصريين الذين شهدوا انتاجه وتابعوه رغم أنه لم يعمل بتدريس الفن .

كانت هذه هى اضافته فى المضمون .. وقد أسهم باضافة جديدة الى خامة النحت **عندما ادخل لأول مرة فى فننا الحديث استخدام خامة الفخار لتشكيل التماثيل** .. وقد كانت هذه الخامة تتفق تماما مع أسلوبه الفنى الذى توصل اليه فى تلك المرحلة .. فهى أقدر على البقاء لأنها أكثر صلابة من خامة الجبس البيضاء اللون بما يتضمنه هذا اللون من همود وركود . ان خامة الجبس معروفة بين المثالين بأنها خامة غير نبيلة ومحاولات تلوينها تفشل عادة فى التغلب على جمودها .. هذا فى نفس الوقت الذى تمثل فيه خامة الفخار مزيدا من الالتصاق ببيئتنا المحلية التى تناولها فى موضوعات هذه المرحلة الأولى من فنه .

ولكنه عندما سافر الى ألمانيا فى أواخر الخمسينات اصطدم بموجة التجريدية العاتية التى تجتاح أوروبا الغربية .. وخفت الموضوع فى تماثيله ليخلى مكانه لاهتمامات شكلية خالصة .. وأصبح الموضوع مجرد ذريعة لخلق شكل فنى خالص .. وأصبحت خامة النحت هى الخشب أو البرونز أو الحجر وراح يستخرج منها امكانياتها التشكيلية حتى لتبدو تماثيله الأخيرة وكأنها من أعمال التراث العتيق التى شاركت فى صياغتها الطبيعة المتقلبة وعوامل التعرية .. **ورغم أن هذه الأعمال اكدت شخصيته الفنية المتميزة وحددتها اكثر من ذى قبل الا انها لم تحقق من الجماهيرية والتاثير فى الحركة الفنية وفى مسارها ماحققه الفنان بأعماله فى سنوات انتاجه الأولى .**

صلاح عبد الكريم .. والحديد والغرية

صلاح عبد الكريم فنان مزخرف .. هذا هو تخصصه .. وهو أكبر سنا من آدم حنين .. أتم دراسته فى كلية الفنون الجميلة قبله .. ولكنه لم يحقق علامته البارزة فى الحركة الفنية الا بعد عودته من أوربا عام ١٩٥٨ عندما اتجه الى ممارسة النحت .

لقد اتجه صلاح عبد الكريم الى العالمية متخطيا بذلك كل من سبقوه من مثالين مصريين عندما استطاع أن يدرك مايتضمنه الحديد والمعادن من مضمون متصل بالتقدم الصناعى أو بمعنى أدق ما يتضمنه من دلالات تنبئ بالتقدم الصناعى .. **وهكذا كان اول فنان مصرى يخوض هذا الميدان ويبدع فيه ويصبح رائدا له .**

لقد اتجه صلاح عبد الكريم الى نفايات الحديد وبقايا المعادن ، فأضاف الى الخردة مرونة وتعبيرية لم يسبقه اليها أحد .

أما أسلوب التشكيل فهو يجمع بين التجريدية والتشخيصية ويعكس الاحساس بسلطان الآلات فى العصر الحديث .. ولقد وجد الفنان فى « وكالة البلح » حيث تباع مهملات المعادن من مسامير وصواميل وبلى وغيرها من الأشكال الميكانيكية ماراح يستلهم منها تشكيلاته الجديدة لموضوعاته . **ولكن الاضافة الكبرى لصلاح عبد الكريم الى فن النحت هى المضمون الانسانى العالمى الذى تصدى له وعبر عنه مجسما اياه فى هذه الخامة الجديدة على فن النحت فى بلادنا .**

ان الانسان المعاصر يحس بالرعب والاغتراب أمام قوى العلم المدمرة التى أطلقها الانسان من عقالها وأصبح يخاف من القنابل الذرية ووسائل الدمار الشامل ويملأه الاحساس بانعدام قدرته على التحكم فى مصيره .. هذا الاحساس المعاصر أيقظ الرعب القديم فى أعماقنا ، الرعب الذى سيطر على